


مركز البحوث والدراسات

# التجربة الدعوية للشيخ عبدالحميد ابن باديس

إعداد
مركز البحوث والدراسات

www.albayan.co.uk

# التجربة الدعوية
# للشيخ عبد الحميد ابن باديس

---

إعداد

مركز البحوث والدراسات

ح **مجلة البيان، ١٤٣٥هـ**

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مركز البحوث والدراسات في مجلة البيان

التجربة الدعوية للشيخ عبد الحميد ابن باديس ./ مركز البحوث والدراسات في مجلة البيان -الرياض، ١٤٣٥هـ

ص ٢٠٧، ٥, ١٧× ٢٤ سم

ردمك: ٤ - ٤١ - ٨١٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨

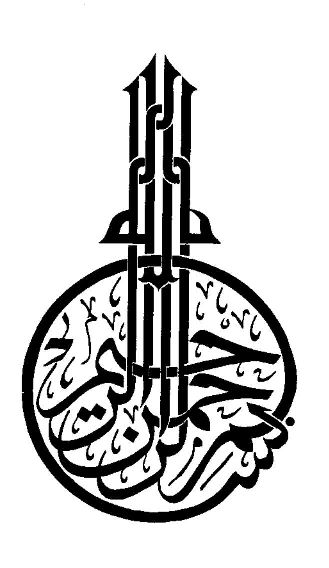
١ـ ابن باديس، عبد الحميد بن محمد، ت ١٣٥٩هـ.

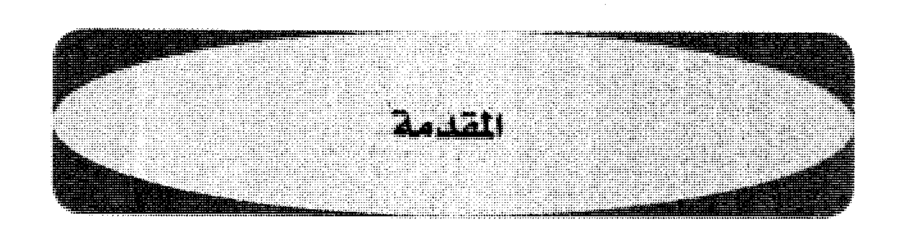
٢ - الدعوة الإسلامية. ٣ - الجزائر - تاريخ - العصر الحديث.
أ. العنوان

ديوي ٩٢٢,١١٣ ١٤٣٥/٧٤٨

**رقم الإيداع: ١٤٣٥/٧٤٨**

**ردمك: ٤ - ٤١ - ٨١٠١ - ٦٠٣ - ٩٧٨**


بسم الله الرحمن الرحيم




إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمد عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

**أما بعد:**

فإن في النظر في تجارب الدعاة والمصلحين حفزاً للهمة، وتسلية في زمن الغمة، وتلمساً لمواطن القوة والحسن فتطلب، أو لمواطن الضعف والزلل فتجتنب، وفي ذلك اقتداء بالمنهج القرآني والنبوي.

أما المنهج القرآني، فإنه مليء بقصص الأنبياء وغيرهم التي تعرض على النبي ﷺ ليقتدي بهم في إبلاغ الرسالة، والثبات على الحق، والصبر على الأذى، ومواجهة الملأ، والتوكل على الله سبحانه وتعالى، واجتناب الزلل، وقد قال الله سبحانه وتعالى آمراً نبيه ﷺ بالاقتداء بمن سبقه من الأنبياء بعد أن ذكر جملة منهم: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقال: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَأِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤]، قال ابن كثير -رحمه الله-: «أي: من خبرهم كيف نصروا وأيدوا على مَن كذبهم مِن قومهم، فلك فيهم أسوة، وبهم قدوة»[1]، وقال الله سبحانه وتعالى بعد أن عـرض على نبيه ﷺ قصة هود - عليه السلام - مع قومه: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وفـي قصـة يونـس - عليه السلام - يقول الله - سبحانه وتعالى - للنبي: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨].

وأما المنهج النبوي فإن النبي ﷺ يقص القصص لأصحابه - رضي الله عنهم - وأمته؛ ليقتدوا بأصحابها في الثبات على الحق وطلب الخير، واجتناب الشر، وهي كثيرة في سنته ﷺ، وقد جمعها بعضهم، وقامت عليها دراسات[2]، والله - سبحانه وتعالى - قد قال لرسوله ﷺ: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

إن المصلحين اليوم بحاجة إلى ما يشد أزرهم، ويجدد همتهم، ويفتح أمامهم آفاق التفاؤل، ويسد عليهم مسارب اليأس والتكاسل، وخاصة في مثل هذا الزمان

(١) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ٢٥٢.

(٢) ينظر مثلاً: صحيح القصص النبوي، للدكتور عمر الأشقر. ومختارات من القصص النبوي والقصص في الحديث النبوي: دراسة فنية وموضوعية، كلاهما للدكتور محمد حسن الزير.

الذي تكالب فيه الأعداء من كل جانب على الأمة الإسلامية، وتخاذل فيه كثير من أهل الإسلام؛ بل صار جملة منهم عوناً للأعداء على المصلحين من أهل العلم والدعوة، من حيث يشعرون أو لا يشعرون.

وإن من الدعاة المصلحين الذين كان لهم أثر عظيم في نهضة الأمة الإمام المجاهد عبد الحميد ابن باديس - رحمه الله رحمة واسعة -، وتجربته الإصلاحية المعاصرة في الجزائر تستحق أن يتوقف عندها الدعاة المصلحون، ويتأملوا مافيها من دروس وعبر؛ ليستفيدوا منها في طريق الإصلاح، وليدركوا أن الأمة الإسلامية المعاصرة مهما اشتدت بها المحن وتكالبت عليها الخطوب وحاصرها الأعداء وخذلها الأبناء فإنها لا تستسلم ولن تبيد، فإن مع العسر يسراً، إن مع العسر يسراً، ولن يغلب عسر يسرين؛ بل إن المحن والعداوات تجعل الأمة أصلب عوداً وأصلح حالاً، وتكون سبباً لأن يهيئ الله لها من يجدد أمر دينها. وهذه سنة الله - سبحانه وتعالى - في دعوة التوحيد الخالص من لدن آدم - عليه السلام - إلى عصرنا الحاضر.

وسنعرض في هذا البحث لأهم ما في هذه التجربة الإصلاحية، وقد حرصنا على أن ننقلها كما هي، من غير مبالغه في تعظيم الإمام ولا هضم لحقه، على أن هذا النوع من الدراسات لا يسلم فيه المرء من أحد أمرين، لكن نسأل الله العون والتسديد، والعفو والغفران.

وقد تناولنا هذا البحث في مقدمة، وثلاثة فصول، وخاتمة:

**أما الفصل الأول فتناولنا فيه بيئة الإصلاح، في أربعة مباحث:**

- المبحث الأول: الاحتلال الفرنسي وآثاره.
- المبحث الثاني: الواقع العقدي.

- المبحث الثالث: الواقع السياسي.
- المبحث الرابع: الواقع الإصلاحي.

**وأما الفصل الثاني فتناولنا فيه المصلح (الإمام ابن باديس)، في ثلاثة مباحث:**

- المبحث الأول: مسيرة حياته.
- المبحث الثاني: جوانب متميزة في شخصيته.
- المبحث الثالث: المؤثرات في شخصيته.

**وأما الفصل الثالث فتناولنا فيه المشروع الإصلاحي، في ثلاثة مباحث:**

- المبحث الأول: مجالات الإصلاح.
- والمبحث الثاني: وسائل الإصلاح.
- المبحث الثالث: جوانب النجاح وعوامله.

وأما الخاتمة فتضمنت جملة من الدروس والعبر المستخلصة من التجربة الإصلاحية لابن باديس، وإنا لنرجو الله سبحانه وتعالى أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفعنا به، وينفع به أهل العلم والدعوة، ومن يبلغه من القراء.

وإنه ليسرنا أن يهدونا تصويباتهم وملحوظاتهم وآراءهم التي يكون بها سداد البحث وتمامه، والله الهادي إلى سواء السبيل، والحمد لله رب العالمين.

# الفصل الأول

# بيئة الإصلاح

**وفيه أربعة مباحث:**

**المبحث الأول: الاحتلال الفرنسي وآثاره.**

**المبحث الثاني: الواقع العقدي.**

**المبحث الثالث: الواقع السياسي.**

**المبحث الرابع: الواقع الإصلاحي.**



## المبحث الأول
## الاحتلال الفرنسي وآثاره

ولد الشيخ عبد الحميد ابن باديس وقام بدعوته الإصلاحية في ظل احتلال فرنسي لبلاد الجزائر، بدأمن عام (١٢٤٦هـ/ ١٨٣٠م) [١]، بعد حصار دام ثلاث سنوات لإضعاف الجزائر عن مقاومة الغزو عندما يحين وقته. وقد دام الاحتلال مئة واثنتين وثلاثين سنة ميلادية، إلى سنة (١٩٦٢م). وتوفي الشيخ - رحمه الله - ولم يشهد خروج المحتل؛ ولكنه أسهم إسهاماً كبيراً فيه.

وقد كان عدد القوات الفرنسية حين الغزو قرابة أربعين ألفاً، ثم تنامى العدد إلى أن بلغ مئة وسبعة آلاف في عام (١٨٤٧م) [٢].

---

(١) يعتمد جل المؤرخين لدعوة الشيخ التاريخ الميلادي، وقد تجد بعضهم يذكر أحياناً التاريخ الهجري. وتحويل السنة الميلادية من دون يوم وشهر إلى سنة هجرية تنقصه الدقة، وما أمكننا تحويله وكان دقيقاً أو مقارباً حولناه، وما وجدناه هجرياً أثبتناه مع الميلادي، وإذا اختلف التاريخ الهجري المثبت هنا عن مرجع آخر فالأصل هو الميلادي، والله المستعان.

(٢) ينظر: مختصر تاريخ الجزائر: ٢٠٣، والحركة الوطنية الجزائرية: ١/ ١٦.

وكان احتلال فرنسا لبلاد الجزائر رغبة في التوسع الاستعماري في حقبة كانت الدول الغربية تتسابق في الاستعمار. وطمعاً في خيرات الجزائر التي كانت غنية بالأراضي الزراعية، وقد كانت تحقق اكتفاءً غذائياً ذاتياً، وتصدر الفائض من الإنتاج إلى المشرق وأفريقيا وجنوب أوروبا. ومما يذكر من أسباب الاحتلال التخلص من الديون المستحقة عليها للجزائر، وقد بلغت الملايين من الفرنكات، ولأسباب سياسية ومادية أخرى[1].

ولم تكن أطماع فرنسا في احتلالها خالصة للدنيا فحسب؛ بل كانت المقاصد الدينية والعداوة للإسلام محركة لهذا الاحتلال وظاهرة فيه، وفي التقرير الذي قدمه وزير الحربية إلى مجلس الوزراء الفرنسي في (١٤/ ١٠/ ١٨٢٧م) قال فيه: «من الممكن ولو مع مضي الوقت أن يكون لنا الشرف أن نمدنهم، وذلك بجعلهم مسيحيين»، وقال ملكهم شارل العاشر في خطاب أمام الجمعية الوطنية الفرنسية في (٢/ ٣/ ١٨٣٠م): «التعويض الهائل الذي أريد الحصول عليه وأنا أثأر لشرف فرنسا سيتحول بمعونة الله لصالح المسيحية»[2]. وقد بارك البابا للفرنسيين حملتهم بعد أن أخبروه أنهم سيرفعون الصليب ويخفضون الهلال[3]. وقد سعى الفرنسيون منذ أن وطئت أقدامهم أرض الجزائر إلى طمس الهوية الإسلامية والعربية للشعب الجزائري، والتمكين للنصرانية والثقافات الفرنسية والغربية[4]. وحينما احتفلت

(١) ينظر في أسباب الغزو: مختصر تاريخ الجزائر: ١٩٥-١٩٨، والموجز في تاريخ الجزائر: ١٧٧-١٩٥، والتاريخ السياسي للجزائر: ٨١-٩٠.

(٢) ينظر القولان في: التاريخ السياسي للجزائر: ٨١و٨٦، وينظر: هذه هي الجزائر: ٧٨.

(٣) ينظر: الحركة الوطنية الجزائرية: ١/ ١٦.

(٤) للتوسع في هذا الموضوع ينظر: بحث (التوجه المعادي للعروبة والإسلام في السياسة الفرنسية في الجزائر) ضمن كتاب (الجزائر منطلقات وآفاق): ٦٩-٩٧، الحركة الوطنية الجزائرية: ١/ ٧٩-٨٩و٢٣١-٢٤٠. وينظر: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي: ٣/ ٨٠، ١٦٢-١٦٤.

فرنسا عام (١٩٣٠م) بمرور قرن كامل على احتلالها الجزائر، قال أحد ساستها في هذا الاحتفال: «لا تظنوا أن هذه المهرجانات من أجل بلوغنا مئة سنة في هذا الوطن، فقد أقام الرومان قبلنا فيه ثلاثة قرون، ومع ذلك خرجوا منه، ألا فلتعلموا أن مغزى هذه المهرجانات هو تشييع جنازة الإسلام في هذه الديار»، وكتب الكاردينال لافيجري بهذه المناسبة: «إن عهد الهلال في الجزائر قد ولى»[١]. وأخذ الفرنسيون بمقولة: (إن العرب لايطيعون فرنسا إلا إذا أصبحوا فرنسيين، ولن يصبحوا فرنسيين إلا إذا أصبحوا مسيحيين)[٢]. وقد صدق جان بوجولا عندما قال عن حرب فرنسا للجزائر: «إن حربنا الأفريقية ما هي إلا استمرار للحروب الصليبية»، وقال: «زرعنا في هذا البلد (الجزائر) الفكرة الفرنسية، الفكرة المسيحية»[٣].

إن احتلال الجزائر- كما قال البشير الإبراهيمي -: «إنما هو قرن من الصليبية نَجَم، لا جيش من الفرنسيين هَجَم»[٤].

ويدعي الفرنسيون أنهم جاؤوا ليحرروا الجزائر من طغيان الأتراك، وينتقموا لشرف فرنسا من واليها التركي الداي حسين، الذي أهان بزعمهم القنصل الفرنسي في الجزائر حينما أشار بمروحة بيده إليه فادعى أنها أصابته[٥]. لكن الانتقام من الوالي صار انتقاماً من الشعب كله بدينه وثقافته ولغته وأرضه، وصار التحرير من الطغيان التركي

(١) ينظر القولان في: آثار الإمام البشير الإبراهيمي: ٥/ ٢٨٤، وذكرهم بأيام الله: ١٠٧.

(٢) ينظر الجزائر منطلقات وآفاق: ٧١.

(٣) دراسات أفريقية، لجان بوجولا: ٢/ ١٤، عن: الحركة الوطنية الجزائرية: ١/ ٢٣٣. وذكر الدكتور سعد الله في المرجع نفسه أن بوجولا زار الجزائر عام (١٨٤٤)، وبقي فيها سنتين باحثاً عن آثار القديس أوغسطيس وغيره، ودعا إلى توطين المارونيين العرب في الجزائر ليكونوا لها نعم الرافد.

(٤) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي: ٣/ ١٦٤.

(٥) ينظر: الحركة الوطنية الجزائرية: ٢/ ١٧.

احتلالاً وإحلالاً للطغيان الفرنسي والغربي. وقد قررت فرنسا إلحاق الجزائر بها، وأعلنت بعد أربع سنوات من الغزو أن الجزائر جزء من فرنسا. وزعمت دائرة المعارف العالمية الفرنسية أن (الجزائر) اسم فرنسي، يرجع تاريخه إلى سنة (١٨٣١م)[١].

واتبعت فرنسا في احتلالها سياسات عدائية وممارسات عنصرية وإجراءات قمعية شديدة، تقوم على التفقير، والتجهيل، والتنصير، والفرنسة والتجنيس الذي يشترط التخلي عن الهوية الإسلامية والعربية، ووأد اللغة العربية وإحلال الفرنسية واللهجات المحلية والعامية، وتزوير التاريخ الجزائري وتفسيره بتفسيرات مغرضة ومتحيزة، وتفكيك الشعب، وتقويض الوحدة الاجتماعية والتماسك الأسري، وتحطيم النفوس والرموز، وتفريغ البلاد من القيادات الجهادية والإصلاحية، وقطع الصلة بالمشرق الإسلامي العربي[٢].

وكان مما عمله الاحتلال انتهاك الحرمات وهدم المساجد، أو تحويلها إلى كنائس أو ثكنات أو مستوصفات أو ملاهٍ. وقد كان في العاصمة قبل الاحتلال أكثر من مئة مسجد، وحوّل أكبر مسجدين فيها إلى كنائس، والباقي هدم إلا خمسة[٣].

وشجع الإرساليات التنصيرية الفرنسية وغيرها، وخاصة في المناطق المتميزة بشرياً وجغرافياً، والتي يكون لها أثر في ميزان القوى، وتؤثر على تطور الأوضاع وتوجهات المستقبل، «وفي مقدمتها المناطق الجبلية، شرق الجزائر العاصمة المعروفة بمنطقة بلاد

---

(١) عن: تاريخ الجزائر المعاصر: ١/ ٧.

(٢) للتوسع في هذه السياسات والإجراءات ينظر: هذه هي الجزائر: ٩٦-١٥٠، والجزائر منطلقات وآفاق: ١٩-٤٣، و٦٩-٩٣، والحركة الوطنية الجزائرية: ١/ ٢١-٩٥و٢٠٨-٢٥٤، وأبحاث وآراء في تاريخ الجزائر: ٤/ ١٩-٢١، والجزائر تعود لمحمد ﷺ، لمحمد مورو: ٤٠-٤٦.

(٣) ينظر: هذه هي الجزائر: ١٤٠.

القبائل، حيث تم فتح العديد من مدارس الإرساليات التبشيرية، وبنيت بعض الكنائس، ووجه نشاطها للأعمال الخيرية والخدمات الاجتماعية؛ لربطها بواقع السكان هناك. وقد بلغ عدد الكنائس ثلاثين كنيسة، فتح بها الرهبان سبع عشرة مدرسة»[١].

وأحرق الاحتلال كثيراً من المكتبات العلمية الزاخرة بالكتب والمخطوطات. وطمس المعالم والأسماء الإسلامية والعربية، وأحلّ بدلاً منها معالم وأسماء فرنسية وغربية ونصرانية[٢]، وأغلق الكتاتيب والمدارس الابتدائية والثانوية والعالية التي كان يدرس فيها أكثر من مئة وخمسين ألف طالب، ووضع قيوداً على فتح المدارس، وقصرها على حفظ القرآن لا غير، مع عدم التعرض لتفسير آياته، وعدم دراسة تاريخ الجزائر، والتاريخ العربي الإسلامي، والأدب العربي، وتحريم دراسة المواد العلمية والرياضية، كما صادر الاحتلال الأوقاف الإسلامية، التي يعتمد عليها التعليم اعتماداً كبيراً.

وافتتح مقابل ذلك عدداً من المدارس التي تحقق أهدافه، وتقوم على تعليم الفرنسية وغرس القيم الغربية، وسمى بعضها بالمدارس (الفرنسوية الإسلامية!)، في الجزائر العاصمة وبعض المدن الأخرى، ولم يكن الإقبال عليها في بداية الأمر كبيراً؛ لوعي كثير من الناس بخطورتها، لكن كان لها آثار سلبية خطيرة[٣].

وشجع الاحتلال الهجرة الأوربية إلى الجزائر، حتى قارب عدد الفرنسيين والأوروبيين مليون نسمة قبل الثورة الجزائرية (١٩٥٤م)، ويمثلون عشر سكان الجزائر، واستولوا على أراضي الجزائريين الزراعية وأملاكهم العقارية، وسيطروا على إدارة البلاد وصناعتها وتجارتها، وحولوا الجزائريين إلى أُجَراءَ أو عاطلين متسوّلين.

(١) ينظر: الجزائر منطلقات وآفاق: ٨٧-٨٨، وجمعية العلماء المسلمين: ٥٢-٥٣.

(٢) ينظر: الحركة الوطنية الجزائرية: ١/ ٦٦-٧٢

(٣) ينظر: تاريخ الجزائر المعاصر: ١/ ١٧- ٢٧.

وإلى هؤلاء المستعمرين توجه التسهيلات وتوفر الخدمات، وأما الجزائريون الذين يمثلون تسعة أعشار السكان وهم الغالبية والسكان الأصليون فهم لا يملكون شيئاً ولا يتمتعون بحقوق مواطنة ولا بأي نوع من الحرية[1].

وواجه الاحتلال المقاومة الجزائرية ببطش وحشي شديد، وقام بعمليات إبادة جماعية لقبائل وقرى، قتلاً وإحراقاً بالنار، ومن ذلك مافعله بقبيلة بني صبيح، حيث قال الجنرال كافيناك معترفاً بما فعلوه: «لقد تولى الأجناد جمع كميات هائلة من أنواع الحطب، ثم كدسوها عند مدخل المغارة التي حملنا قبيلة أولاد صبيح على اللجوء إليها بكل ما تملك من متاع وحيوانات، وفي المساء أضرمت النيران وأخذت الاحتياطات كيلا يتمكن أحد من الخروج حياً»[2].

وحصل بسبب هذه الإجراءات مع مرور السنوات جهل عريض وأمية شاملة، خصوصاً أن كثيراً من العلماء قتلوا، أو هاجروا، وقد كانت الجزائر تعد من الدول القلائل التي ينتشر فيها التعليم انتشاراً واسعاً تتضاءل معه الأمية، ويذكر في قسنطينة وحدها قبل الاحتلال أكثر من خمسة وثلاثين مسجداً تستعمل مراكز للتعليم، وفيها تسعون مدرسة[3].

واستطاع الاحتلال من خلال مدارسه تكوين نخبة جزائرية تؤمن بالقيم الفرنسية والمبادئ العلمانية، وتتفاعل مع الحياة الغربية وتكتسب عاداتها وثقافاتها وتدعم توجهات الاحتلال[4].

---

(١) ينظر: تاريخ الجزائر المعاصر: ١/ ٢٤، والجزائر منطلقات وآفاق: ٣١.
(٢) عن: تاريخ الجزائر المعاصرة: ١/ ٨٠، وينظر: هذه هي الجزائر: ٨٩-٣٩، والجزائر عبر الاجيال: ٢١٣-٢٢٩، والحركة الوطنية الجزائرية: ١/ ٢٢٩.
(٣) ينظر: هذه هي الجزائر ١٣٩-١٤٧، وتاريخ الجزائر المعاصرة: ١/ ٢٠و٢٩.
(٤) ينظر: الجزائر منطلقات وآفاق: ٨٧-٨٨.

وهاجر كثير من الجزائريين في بدء الأمر إلى بلاد المشرق الإسلامي، وخاصة بعد فرض قرار التجنيد الإجباري للجزائريين في الجيش الفرنسي عام (١٩٠٨م)، حيث أصبحت الهجرة ظاهرة عامة، وتأخذ شكل نزوح عام للأسر، واتجه الجزائريون نحو المغرب وتونس ومصر والشام وفلسطين والحجاز وتركيا، ثم تحولت الهجرة بسبب الضائقة الاقتصادية والسياسات الاستعمارية إلى فرنسا، وتنامى عدد المهاجرين إلى فرنسا من (٥٠٠٠) مهاجر قبل الحرب العالمية الأولى (١٩١٢م)، إلى (١٠٠٠٠) مهاجر في عام (١٩١٤م)، وإلى نحو (٥٠٠٠٠) مهاجر بعد الحرب العالمية الثانية (١٩٤٧م)، وما زال العدد يتنامى إلى أن بلغ في الوقت الحاضر أكثر من مليون مهاجر[١].

وتحولت الجزائر من بلد مكتف ذاتياً ينتج ويصدر، إلى بلد يستورد احتياجات سكانه من الموارد الغذائية الضرورية[٢].

ولم يقف الشعب الجزائري مكتوف الأيدي؛ بل قاوم الغزو وجاهد المحتل حتى بعد سقوط الحكومة الجزائرية واستسلامها، وقامت حركات وثورات في أنحاء الجزائر، وكان من أوائلها وأبرزها: مقاومة الأمير عبد القادر من عام (١٨٣٠م)، وكانت مقاومة قوية أرغمت الاحتلال على الاعتراف له بالسيادة على جزء كبير من الجزائر، واستمرت المقاومة إلى أن اضطر الأمير إلى الاستسلام عام (١٨٤٧م).

وكان من أقواها: ثورة المقراني والشيخ حداد بين عامي (١٨٧٠-١٨٧١م) وكادت أن تطيح بالاحتلال حتى إنها بلغت العاصمة الجزائر.

---

(١) ينظر: هذه هي الجزائر: ١٣٥-١٣٧، والجزائر منطلقات وآفاق: ٤٠، والحركة الوطنية الجزائرية: ١/ ٣٠٠، و٢/ ١١٩-١٣٠ والتاريخ السياسي للجزائر: ٢٠٨.

(٢) عن: تاريخ الجزائر المعاصر: ١/ ١٨، وينظر: الحركة الوطنية الجزائرية: ١/ ١٨٧.

وبين هاتين الحركتين الجهاديتين وبعدهما ثورات أخرى تختلف قوة وضعفاً وطولاً وقصراً[1].

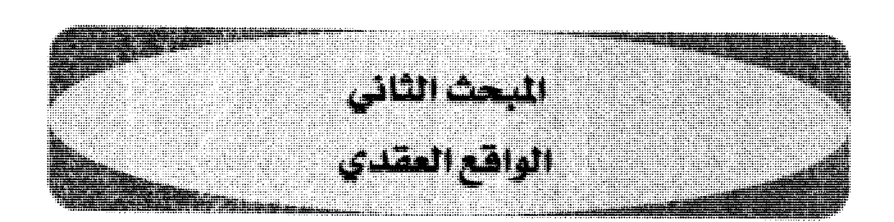
إلا أنه بعد قمع ثورة المقراني وأمام تلك السياسات العدائية والإجراءات القمعية في عقود متتالية ضعفت المقاومة، وخبت جذوة الحماس والجهاد في نفوس الأكثرين «وأصبح الإحباط يسيطر على نفسية الشعب الجزائري؛ إذ بات ينظر إلى الوجود الفرنسي على أنه أمر واقع لا يمكن دفعه، ولا طاقة للشعب الجزائري به، وليس أمامه إلا الاستسلام له، والتعايش معه وصار ينظر إلى مقاومته على أنها نوع من الانتحار والعبث الذي لن يجدي شيئاً»[2]، وبذلك نجح الاحتلال في ترسيخ وجوده «حتى صارت الجزائر في حكم الواقع جزءاً من فرنسا، يستحيل فصله عنها، وكانت أقصى أماني بعض قادة الشعب الجزائري أن تتم معاملتهم بعدل ومساواة وأن يتمتعوا بالحقوق والحريات التي يتمتع بها الفرنسيون؛ بل ذهب بعضهم إلى ضرورة الاندماج الكلي في الهوية الفرنسية، وأنه لا مستقبل للجزائر وشعبها إلا بذلك، وكانت هذه الدعوة أخطر ما كانت تواجهه الشخصية الجزائرية، كما عبر عن ذلك المفكر الفرنسي جاك بيرك بقوله: «لولا الإسلام في الجزائر لفقدت الشخصية الجزائرية ذاتيتها؛ لأن ضغط الاستعمار ونموه وفساده كان يمكن أن يؤدي إلى إذابة الشخصية الجزائرية في الشخصية الفرنسية، لقد كانت هذه الفكرة بما فيها من جاذبية لمن سحرتهم الحضارة الغربية من الجزائريين هي الخطر الأكبر على الشخصية الجزائرية في المغرب»[3].

---

(١) ينظر في جهاد الجزائريين ومقاومتهم: هذه هي الجزائر: ٨٣-٨٩و١٥١-١٥٧، والحركة الوطنية الجزائرية: ٢/ ٢٩-٥٧، والتاريخ السياسي للجزائر: ١٠٥-١١٩و١٤٣-١٥١.

(٢) ابن باديس والغزو الثقافي، للدكتور حاكم المطيري، مقالة في موقع الإمام عبد الحميد ابن باديس.

(٣) المرجع السابق.




يسجل ابتداء أن الواقع العقدي الذي ولد فيه الشيخ ابن باديس وقامت فيه دعوته الإصلاحية لم يكن سلفياً، وإنما تسيطر عليه عقائد الصوفية والأشاعرة، وفيه بعض الخوارج الإباضية، واليهود، كما أن التنصير وجد في البلاد مرتعاً بعد الاحتلال كما سبقت الإشارة إليه. وسنتناول واقع هذه العقائد بإيجاز:

**أ/ التصوف:**

(التصوف) الذي نتحدث عنه ليس هو مجرد الزهد في الدنيا، فإن هذا أمر لا إنكار فيه، ما دام في حدود الزهد المشروع والمباح، ولو صح أن التصوف في أول أمره هو الزهد في الدنيا، فإنه بعد ذلك لم يعد مقتصراً على هذا المفهوم؛ بل صار الزهد مظهراً له وليس مبدأ من مبادئه؛ بل إننا نجد من المتصوفة المتأخرين ومن رؤوسهم ودعاتهم من لا يظهر عليهم الزهد؛ بل يظهر عليهم الغنى والترف.

إن (التصوف) المقصود هو ذلك المذهب الذي له فلسفته ومبادؤه التي يقوم عليها، وهو مذهب حادث في الإسلام بعد عصر النبوة والصحابة رضي الله عنهم، وتنوع

إلى طرق كثيرة، تقوم على عقائد فلسفية كفرية كالحلول والاتحاد ووحدة الوجود، أو تؤول إليها، أو على عقائد شركية في العبودية بدعاء غير الله لطلب نفع أو كشف ضر، أو محدثات بدعية في الذكر وأداء العبادات.

وتعتمد في مصادر التلقي على الكشف والذوق والوجد وغيرها، وتقدمها على كتاب الله - سبحانه وتعالى - وسنة رسوله ﷺ، وتؤول كلام الله بتأويلات باطنية تسميها: إشارات.

ومن المظاهر والممارسات التي تغلب على المتصوفة: الاعتزال، والتزهد، والقبورية، والطاعة المطلقة للشيخ، والغلو في الأولياء والصالحين أحياءً وأمواتاً، والذبح لهم وتقديم القرابين إليهم، وإقامة موالد شيوخهم وأوليائهم مع الرقص والغناء.

وهم يقصرون العبودية على المحبة، فيزعمون أنهم يعبدون الله محبة خالصة له متجردة من أي شيء، لا رجاءً في جنته وثوابه ولا خوفاً من ناره وعقابه، ولذا قال السلف: «من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق»[1].

ويحتج الصوفية بالقدر على التواكل وترك أسباب العيش والصحة وإقامة الحياة الدنيوية، كما يحتجون به على وقوع المعاصي، والرضا بالواقع أياً كان.

وفي شأن الجهاد في سبيل الله قال ابن تيمية عنهم: «الغالب عليهم أنهم أبعد عنه من غيرهم، حتى نجد في عوام المؤمنين من الحب للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمحبة والتعظيم لأمر الله والغضب والغيرة لمحارم الله وقوة المحبة والموالاة لأولياء الله وقوة البغض والعداوة لأعداء الله ما لا يوجد فيهم؛ بل يوجد فيهم ضد ذلك»[2].

---

(١) ينظر: شرح العقيدة الطحاوية: ٢/ ٤٥٨.

(٢) الاستقامة: ١/ ٢٦٨.

ولا تخلو أية طريقة من الطرق الصوفية من كفر أو شرك أو بدعة في الاعتقاد أو العمل، مما يخرجهم من الدين أو من منهج السلف أهل السنة والجماعة[1].

وقد سيطر (التصوف) على بلاد الجزائر، وانتشر في أنحائها، وانتشرت معه البدع والخرافات، وقد بلغ عدد الزوايا الصوفية حوالي (٣٥٠) زاوية، يتبعها نحو ثلاثمئة ألف مريد[2]. وتنتشر طرق مثل القادرية والرحمانية والدرقاوية والتيجانية والشاذلية وغيرها.

وكان لبعض الصوفية في أول الأمر إسهام في جهاد الفرنسيين، كما كان لبعض الطرق المنتشرة قعود عنه كالتيجانية، التي لها حضور في البلاد، والطريقة الحنصالية، التي كانت زعامتها في قسنطينة وما حولها، والطريقة العيساوية وطرق أخرى. وبعض الطرق تجاذبها تياران: أحدهما يدعو إلى الخلوة والقعود، والآخر إلى الجهاد والمقاومة.

ثم آل أمر كثير منهم إلى ترك الجهاد والاستعداد له، وصار أحدهم إذا سئل عن حاله قال: (نأكل القوت ونستنى الموت) أي نأكل الطعام وننتظر الموت.

وقد استطاع الاحتلال أن يوثق صلته ببعض الطرق وشيوخها، ويكسبه إلى جانبه، ويستصدر فتاوى منهم كان لها أثر كبير في تثبيط الهمم عن الجهاد والاستعداد له، بدعوى أن وجود الاحتلال هو من باب القضاء والقدر، الذي ينبغي التسليم به،

---

(١) ينظر في التصوف: الجزء الحادي عشر من مجموع فتاوى ابن تيمية. والاستقامة له، والتصوف لإحسان إلهي ظهير. والفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، لعبد الرحمن عبد الخالق، والمصادر العامة للتلقي عند الصوفية لصادق سليم صادق. والكشف عن حقيقة الصوفية لمحمود القاسم، وهذه هي الصوفية لعبد الرحمن الوكيل، والموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ١/ ٢٤٧-٣٣١.

(٢) ينظر: آثار ابن باديس: ١/ ١٨.

والصبر عليه، وأن طاعة السلطة التي أقامها الفرنسيون طاعة لولي الأمر! وصار منهم عيون للاحتلال على أهل الإصلاح؛ بل أيد بعض زعماء الطرق فرنسا في الحرب العالمية، ودعا بعضهم إلى الوقوف معها بالنفس والمال. فأصبحت بعض طرق الصوفية من أدوات الاستعمار الفرنسي لإخضاع الشعب الجزائري واستغلاله باسم الإسلام(١).

### ب/ الأشعرية:

الأشعرية: فرقة كلامية إسلامية، تنسب إلى أبي الحسن الأشعري.

ومن أبرز آرائهم التي يخالفون فيها منهج السلف الصالح: تقديم العقل على نصوص الوحي- وهو أصل من أصول المعتزلة وتأخذ به الأشعرية فيه بعض الجوانب - وأن معرفة الله تعالى لا تحصل إلا بالنظر العقلي. وأن الإيمان يحصل بمجرد التصديق، وعند بعضهم بالمعرفة، وأما العمل فخارج عن مسمى الإيمان، وهذا قول المرجئة. والتوحيد عندهم هو توحيد الربوبية، ويدخلون فيه نفي الصفات الخبرية التي تقتضي عندهم تجسيماً. وينفون الصفات الاختيارية التي تتعلق بمشيئة الله واختياره، ولا يثبتون من الصفات إلا سبعاً وهي: العلم، والقدرة، والإرادة، والحياة، والكلام، والسمع، والبصر. وهي عندهم صفات أزلية قديمة قائمة بذات الرب سبحانه، ولاتتعلق بمشيئة، وينفون ما عداها أو يتأولونه.

---

(١) ينظر: صراع بين السنة والبدعة، لأحمد حماني: ١/ ٣٠١، والحركة الوطنية الجزائرية: ١/ ٢٩٧-٣٠٠، ٣٨٢-٣٨٩، و٢/ ٦٣-٦٤، وعبد الحميد ابن باديس، لمازن مطبقاني: ١١٠-١١١، ١١٤-١١٥ وجمعية العلماء الجزائريين: ١٣٧-١٤٨، ٢٣٣، والصوفية نشأتها وتطورها، لمحمد العبدة وطارق عبد الحليم: ٩٣-٩٤.

ويرون أن كلام الله الذي تكلم به بحرف ولفظ إنما هو عبارة عن الكلام النفسي القديم، ولذا هم يرون أن القرآن العربي بحروفه ولفظه ليس من كلام الله، وإنما هو عبارة عن كلام الله. ويذهبون إلى أن الله تعالى خالق لأفعال العباد على وجه النسبة والحكم، ويسمى كسباً، لا على وجه التأثير، فإنه لا أثر لقدرة العبد في فعله؛ بل الأفعال واقعة بقدرة الله تعالى وحدها، وقد أرادوا أن يوفقوا بين الجبرية والقدرية فجاؤوا بهذه النظرية (الكسب)، وهي في مآلها جبرية خالصة لأنها تنفي أي قدرة أو تأثير للعبد، وقد صرح بعض أئمتهم بالقول بالجبر. ويرون أن خبر الآحاد لا يفيد اليقين، فلا يحتج به في العقائد ابتداءً، ولا مانع من الاحتجاج به في مسائل السمعيات، خاصة إذا لم يعارضه قانون عقلي[1].

والأشاعرة في عقيدتهم سلكوا مسلك المرجئة في الإيمان، وسلكوا مسلك الجبرية في القدر، ويلتقون في هذا مع الصوفية المتواكلة.

ويسود في الجزائر المذهب الأشعري مع انتشار التصوف. ولا عجب في ذلك فإن الأشعرية والصوفية قد حصل بينهما تزواج قديم[2]، وتدرس العقيدة في المساجد ودور العلم من خلال مؤلفات الأشاعرة، كالاقتصاد في الاعتقاد للغزالي، وغيره.

---

(١) ينظر في عقيدة الأشاعرة: الملل والنحل، للشهرستاني: ١/ ١٠٦-١١٨. ومنهج الأشاعرة في العقيدة، للحوالي. وموقف ابن تيمية من الأشاعرة، للمحمود: ٢/ ٥٠٥-٦٩٦، والموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ١/ ٨٣-٩٤.

(٢) ينظر في ذالك: منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله: ١/ ١٦٢-١٧١، وموقف ابن تيمية من الأشاعرة: ٢/ ٥١١ و٥٩٥و٦٣٥.

### ج/ الإباضية:

تنسب الإباضية إلى عبد الله بن إباض التميمي، ولا يعلم تاريخ ولادته ولا وفاته، لكنه عاصر الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (ت٨٦هـ).

وهم فرقة من فرق الخوارج الكبرى، كما ذكر ذلك بعض علمائهم، لكن بعضهم لا يرتضي النسبة إلى الخوارج.

ومن أبرز مقالاتهم: تأويل الصفات الإلهية. وأن القرآن مخلوق. وينكرون رؤية الله في الآخرة. ويطلقون على العاصي كافراً: كفر نعمة ونفاق، لا كفر شرك وجحود، فهو ليس بمشرك لكنه ليس بمؤمن ولا مسلم؛ لأن الإيمان عندهم يؤخذ بجميعه، ولا يبقى إذا انتقص منه، ويجرون عليه في الدنيا أحكام المسلمين، ويتبرؤون منه حتى يتوب، وإن مات ولم يتب فلا شفاعة له، ويكون مخلداً في النار. وينكر أكثرهم أن يكون الميزان والصراط حسيين، ويؤولونهما ببعض المعاني.

وقد كان للإباضية تاريخ قديم في الجزائر، منذ منتصف القرن الثاني الهجري، وقد أسسوا لهم الدولة الرستمية في (تيهرت) سنة (١٦٠هـ)، إلى أن قضى عليها الفاطميون سنة (٢٩٦هـ)، إلا أن وجودهم استمر في الجزائر، وتركزوا بعد ذلك في (وادي ميزاب)، وعددهم قليل، وذكر القاضي الإباضي أبو الربيع الباروني سنة (١٣٥٥هـ-١٩٣٦م) أن الإباضية في ليبيا (جبل نفوسة، وزوارة) وتونس (جزيرة جربة) والجزائر (وادي ميزاب) يربو عددهم على المئتي ألف. ومن أشهر علمائهم في الجزائر: إبراهيم إطفيش (ت١٣٨٥هـ) وإبراهيم بن عمر بيوض (ت١٤٠١هـ)، وهو

من الأعضاء المؤسسين لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة (١٩٣١م)[١]، والشيخ أبو اليقظان، وقد أصدر جريدة (وادي ميزاب) عام (١٩٢٦م)، فعطلتها السلطات الفرنسية بعد سنتين ونصف، فأصدر بعدها جريدة (ميزاب) فصودرت، فأصدر (المغرب) ثم (النور) ثم (النبراس)[٢].

**د/ اليهود:**

يذكر الدكتور ناصر الدين سعيدوني أن أصول الجماعة اليهودية بالجزائر في العهد العثماني تعود إلى ثلاثة عناصر بشرية مختلفة: عنصر يمثل اليهود الذين استقروا في البلاد منذ الحكم الروماني قبل الإسلام. وعنصر آخر يمثل يهود الأندلس الذين هاجروا مع العرب من الأندلس بعد سقوط الحكم الإسلامي فيها نهاية القرن الخامس عشر الميلادي. وعنصر ثالث تكون بفعل نزوح يهود ليفورن وبعض المدن الإيطالية الأخرى إلى الجزائر مع نهاية القرن السابع عشر الميلادي؛ للاشتغال بالأعمال التجارية والمبادلات النقدية مع دول أوروبا. كل هذه العناصر كانت تؤلف الطائفة اليهودية التي بلغ عدد أفرادها عشية الاحتلال ثلاثين ألف نسمة، تركز ثلثهم في مدينة الجزائر التي يربو عدد سكانها على خمس وسبعين ألفاً[٣].

وقد كان لليهود منذ منتصف القرن الثامن عشر الميلادي قوة اقتصادية كبيرة تحتكر جلّ المبادلات التجارية والأعمال المالية، وتزايد نفوذهم الاقتصادي حتى أدى

---

(١) ينظر في الأباضية: الخوارج لناصر العقل: ٥٥-٩٥، والإباضية لعبد العزيز آل عبد اللطيف، ودراسات إسلامية في الأصول الإباضية لبكير أعوشت، ومختصر تاريخ الإباضية لأبي الربيع الباروني، والموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: ١/ ٥٨-٦٣.

(٢) ينظر: آثار ابن باديس: ١/ ٥٩.

(٣) ينظر: الجزائر منطلقات وآفاق، للدكتور ناصر الدين سعيدوني: ٣٦٦

إلى تململ اجتماعي وانتفاضة ضدهم منذ مطلع القرن التاسع عشر الميلادي، وصار الجزائريون ينفرون منهم وينظرون إليهم على أنهم طائفة أجنبية لا يربطها بالبلاد سوى مصالحها الخاصة.

ولما جاء الاحتلال أظهر اليهود الاغتباط به والتعاطف معه، حفاظاً على مصالحهم الخاصة، وسارعوا إلى إلحاق أبنائهم بمدارس (الرابطة الإسرائيلية العامة) التي أنشئت في المدن الجزائرية الكبرى بمبادرة من يهود فرنسا، وكان لها أثر في تنشئة أجيال اليهود على الثقافة الفرنسية واكتساب سلوكياتها، واندماجهم مع الجالية الأوروبية في الجزائر.

وسارع الاحتلال إلى فرْنَسة اليهود وإشراكهم في بعض المناصب لتعزيز الاستعمار وتسخيرهم في خدمة أهدافه، وأقر لهم إنشاء ثلاثة مجامع دينية في الولايات الثلاث آنذاك: الجزائر العاصمة وقسنطينة ووهران، وكان يشرف عليها مجمع ديني لعموم يهود الجزائر، ثم صارت تحت إشراف المجمع الديني المركزي لعموم يهود فرنسا.

وقد حصل لليهود بعض الاجراءات القمعية في فترة وجيزة ومتأخرة من عهد الاحتلال (١٩٤٠-١٩٤٣م) حينما تغلب على السلطة الفرنسية الموالون لألمانيا، إلا أن اليهود استعادوا جميع الامتيازات التي حصلوا عليها بعد أن تخلصت فرنسا من سلطة الموالين لألمانيا.

وقد تنامى عدد اليهود في ظل الاحتلال، فبعد أن كان عددهم يناهز الثلاثين ألفاً في بدء الاحتلال عام (١٨٣٠م) صار بعد قرن من الاحتلال عام (١٩٣١م) يزيد على مئة ألف يهودي، وتوجد غالبيتهم في المدن الكبرى: العاصمة، ووهران وقسنطينة

ولاية الشيخ ابن باديس، ويوجد فيها حين وفاة الشيخ ما يزيد على ثلاثة عشر ألف يهودي.

وصاحب نموهم العددي تزايد في نفوذهم الاقتصادي، وأصبحوا يستحوذون على جزء مهم من المبادلات التجارية، ويتحكمون في عدد من الوظائف الإدارية والمهن الحرة، وامتلكوا الضيعات ووضعوا أيديهم على كثير من الأراضي الزراعية، وحاولوا التحكم في مقدرات الجزائر الاقتصادية في ظل الحماية والامتيازات الفرنسية.

وبذلك أصبح لليهود تميز اجتماعي وثقل سياسي، مما جعلهم يظهرون الشعور بالتفوق والثقة بالنفس إلى حد الغرور، حتى إن أحد زعمائهم كان يتبجح بقوله: لا أحد يستطيع أن يتسلم مقاليد البلدية بدون أن أمنحه مفاتيحها.

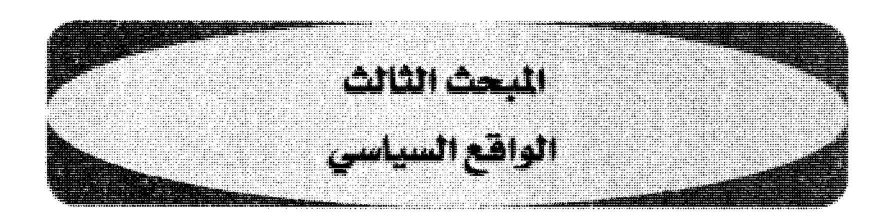
إلا أن هذا الوضع لم يعجب اليمينيين من الفرنسيين والتجار الأوروبيين الذين استوطنوا البلاد، ويرون أنهم وحدهم أحق بحكم البلاد واستغلال خيراتها، فنشأت فيهم نزعة معادية لليهود، حدثت بسببها تحرشات وصراعات بينهم وبين اليهود، كما أنشؤوا لهم رابطة ومجلة متخصصتين بمعاداة اليهود.

وبسبب وضعهم المتميز وتجنسهم بالفرنسية وقف اليهود موقفاً متغطرساً ومعادياً للمسلمين، مما أثار حفيظتهم وجعلهم يقفون من اليهود موقفاً عدائياً مستحكماً بعد أن كانوا يتصفون في التعامل معهم بحسن الجوار، وحدثت بين المسلمين واليهود صراعات وأحداث دموية، بسبب تحرشات اليهود وأفعالهم الاستفزازية. ومن ذلك ما فعله أحد الجنود اليهود في قسنطينة حيث أطل على المسلمين عند الجامع

في (٣ أوت ١٩٣٤م) وسب الإسلام والنبي والصلاة والجامع، وحصل بسببه مناوشات، واستطاع ابن باديس والمفتي وبعض النواب تهدئة المسلمين وتطويق الفتنة، إلا أن الحال تطورت بعد يومين بسبب اليهود، حيث أطلق بعضهم النار على المسلمين، مما أثار السخط والهيجان، وأدى إلى أحداث دموية قتل فيها من اليهود أكثر من عشرين، وجرح عدد منهم، وأحرقت بعض مساكنهم، وخربت كثير من دكاكينهم، وأما المسلمون فقتل منهم اثنان، وجرح عدد منهم وخربت دكاكينهم[1].

---

(١) ينظر في هذه الحادثة: آثار ابن باديس ٤/ ٤٨، وينظر في يهود الجزائر: هذه هي الجزائر: ٤١-٤٣، والجزائر منطلقات وآفاق: ٢٦٥-٣٩٢، والحركة الوطنية الجزائرية: ١/ ٢٦، وآثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي: ٣/ ٨١.



## المبحث الثالث
## الواقع السياسي

يتمثل العمل السياسي في مشاركة فاعلة في إدارة شؤون الحكم، أو التحزب، أو التعبير عن الرأي السياسي من خلال أدوات متنوعة كوسائل الإعلام وغيرها.

ومنذ أن احتلت فرنسا الجزائر وهذه الممارسات السياسية محرمة على الجزائريين، والاحتلال هو الذي يتولى شؤون البلاد السياسية والإدارية، وإن كان يشرك ظاهرياً بعض الجزائريين في بعض المناصب الإدارية، إلا أنهم لا يشاركون في توجيه سياسة البلاد، ولا يستطيعون تقديم مبادرات سياسية. ومع هذا فإن الجزائريين مارسوا العمل السياسي منذ أن وقع الاحتلال، حيث أنشأ بعض الجزائريين بزعامة حمدان خوجة (لجنة المغاربة) عام (١٨٣٠م)، ويعدُّ أول حزب وطني سياسي، يهدف إلى المقاومة السياسية للاحتلال، ويطلق عليه الدكتور سعد الله (حزب المقاومة)[1].

وقد بدأ الحزب عمله بالخفاء، ثم أعلن معارضته للاحتلال، وقدم نداءات ومطالب وعرائض إلى السلطات الفرنسية في الجزائر وفرنسا، للاعتراف بالكيان

(١) ينظر: الحركة الوطنية الجزائرية: ٢/ ٢٩، وأبحاث وآراء في تاريخ الجزائر: ٤/ ١٤١.

الجزائري، وتطبيق مواد الاتفاق بين فرنسا والجزائر، وجلاء الجيش الفرنسي. ولكن الاحتلال طرد أعضاء الحزب إلى خارج الجزائر عام (١٨٣٣م)، متهماً إياهم بالتآمر ضده ومحاولة استرجاع الحكم الإسلامي، إلا أن أعضاء الحزب واصلوا مقاومتهم السياسية من المنفى وخاصة في باريس؛ لكنهم في النهاية أصيبوا بخيبة الأمل، وحوكم زعيمهم، ونفي إلى اسطنبول «محطم القلب، كبير السن، خائب الأمل»[١].

وبعد طرد الحزب استمر الاحتلال في حملته لتصفية العناصر التي قد يكون لها أثر في تنظيم معارضة ضده.

ومع عدم وجود عمل سياسي منظم إلا أن هناك بعض الممارسات السياسية التي قام بها الجزائريون، فقد قدموا عدداً من الوفود والعرائض الجماعية إلى السلطات الفرنسية في الجزائر وفرنسا، تتضمن مطالب واعتراضات على بعض القوانين الفرنسية[٢]. كما أنشئت بعض الصحف التي كان لها إسهام في مهاجمة الاحتلال الفرنسي، وتوعية المواطنين[٣].

وفي أواخر القرن التاسع عشر الميلادي أنشأ من يوصفون بجماعة (النخبة) حركة سياسية وطنية، تسمى: (الشبان الجزائريين)، وأنشؤوا جريدة (المشعل)، وكانت لهم تحركات سياسية منطلقة من تأييدهم للتجنيس والاندماج مع فرنسا، فطالبوا بالمساواة في الحقوق السياسية والتعليمية وفرص العمل بين الجزائريين والفرنسيين، حتى يتحقق التوحد التام للجزائر مع فرنسا.

---

(١) ينظر: الحركة الوطنية الجزائرية: ٢/ ٣٤.

(٢) ينظر: المرجع السابق: ٢/ ١٧٣-١٨٦، وأبحاث وآراء في تاريخ الجزائر: ٤/ ١٤٢.

(٣) ينظر: الحركة الوطنية الجزائرية: ٢/ ١٣٤-١٢٦.

وجماعة (النخبة/ الشبان الجزائريين) تضم طائفة من المثقفين ثقافة فرنسية علمانية، درسوا في الجامعات والمعاهد الفرنسية، وتكلموا بالفرنسية، وتزوج جملة منهم من الفرنسيات، ودعوا إلى ذلك، وألحقوا أولادهم بالمدارس الفرنسية، وطالبوا بنشر التعليم الفرنسي والثقافة الأوربية لتطوير المجتمع، وشجعوا على الهجرة إلى فرنسا، والحياة على الطريقة الفرنسية[1].

وحينما قرر الاحتلال فرض التجنيد الإجباري على الجزائريين عام (١٩٠٨م) كان هناك تحركات من قبل الجزائريين لمعارضة القرار، وعلى رأسهم أهل العلم والدين. وأما جماعة (النخبة) فإنهم قبلوا التجنيد، على أن تتحقق المساواة بين الجزائريين والفرنسين في الحقوق السياسية[2].

وبعد الحرب العالمية الأولى ظهرت حركة سياسية وطنية يتزعمها الأمير خالد، حفيد الأمير عبد القادر، بعد أن انفصل عن جماعة (النخبة/ الشبان الجزائريين)، لمعارضته قانون التجنيس المشروط بالتخلي عن الهوية الإسلامية، وقد كان مثلهم في الثقافة الفرنسية، والكتابة والتحدث بالفرنسية، وقد خدم في الجيش الفرنسي في أثناء الحرب العالمية برتبة قبطان.

وطالب الأمير خالد ورفاقه بالحقوق السياسية للجزائريين، والمساوة بينهم وبين الفرنسيين، وأن يكون لهم تمثيل في البرلمان الفرنسي ومجلس الشيوخ وأن يكون لهم حق تقرير المصير.

---

(١) ينظر: المرجع السابق: ٢/ ١٥٩-١٧٢، والتاريخ السياسي للجزائر: ٢٠١-٢٠٧.

(٢) ينظر: الحركة الوطنية الجزائرية: ٢/ ١٤٩-١٥٠.

وأسس جماعة باسم (المؤاخاة الإسلامية)، وأنشأ جريدة باسم (إقدام شمال أفريقيا)، وخاض معارك انتخابية بلدية كانت قائمته تفوز فيها، إلا أن السلطات الفرنسية ضايقته واتهمته بالقيام بنشاطات معادية لفرنسا فجعلته يخرج عن الجزائر عام (١٩٢٣م)، ومنعته من العودة إليه واختار سورية منفى له، وواصل فيها نشاطه السياسي من خلال رسائل إلى السلطات الفرنسية في فرنسا تتضمن مطالبه، كما ذهب إلى فرنسا وعقد لقاءات وشارك في مؤتمرات، وانضم إلى الاتحاد العالمي، وهو منظمة يسارية تؤيد القضية الجزائرية ثم بقي في منفاه بسورية إلى أن توفي عام (١٩٣٦م)[(١)].

وقد عين الأمير خالد رئيساً شرفياً لحزب (نجم شمال أفريقيا) الذي أنشأه في فرنسا عام (١٩٢٦م) مهاجرون جزائريون وتونسيون ومغاربة، وكان الأمين العام له مصالي الحاج. ويهدف الحزب إلى الدفاع عن مصالح أهل أفريقيا الشمالية وتثقيف أعضائه، ثم أصبح الحزب بعد خروج بعض قياداته من غير الجزائريين خالصاً للجزائريين، مع أنه لم يتخل في شعاراته ونداءاته عن هدفه الشمال أفريقي، وكان اتصاله بالجزائريين في الداخل من خلال صحافته ومنشوراته.

ويذكر أن قيادات الحزب أعضاء في الحزب الشيوعي الفرنسي، ثم انفصلوا بدعم من الحزب الشيوعي لتأسيس حزب النجم، وصار بينهم وبين الشيوعيين تعاون، لكن يقال: إنه تعاون قائم على التكتيك لا على المذهبية ويعزز هذا برود التعاون وانفصال العلاقة لاحقاً، وصار الشيوعيون يعادون النجم، والنجم يهاجم الوصاية الشيوعية التي لا تريد أن يكون النجم حزباً وطنياً.

---

(١) ينظر: المرجع السابق: ٢/ ٣٦٠-٣٧١، والتاريخ السياسي للجزائر: ٢١٩-٢٢٨.

وقد أعاد الحزب إصدار جريدة الأمير خالد باسم (الإقدام الباريسي)، إلا أن السلطات الفرنسية منعت توزيعها في الجزائر عام (١٩٢٧م)، فأعاد النجم إصدارها باسم (الإقدام الشمال أفريقي).

ومما كان حزب النجم يطالب به: استقلال الجزائر، وجلاء الجيش الفرنسي، وإنشاء جيش وطني، وانتخاب برلمان جزائري عن طريق الاقتراع العام، وإلغاء القوانين الاستثنائية، ومنح الحقوق السياسية والتعليمية للجزائرين، وإنشاء المدارس باللغة العربية، وتطبيق جميع القوانين الاجتماعية الفرنسية على الجزائر، وإرجاع الأراضي والغابات التي أخذتها الدولة الفرنسية إلى الجزائريين، وتأميم الشركات الإقطاعية والأراضي الزراعية الكبيرة التي تملكها المستوطنون الأوروبيون، وغيرها من المطالب.

ثم في عام (١٩٢٩م) حلت السلطات الفرنسية الحزب، لكن زعماءه واصلوا نشاطهم، فأصدروا جريدة (الأمة) رافعة شعار الدفاع عن حقوق مسلمي أفريقيا الشمالية، وكان مديرها السياسي مصالي الحاج.

ثم أعادوا تكوين الحزب عام (١٩٣٣م) باسم (نجم أفريقيا الشمالية المجيد)، ولكن الحزب حل عام (١٩٣٤) بحجة إعادة إنشاء حزب صدر القانون بحله. وفي عام (١٩٣٥م) صدر حكم يقضي بعدم شرعية القرار الخاص بحل (نجم شمال إفريقيا) فاستؤنف العمل بالحزب من جديد. لكن صدر في عام (١٩٣٧م) قرار بحله، فأعاد مصالي الحاج وأصحابه في العام نفسه (١٩٣٧م) تكوين الحزب باسم (حزب الشعب الجزائري) الذي جعل شعاره (لا للاندماج، لا للانفصال؛ لكن نعم للتحرر)، لكن

السلطات الفرنسية اعتقلت زعيمه وآخرين معه، ثم أصدرت قراراً بحل الحزب عام (١٩٣٩م)[1].

وفي عام (١٩٢٧م) أسست حركة سياسية ليبرالية باسم (فدرالية المسلمين الجزائريين المنتخبين) في العاصمة، وتضم النواب الجزائريين في المجالس والبلديات المحلية، وكانوا من النخبة المثقفين ثقافة فرنسية، وتدعم الفدرالية الاندماج، وتدعو إلى المساواة بين الجزائريين والفرنسيين.

وكان من بين قيادات الحركة الدكتور ابن جلول ابن خال الشيخ ابن باديس، وكان يتزعم (فيدرالية المنتخبين القسنطينيين). وقد انسحب من الفدرالية عام (١٩٣٨م)، وكون حركة سياسية باسم (التجمع الفرنسي الإسلامي الجزائري)، تهدف إلى ما تهدف إليه الفيدرالية، وتكاد تنحصر في قسنطينة، ولم يكن لابن جلول تلك المصداقية؛ لكونه يتعامل مع الفرنسيين أكثر من تعامله مع أبناء وطنه[2].

وفي عام (١٩٣٥م) أنشأ الحزب الشيوعي الفرنسي حزباً في الجزائر باسم (الحزب الشيوعي الجزائري)، وتولى أمانته العامة قدور بلقاسم، وهو يدعو إلى الاندماج مع فرنسا، ويحارب الاستقلال والمطالبة به، ولم يكن ذا قوة معتبرة لدى الشعب الجزائري[3].

ومع هذه المنظمات السياسية التي اتخذت توجهات وطنية أو ليبرالية أو شيوعية، ويرفض بعضها أن يكون الدين والتعليم الإسلامي منطلقاً للإصلاح،

---

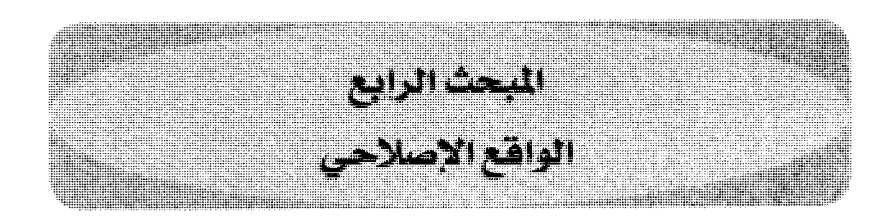
(١) ينظر: الحركة الوطنية الجزائرية: ٢/ ٣٧٢-٣٨٤، والتاريخ السياسي للجزائر: ٢٨٨-٣٠٥.
(٢) ينظر: الحركة الوطنية الجزائرية: ٢/ ٣٥١-٣٦٠، والتاريخ السياسي للجزائر: ٢٣٠-٢٣١.
(٣) ينظر: الحركة الوطنية الجزائرية: ٢/ ٣٢٨، والتاريخ السياسي للجزائر: ٢٨٠٢٨٧.

كان هناك تحركات ذات توجه إسلامي، يقوم بها أهل العلم، ثم حمل هذا التوجه (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) التي تأسست عام (١٩٣١م)، وترأسها الشيخ عبد الحميد ابن باديس، واتخذت توجهاً إسلامياً سلفياً، وهي وإن كانت قد نصت في ميثاق تأسيسها على أن تتجنب العمل السياسي، إلا أنها في الحقيقة تزاوله، ولها مواقف سياسية بارزة والساحة السياسية لا يمكن أن تتجاوزها، ولم تسلم الجمعية من كيد بعض التوجهات الأخرى وبعض منتسبيها الذين يعملون لحساب الاستعمار[١].

ولا يعني كون الجمعية اتخذت توجهاً إسلامياً أن تلك التوجهات السياسية غير الشيوعية لا ترفع شعار الإسلامية؛ بل إن بعضها وخاصة الوطنية تتكئ على الدين في مطالبها وخطاباتها. ولا يمكن أن ينجح حزب يعيش في مجتمع إسلامي يصارع من أجل الإسلام مالم يكن برنامجه إسلامياً أو يتظاهر به، وإلا فإن تأثيره سيكون محدوداً، كما نجد ذلك لدى النخبة الليبرالية والشيوعية.

---

(١) ينظر: هذه هي الجزائر: ١٦٧، والجزائر منطلقات وآفاق: ٩٦، والتاريخ السياسي للجزائر: ٢٤٤.



## المبحث الرابع
## الواقع الإصلاحي

الواقع الجزائري بالصورة التي ذكرت من قبل وبعد أن حطمه الاحتلال الفرنسي يحتاج إلى إصلاح في كل جوانبه بلا استثناء.

وحينما خطط الشيخ ابن باديس وبدأ دعوته الإصلاحية عام (١٩١٤م) لم تكن الساحة الجزائرية خالية من مطالب ودعوات إصلاحية.

والتيارات والتحركات الفردية والجماعية التي سبق الحديث عنها في الواقع السياسي وخاصة التي سبقت دعوة الشيخ أو تزامنت مع قيامها تتحدث عن إصلاح الواقع، وتدعو إليه، وتدعيه في بياناتها ومطالبها، إلا أنه ليس كل دعوى إصلاح تكون كذلك، والله سبحانه وتعالى قد قال عن المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١، ١٢].

والفرنسيون الذي احتلوا الأرض وسفكوا الدماء وحطموا المجتمع يدعون أنهم مصلحون، والجزائريون المتفرنسون الذين كوّنوا لهم تياراً ليبرالياً يدعون الإصلاح، وهم قد ارتموا في أحضان الفرنسيين، وينشدون فرنسة المجتمع لغة وثقافة وتعليماً وسياسة وحياة ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

وبعض المطالب التي نادت بها لاحقاً بعض التيارات السياسية غير جمعية العلماء المسلمين هي مطالب إصلاحية؛ لكنها جزئية، ونابعة من منطلقات وطنية، ويغلب عليها الجانب السياسي.

إن الإصلاح المطلوب في مثل هذا الواقع هو الذي ينهض بالمجتمع كله، شاملاً مناحي الحياة، عقيدة وسلوكاً وعلماً وعملاً، منطلقاً من الشرع القويم، برؤية إسلامية خالصة، نابعة من القرآن والسنة ومنهج السلف الصالح.

وقد سبقت دعوة ابن باديس جهود إصلاحية لبعض أهل العلم، تتناول جوانب من الدين، وبعض مجالات الحياة.

ومن هؤلاء الشيخ صالح بن مهنا (ت ١٣٢٥هـ)في قسنطينة، الذي عرف بمحاربة الخرافات البدعية، وأبعدته السلطات الفرنسية عن قسنطينة وصادرت مكتبته.

ومنهم الشيخ عبد القادر المجاوي (ت ١٣٢٥هـ) في قسنطينة، الذي له اهتمام بالإصلاح التربوي والتعليمي وله صوت في نقد البدع، والتحذير من اليهودية الصهيونية، وقد نقلته السلطات إلى الجزائر ثم عاد بعد ذلك إلى قسنطينة وتوفي فيها[١].

(١) ينظر: آثار ابن باديس: ١/ ١٨-٢٥.

ومنهم الشيخ عبد الحليم بن سماية (ت ١٣٥١هـ)، الذي كان له أثر في معارضة قرار التجنيد الإجباري المفروض على الشباب الجزائريين. والشيخ محمد بن مصطفى ابن الخوجة، وكانا متأثرين بالشيخ محمد عبده، وبينهما وبينه مراسلات، ولما زار محمد عبده الجزائر في عام (١٩٠٣م) كان ابن سماية هو مضيفه. ويذكر أن ابن الخوجة هو الذي أدخل مذهب محمد عبده إلى الجزائر، وعرف به وبجمال الدين الأفغاني وأصحابهما[١].

وقد كان لمحمد عبده صوت مسموع في الجزائر، يأتي من خلال جريدتي (العروة الوثقى) و (المنار)، اللتين كان لهما وجود في الجزائر، وقد طلب بعض أهل العلم من محمد عبده أن يوصي رشيد رضا ألَّا يذكر في (المنار) فرنسا بما يسوؤها؛ لئلا تمنع (المنار) من دخول الجزائر. كما زار عبده الجزائر، واحتفى به علماؤها، وزار قسنطينة وكان ابن باديس في الثالثة عشر من عمره. وعنيت بعض المجلات الجزائرية بنشر آراء محمد عبده كمجلات (المغرب) و (الإحياء) و (ذو الفقار)، ومؤسس الأخيرة عمر راسم جعل محمد عبده هو (المدير الديني للجريدة)، ودرَّس بعضهم كتابه (التوحيد). ولما مات رثاه بعض أهل العلم في الجزائر وبالغوا فيه[٢].

ومن أهل العلم مَنْ استكان وقعد عن الدعوة والإصلاح، ويلحظ ذلك في نداءات ابن باديس لهم، كما سيأتي بإذن الله.

ويذكر عن بعض الفقهاء الذين عرفوا بمعارضة الصوفية أنهم أصبحوا طرقيين مثلهم[٣]. وللصحافة دور في الإصلاح، وكان من أوائل الصحف (الجزائر) لعمر

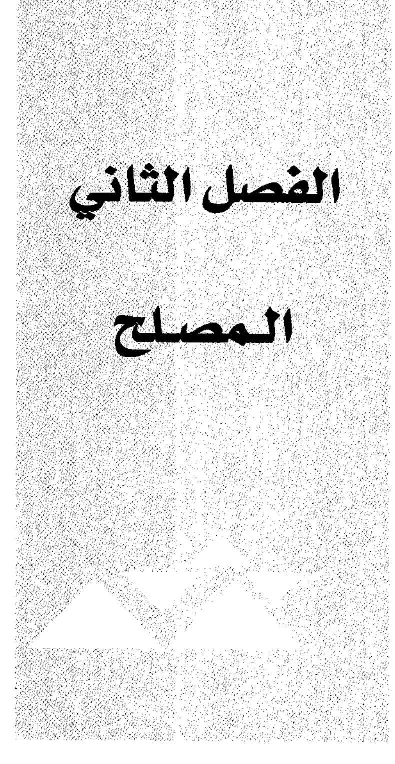
(١) ينظر: آثار ابن باديس: ١/ ٢٨-٣٩، والحركة الوطنية الجزائرية: ٢/ ١٤٩.
(٢) ينظر: آثار ابن باديس: ١/ ٢٩، ٣٤، ٤٢، والحركة الوطنية الجزائرية: ٢/ ١١٥.
(٣) ينظر: آثار ابن باديس: ١/ ١٨.

راسم سنة (١٩٠٨م)، وأنشأ بعد ذلك سنة (١٩١٣م) جريدة (ذو الفقار) المشار إليها آنفاً، وكانت تعيد نشر بعض مافي مجلة (المنار) وتنقل عنها. وأنشأ غيرها من الصحف[١]. على أن ابن باديس يرى أن أول دعوة للإصلاح الإسلامي في الشمال الأفريقي أعلنت على لسان الصحافة هي دعوته في جريدة (المنتقد) التي صدرت عام (١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م)[٢].

ويلحظ أن المحاولات الإصلاحية التي سبقت دعوة ابن باديس كلها محاولات فردية، وجزئية، وغير شاملة للوطن كله[٣].

(١) ينظر: المرجع السابق: ١/ ٥٥-٥٩.
(٢) ينظر: المرجع السابق: ٣/ ١٢٦.
(٣) ينظر: المرجع السابق: ١/ ٧١.





# الفصل الثاني

# المصلح

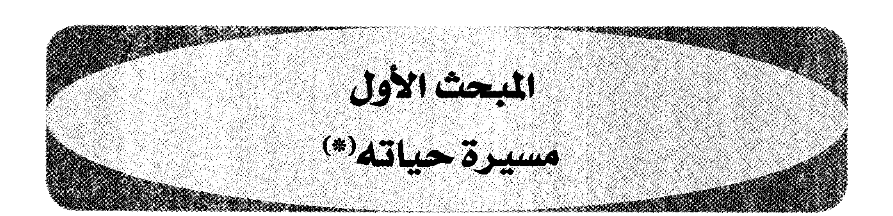
وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مسيرة حياته.

المبحث الثاني: جوانب متميزة في شخصيته.

المبحث الثالث: المؤثرات في شخصيته.





# المبحث الأول
# مسيرة حياته(*)

بعد ستين سنة من بدء الاحتلال الفرنسي للجزائر وفي ظل هذا الاحتلال ولد لمحمد مصطفى بن المكي ولده الأكبر (عبد الحميد)، في (١٣٠٧هـ/ ١٨٨٩م) في مدينة قسنطينة شرقي الجزائر(١).

وهو ينحدر من أسرة (ابن باديس) الصنهاجية البربرية، وهي أسرة كريمة عريقة، معروفة بالجاه والغنى، ومشهورة منذ القدم بالعلم والأدب والسؤدد، ومن رجالاتها

(*) من المراجع في ترجمة ابن باديس ومسيرة حياته: آثاره التي جمعها الدكتور عمار الطالبي، ومقدمة الطالبي للآثار: ١/ ٧٢/ -٩٥، والأعلام، للزركلي: ٣/ ٢٨٩. وعبد الحميد ابن باديس: العالم الرباني والزعيم السياسي، لمازن مطبقاني، وموقع (الإمام عبد الحميد ابن باديس) على الشبكة العالمية.

(١) تاريخ الولادة المذكور يثبته الدكتور عمار الطالبي في مقدمة كتابه (آثار ابن باديس)، ويخطئ ما ذكره الزركلي في (الإعلام) وتبعه عليه كحالة في (معجم المؤلفين) من أن ابن باديس ولد عام (١٣٠٥هـ/ ١٨٨٧م)، ويحدد مازن مطبقاني تاريخ الولادة ب (١١/ ٤/ ١٣٠٧هـ = ديسمبر ١٨٨٩م). ولم يذكر الطالبي ومطبقاني ما استندا عليه وإلا فإن ما أثبته د.عمار الطالبي يؤكده ما قاله الشيخ البشير الإبراهيمي رفيق ابن باديس، من أن ابن باديس يكبره بعام وبضعة أشهر، والإبراهيمي ولد كما يقول عن نفسه في (١٤شوال١٣٠٦هـ = يونيو١٨٨٩م)، وينظر: آثار الإمام البشير الإبراهيمي: ٥/ ٢٧٢، ٢٧٨.

المشهورين الذين كان الشيخ عبدالحميد يفتخر بهم كثيراً: المعز ابن باديس، الذي حكم المغرب للفاطميين بين عامي (٤٠٦- ٤٥٤هـ)، ثم أبطل حكم الفاطميين، وأعلن مذهب السنة للدولة، وخطب للخليفة العباسي، وهو ابن الأمير (باديس بن منصور) والي أفريقيا والمغرب الأوسط بين عامي (٣٧٣ -٣٨٦هـ)، سليل الأمير (بلكين بن زيري بن مناد) المكنى بأبي الفتوح، الذي تولى الإمارة بين عامي (٣٦١-٣٧٣هـ) إبان حكم الفاطميين.

وقد كان لهذه الأسرة مقام محترم لدى سكان قسنطينة، والاحتلال الفرنسي؛ فكان جده الشيخ (المكي) قاضياً في قسنطينة، وعضواً في المجلس العام، وفي اللجنة البلدية، ودعي إلى الاستشارة في الجزائر وباريس، وتقلد وساماً من (نابليون الثالث). وأما أبوه (مصطفى) فكان نائباً سامياً في عدة دوائر انتخابية ومالية على مستوى البلدية والولاية والوطن، وقلدته فرنسا ميدالية عالية المستوى. لكنه كان من ذوي الفضل والخلق الحميد والحرص على مصالح الناس. وكان من حفظة القرآن الكريم. وقد عني بتعليم ابنه وتهذيبه عناية فائقة، حتى كان الشيخ في آخر حياته يعترف لوالده بفضله عليه.

وتنتمي أسرة الشيخ إلى الطريقة القادرية الصوفية.

نشأ ابن باديس بقسنطينة، والتحق فيها بالمسيد (الكُتَّاب) لحفظ القران الكريم عام (١٣١١هـ/ ١٨٩٤م) وفي عام (١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م) حين بلغ الثالثة عشر من عمره أتم حفظ القرآن على يد محمد المداسي، الذي أعجب بابن باديس فقدمه ليصلي بالناس التراويح ثلاث سنوات متتابعات في الجامع الكبير بقسنطينة.

وفي هذا العام ألحقه أبوه بالشيخ حمدان الونيسي، وكان منتمياً إلى الطريقة التيجانية، فتعلم على يديه مبادئ العلوم الشرعية والعربية، بجامع محمد النجار في قسنطينة.

وفي عام (١٩٠٤م) دخل بيت الزوجية، ولم تستمر زوجته معه طيلة حياته حيث طلقها، ولم يتزوج بعدها، وولد له منها ابن أسماه (عبده إسماعيل)، الذي ظل يدرس عند أبيه حتى حفظ القرآن.

وفي عام (١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م) انتقل شيخه (حمدان الونيسي) إلى المدينة النبوية، تخلصاً من الحياة المريرة تحت وطأة الاحتلال الفرنسي الطاغي، وأراد ابن باديس أن يصحبه أو يلحق به إلا أن أباه لم يوافقه على ذلك، ووجهه إلى طلب العلم في تونس.

وفي هذا العام سافر إلى تونس لمتابعة تعليمه العالي في جامع الزيتونة حتى نال شهادة (التطويع) وهي (العالمية العالية) سنة (١٣٣٠هـ/ ١٩١٢م). وتلقى العلوم الإسلامية في الجامع على جماعة من أكابر علمائه، أمثال العلامة محمد النخلي القيرواني، والعلامة محمد الطاهر بن عاشور، والشيخ محمد الخضر الحسين، والمؤرخ البشير صفر، وبقي بعد تخرجه سنة يُدرّس في جامع الزيتونة كما هي عادة الجامع مع الخرجين.

وفي سنة (١٣٣١هـ/ ١٩١٣م) عاد إلى قسنطينة، فاستقبله أبوه مغتبطاً به في محطة القطار كما يستقبل العلماء والأعيان.

وفي السنة التي عاد فيها من تونس شرع في الجامع الكبير بقسنطينة يقدم دروساً للطلبة في كتاب (الشفا) للقاضي عياض، ودروساً في الوعظ والإرشاد للعامة، بعد أن أخذ أبوه من والي الولاية إذناً شفهياً له بالتدريس.

لكن الشيخ (ابن الموهوب) المفتي وإمام الجامع وخطيبه اعتبر ذلك تدخلاً فيما هو من اختصاصه، فسعى في منعه من التدريس، بحجة أنه لم يحصل على إذن؛ ولكنه لم يستسلم وكلف طلابه أن يحضروا الشموع ليدرسوا تحت ضوئها. وأمام هذا العناد أمر المفتي أحد أتباعه بمنعه فجاء وأطبق الكتاب، وأطفأ الشموع. وكادت تقع فتنة بينه وبين الطلاب، لكن ابن باديس هدأ طلابه، وصرفهم، وتوقف الدرس. وتأثر ابن باديس تأثراً كبيراً من هذه المعاملة السيئة، وأضمر في نفسه هجر البلاد.

ولما أقبل الحج في هذه السنة (١٣٣١هـ/ ١٩١٣م) سافر إلى مكة لأداء مناسك الحج، ثم زار المدينة، وفيها لقي شيخه (الونيسي)، وتعرف على بعض أهل العلم من أصحاب شيخه، وأخذ عنهم، كالشيخ حسين أحمد الفيض أبادي الهندي، والشيخ الوزير التونسي، وألقى بحضورهم درساً في الحرم النبوي، فأعجبوا به إعجاباً شديداً.

رغب ابن باديس في البقاء بالمدينة النبوية بجوار شيخه (الونيسي) ورَغّبه شيخه في ذلك إلا أن الشيخ حسين الهندي لم يوافقه، بل نصحه بالعودة إلى وطنه والقيام بواجب الإصلاح وخدمة الدين والعربية قدر الإمكان، فاقتنع بذلك كما قال ابن باديس: «فحقق الله رأي الشيخ الثاني، فرجعنا إلى الوطن بقصد خدمته، فنحن لا نهاجر، نحن حراس الإسلام والعربية والقومية بجميع مدعماتها في هذا الوطن»[1].

ولما رأى شيخه (الونيسي) عزمه على العودة إلى موطنه حذره من أن يقبل الوظيفة الحكومية؛ كيلا تكون قيداً له، يحد من نشاطه، وأخذ عليه عهداً بهذا، وألّا يتخذ علمه سلماً للأغراض المادية والأطماع الدنيوية، فعاهد شيخه على ذلك.

---

(١) مجلة الشهاب: ع٨، م١٣، أكتوبر ١٩٣٧م.

وفي المدينة النبوية تعرف ابن باديس على رفيق دربه الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، وبحثا خلال ثلاثة أشهر حال بلدهما، ووضعا خطة للدعوة والإصلاح، قال الإبراهيمي: «كنا نؤدي فريضة العشاء الأخيرة كل ليلة في المسجد النبوي، ونخرج إلى منزلي فنستمر مع الشيخ ابن باديس منفردين إلى آخر الليل حين يفتح المسجد، فندخل مع أول داخل لصلاة الصبح... وأُشهد الله أن تلك الليالي من سنة ١٩١٣ ميلادية هي التي وضعت فيها الأسس الأولية لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي لم تبرز للوجود إلا في سنة ١٩٣١م»[١].

ثم عاد ابن باديس إلى الجزائر سنة (١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م) بعد أن زار في طريق عودته عدة بلدان مثل: دمشق ولبنان ومصر، واتصل بعلمائها، واطلع على أحوالها، وممن اتصل به الشيخ محمد بخيت المطيعي مفتي الديار المصرية وزميل الشيخ محمد عبده.

ولما وصل إلى قسنطينة استأنف فيها مباشرة نشاطه التعليمي والتربوي، بعد أن استصدر له أبوه رخصة رسمية من والي ولاية قسنطينة تسمح له بأن يدرس بالمجان في (الجامع الأخضر) أحد المساجد الثلاثة الجامعة في المدينة التي تشرف عليها الحكومة.

وبدأ في هذا الجامع بتفسير القران الكريم عام (١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م)، وكان يحضر له كل ليلة نحو الألفين من سكان قسنطينة ونواحيها.

وفي العام الذي يليه بدأ بشرح موطأ مالك.

وفي رمضان من عام (١٣٣٧هـ/ ١٩١٩م) توفي ابنه الوحيد (إسماعيل) برصاصة بندقية صيد، حيث شاهد أحد الحراس في مزرعة جده يعلق بندقيته على شجرة، فأخذ يلهو بها، فخرجت رصاصة واستقرت في صدره.

---

(١) آثار الإمام البشير الإبراهيمي: ٥/ ٢٧٨.

وبينما كان ابن باديس يلقي درسه في الجامع أسر له أحد أصدقائه بالخبر، فأكمل الدرس حتى نهايته، ثم انفرد في زاوية خاصة يذرف الدمع. وتكرر المشهد نفسه عندما توفي شقيقه سليم.

وفي هذا العام (١٣٣٧هـ/ ١٩١٩م) شارك في تأسيس صحيفة (النجاح) وتحريرها؛ على أنها إصلاحية ثم تركها لما رأى أنها لا تحقق ما يصبو إليه، وكان يكتب مقالاته باسم (القسنطيني) أو (العبسي) أو (الصنهاجي).

وفي عام (١٩٢٠م) عاد البشير الإبراهيمي إلى الجزائر بعد رحلته إلى الحجاز، ثم إلى دمشق، واستقر في مدينته (سطيف). وكان يقوم بمهامه الإصلاحية بحسب ما خطط لها هو وابن باديس في المدينة النبوية، وكانا يلتقيان كل أسبوعين، وقال الإبراهيمي عن المدة ما بين (١٩٢٠-١٩٣١م): «كنا نتلاقى في كل أسبوعين أو كل شهر على الأكثر، يزورني في بلدي (سطيف)، أو أزوره في قسنطينة، فنزن أعمالنا بالقسط، ونزن آثارها في الشعب بالعدل»[1].

وفي عام (١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م) تدارس مع البشير الإبراهيمي في سطيف فكرة تأسيس جمعية باسم (الإخاء العلمي) تجمع شمل أهل العلم، وتوجه جهودهم، لكن هذا المشروع لم يتيسر قيامه؛ لعدم توفر الظروف المناسبة.

وفي العام (١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م) أصدر صحيفة أسبوعية باسم (المنتقد) وكان شعارها (الحق فوق كل أحد، والوطن قبل كل شيء). لكن السلطات الفرنسية أوقفتها بعد (١٨) عدداً لصراحتها وحدة نقدها.

---

(١) آثار الإمام البشير الإبراهيمي: ٥/ ٢٨٠.

وفي عام (١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م) أصدر صحيفة (الشهاب). وكان لها شعاران: أحدهما إصلاحي تربوي، يتضمن مقولة الإمام مالك - رحمه الله -: (لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها). والثاني سياسي عملي: (الحق والعدل والمؤاخاة في إعطاء جميع الحقوق للذين قاموا بجميع الواجبات). وقد كانت تصدر أسبوعياً، ثم تحولت عام (١٣٤٧هـ/ ١٩٢٩م) إلى مجلة شهرية، لضعف الموارد المالية.

وفي عام (١٣٤٥هـ/ ١٩٢٦م) أسس مدرسة للتعليم الابتدائي، أطلق عليها اسم (المكتب العربي) بمسجد سيدي بومعزة، وأسند إدارتها إلى الشيخ مبارك الميلي أحد طلابه الأوائل بعد تخرجه من جامع الزيتونة. ثم انتقلت المدرسة بعد اشتداد الإقبال عليها إلى مبنى الجمعية الخيرية الإسلامية لاتساعها. وفي هذا العام (١٣٤٥هـ/ ١٩٢٦م) تعرض الشيخ إلى محاولة اغتيال من أتباع الطريقة العليوية؛ بسبب الحملات المتوالية والقوية على الخرافات والبدع والطرقيين في صحيفة (الشهاب) وغيرها وكان أشدها على الطريقة العليوية وشيخها ابن عليوة المتهم بالحلول ووحدة الوجود، فاغتاظ أتباعه، وقرروا في اجتماع لهم في مستغانم اغتياله، وأرسلوا من ينفذ هذه الخطة، وعندما كان الشيخ عائداً من دروسه إلى بيته في منتصف الليل هوى الجاني عليه بهراوة، وأصابه بضربتين على رأسه وصدغه، فشج رأسه وأدماه، لكن الشيخ أمسك به ونادى النجدة، وحاول المجرم أن يسل خنجراً ليجهز عليه، لكن الله نجاه بفضل جماعة النجدة التي قبضت عليه وأرادت الفتك به، لكن الشيخ منعهم، فساقوه إلى الشرطة، وقدم للمحاكمة، فعفا عنه الشيخ وأمر بإطلاق سراحه قائلاً: إن الرجل غرر به، لا يعرفني ولا أعرفه، فلا عداوة بيني وبينه. ولكن أخاه المحامي (الزبير) طالب بالحكم قائلاً: إن أخي بفعل الصدمة لم يعد يعي ما يقول. فحكم عليه بالسجن خمس سنوات.

وفي عام (١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م) دعا الشيخ طلاب العلم العائدين من جامع الزيتونة والمشرق العربي إلى ندوة لمناقشة أوضاع الجزائر، وأساليب الإصلاح. وحضر الندوة جمع منهم، واتفقوا على خطة عمل تقضي بإنشاء المدارس الحرة للتعليم العربي والتربية الإسلامية، والإفادة من المساجد الحرة والصحافة والنوادي في نشر الدعوة، وإنشاء فرق الكشافة.

وفي عام (١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م) أراد أن يطور مدرسة (المكتب العربي) من كونها (مكتب جماعة) إلى (مدرسة جمعية) فأسس (جمعية التربية والتعليم) في قسنطينة، وتكون مجلسها التأسيسي من عشرة أعضاء برئاسته، وحرر القانون الأساسي للجمعية، وقدمه باسم الجماعة المؤسسة إلى الحكومة فوقع التصديق عليه. ودعا الشيخ إلى تأسيس مثل هذه الجمعية، أو تأسيس فروع لها في أنحاء الجزائر.

وفي عام (١٩٣٠م) احتفلت فرنسا بمرور مئة عام على احتلال الجزائر، فطلب الشيخ من أهل قسنطينة عدم المشاركة في الاحتفال الذي دعت إليه السلطات الفرنسية، فاستجابوا له جميعاً.

وفي عام (١٣٤٩هـ/ ١٩٣١م) أسست (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) بعد أربعة أيام من المشاورات بين عدد كبير من علماء الجزائر المدعوين لاجتماع عام في نادي الترقي بالعاصمة، وانتخب الشيخ رئيساً لها في غيابه، وكان جل شيوخ الجمعية ومؤسسيها من تلاميذه بالجامع الأخضر، وإخوانه القادمين من الزيتونة والحجاز والأزهر.

وفي عام (١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م) شارك ابن باديس في محاولة إصلاح التعليم في (جامع الزيتونة) بتونس، وبعث بمقترحاته إلى لجنة وضع مناهج الإصلاح التي كونها حاكم تونس.

وفي عام (١٣٥٦هـ/ ١٩٣٦م) تأسس (المؤتمر الإسلامي الجزائري) بدعوة من الشيخ، وبمشاركة من السياسيين والعلماء للمطالبة بحقوق الجزائريين، ورشح الشيخ لرئاسة المؤتمر، إلا أنه لم يقبل؛ لكنه سافر إلى باريس مع وفد منه، ومعه البشير الإبراهيمي والطيب العقبي ونخبة من السياسيين الجزائريين؛ للمفاوضة باسم الشعب الجزائري مع الحكومة الفرنسية؛ لكن الوفد رجع خائباً. وقد هددهم وزير الدفاع الفرنسي قائلاً: إن لدى فرنسا مدافع طويلة. فرد عليه الشيخ: إن لدينا مدافع أطول. فتساءل الوزير عن هذه المدافع، فأجاب الشيخ: إنها مدافع الله.

وبعد عودته من فرنسا غير شعار مجلة (الشهاب) ليصبح (فلنعتمد على أنفسنا ونتكل على الله).

وفي العام (١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م) شارك الشيخ في الحفل الذي أقيم في تونس احتفاء بذكرى شيخه المؤرخ الإصلاحي التونسي البشير صفر، وخطب في الحفل.

وفي هذا العام أرسل برقية احتجاج ضد تقسيم فلسطين، وجهها إلى وزير الخارجية الفرنسية باسم الأمة الجزائرية.

وفي عام (١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م) أقيم احتفال كبير بمناسبة ختم الشيخ لدروس التفسير بالجامع الأخضر بعد ربع قرن من بدئه.

وفي العام الذي يليه (١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م) ختم الشيخ دروسه في شرح موطأ مالك بعد حوالي ربع قرن من بدئه.

وفي هذا العام (١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م) أوقف ابن باديس مجلة (الشهاب) لما أعلنت الحرب العالمية الثانية؛ حتى لا تكون أداة بيد السلطات الفرنسية، التي وضعت الصحف تحت إشرافها المباشر بموجب قوانين الحرب.

وفي هذا العام الذي بدأت فيه الحرب العالمية طلبت السلطات الفرنسية من الشيخ أن يبعث رسالة تأييد لفرنسا في دخولها الحرب، فأبى وقال قولته الشهيرة: «لو قالت لي فرنسا: قل لا إله إلا الله، ما قلتها»[1]، ففرضت الإقامة الجبرية عليه. وقد حصل للبشير الإبراهيمي نحو ذلك، حيث قدمت له فرنسا من متاع الدنيا وهداياها ما تريد به أن يقف معها في الحرب، فرفض. ولما بلغ الشيخ رفضه أرسل إليه رسالته الأخيرة في (١٣/ ٤/ ١٩٤٠) قائلاً: «أخي الكريم الأستاذ البشير الإبراهيمي، السلام عليكم. لقد بلغني موقفكم المشرف العادل. لقد صنت الدين والعلم فصانك الله وحفظك. عظم الله قدرك في الدنيا والآخرة»[2].

وفي العام التالي (١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م) أصاب الشيخ مرض عانى منه معاناة شديدة، جعله لا يقوى على المشي إلا مسافة قصيرة لا تزيد على مئتي متر.

ويذكر البشير الإبراهيمي أن الشيخ مصاب بسرطان في الأمعاء، كان يحس به من سنوات، ويمنعه انهماكه في التعليم وخدمة الشعب من التفكير فيه وفي علاجه[3].

وفي الساعة الثانية والنصف بعد الزوال من يوم الثلاثاء الثامن من ربيع الأول (١٣٥٩هـ) الموافق (١٦/ ٤/ ١٩٤٠م) توفي الشيخ متأثراً بمرضه، عن اثنين وخمسين عاماً.

---

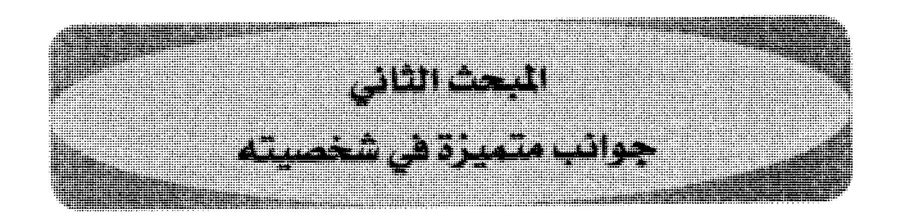
(١) ينظر: موقع الشهاب على الرابط:
http://www.chihab.net/modules.php?name=News&file=article&sid=3

(٢) ينظر: حياة ابن باديس ورحلاته العلمية، في موقع الإمام عبد الحميد ابن باديس.

(٣) ينظ: آثار الإمام البشير الإبراهيمي: ٥/ ٢٨٤.

وبعد زوال اليوم التالي شيعت جنازته، وحمل جثمانه طلبة الجامع الأخضر دون غيرهم، وسط جموع غفيرة تزيد على مئة ألف نسمة. ودفن في مقبرة آل باديس الخاصة في مدينة قسنطينة على الرغم من أنه أوصى بدفنه في مقبرة شعبية عامة.

رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه الفردوس الأعلى من الجنة.


المبحث الثاني
جوانب متميزة في شخصيته

**أ - الجانب العقدي:**

يتبين لمن يقرأ سيرة الشيخ - رحمه الله - وآثاره العلمية أن الله سبحانه وتعالى وفقه لسلوك منهج السلف الصالح، مع أنه نشأ وتعلم في بيئة أشعرية صوفية غارقة في البدع والانحرافات العقدية. وهذا أمر لافت للنظر دعا بعض الباحثين في دعوة الشيخ إلى التساؤل: «كيف تسنى لمصلح في بيئة مالكية أشعرية، أن يتبع المنهجية السلفية في حركته الإصلاحية لتصحيح العقائد وإحياء الثقافة الإسلامية، على وجهها الصحيح؟»[1].

ولا يعرف بدقة المؤثر الذي جعله يتجه اتجاهاً سلفياً في بيئة بدعية. ولعل الشيخ تأثر بالدعوات الإصلاحية التي عمت كثيراً من البلاد التي زارها، كالحجاز ومصر وتونس وغيرها، وإن كانت بعض تلك الدعوات الإصلاحية لا تعد سلفية المنهج،

(١) ابن باديس: الابتعاد عن السياسة لأجل الإصلاح، مقال في موقع الإمام عبد الحميد ابن باديس.

إلا أنها تؤكد أهمية العودة إلى القرآن والسنة اللذين هما مصدر العقيدة ومنبع الهداية بعيداً عن التقليد والتعصب، والخرافات والبدع. يضاف إلى ذلك نزوع الشيخ المبكر إلى الاجتهاد والبعد عن أسر التقليد. ومن أقبل على القرآن والسنة من أهل العلم يستقي منهما العقيدة بمنهج سديد في التلقي ودون التعصب لمقررات سابقة فإن الوحيين سيهديانه إلى الحق، والله سبحانه وتعالى قد قال: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٦].

ولقد كان الشيخ متأثراً بهذه الدعوة، فكان يأوي إلى الوحيين ويعيش معهما ويستقي منهما بعيداً عن أسر التقليد وإصره؛ لكنه باجتهاد مبني على منهج قويم في تلقي الكتاب والسنة، وقد كان يقول لطلبته: «على الطالب أن يفكر فيما يفهم من المسائل وفيما ينظر من الأدلة، تفكيراً صحيحاً مستقلاً عن تفكير غيره، وإنما يعرف تفكير غيره ليستعين به، ثم لا بد له من استعماله فكره هو بنفسه»[1].

يضاف إلى ذلك قراءته في أقوال السلف وسيرهم التي يجدها في المؤلفات، أو في مجلة (المنار) التي يصدرها الشيخ رشيد رضا، وكان الشيخ شغوفاً بقراءتها هي ومجلة (الفتح) التي يصدرها محب الدين الخطيب، وأياً ما كانت الأسباب والمؤثرات فإن الشيخ نهج في معتقده منهجاً سلفياً، خلافاً لمن يشغب في هذا ويظن أن الشيخ لم يخرج عن الأشعرية[2]. وقد صرح الشيخ بضلال أهل الكلام من الأشاعرة وغيرهم، وبيّن خطأهم، كما في قوله: «قلوبنا معرضة لخطرات

---

(١) آثار ابن باديس: ٤/ ٢٠٤.

(٢) ينظر كتاب: عقيدة الإمام عبد الحميد ابن باديس السلفية وبيان موقفه من الأشعرية، لمحمد حاج عيسى الجزائري. وموضوع: هل كان ابن باديس سلفياً؟ في موقع منتدى الأصلين.

الوسواس؛ بل للأوهام والشكوك، فالذي يثبتها ويدفع عنها الاضطراب ويربطها باليقين هو القرآن العظيم. ولقد ذهب قوم مع تشكيكات الفلاسفة وفروضهم، ومماحكات المتكلمين ومناقضاتهم، فما ازدادوا إلا شكاً، وما ازدادت قلوبهم إلا مرضاً، حتى رجع كثير منهم في أواخر أيامهم إلى عقائد القرآن وأدلة القرآن، فشفوا بعد ما كادوا، كإمام الحرمين والفخر الرازي»[١]، وقال في حديث عن الشيخ رشيد رضا: «دعاه شغفه بكتاب الإحياء إلى اقتناء شرحه الجليل للإمام المرتضى الحسيني، فلما طالعه ورأى طريقته الأثرية في تخريج أحاديث الإحياء فتح له باب الاشتغال بعلوم الحديث وكتب السنة، وتخلص مما في كتاب الإحياء من الخطأ الضار، وهو قليل، خاصة عقيدة الجبر والتأويلات الأشعرية والصوفية والغلو في الزهد وبعض العبادات المبتدعة»[٢].

ويشهد لسلفيته كتابه (العقائد الإسلامية) الذي كان يمليه على طلبته، وكذلك أصول دعوة جمعية العلماء التي كتبها. وتفسيره لكتاب الله سبحانه وتعالى الذي كان ينشر منه في افتتاحيات صحيفة (الشهاب) تحت عنوان (مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير)، وفيه تقرير لعقيدة السلف[٣].

(١) عن عقيدة الإمام عبد الحميد ابن باديس السلفية وبيان موقفه من الأشعرية وينظر: أصول الدعوة السلفية عند العلامة ابن باديس كلاهما لمحمد حاج عيسى الجزائري، بحث منشور بموقعه وموقع أهل الحديث.

(٢) آثار ابن باديس: ٤/ ١٩٧.

(٣) لمزيد من الحديث عن سلفية ابن باديس ينظر كتاب: أصول الدعوة السلفية عند العلامة ابن باديس وعقيدة الإمام عبد الحميد ابن باديس السلفية وبيان موقفه من الأشعرية، كلاهما لمحمد حاج عيسى الجزائري، بحث منشور بموقعه، وموقع: أهل الحديث.

على أنه قد يبدو في بعض الأقوال ما يخدش في المعتقد، كتلك التي يوجهها إلى الإدارة الاستعمارية، أو تكون مقصودة بها حينما يخاطب الناس في بعض الأحوال العصيبة التي مرت بجمعية العلماء أو ببعض أعضائها[1].

ولا يشك أن ذلك صدر عن اجتهاد من الشيخ، ومنها ما يحمل على الاجتهاد في اعتبار المصالح ودرء المفاسد، وفي مداراة العدو الجاثم على البلاد، واتقاء شره حتى يصلب عود الدعوة وتقوم على ساقها. وفي اجتماع المسلمين على اختلاف مذاهبهم وآرائهم صفاً واحداً في مواجهة العدو وإحباط مخططاته الرامية إلى تفريق المسلمين وإثارة الفتنة بينهم.

ولعله اجتهاد في أن الظروف التي مرت بها تلك الدعوة الإصلاحية في ظل الاحتلال تستوجب التقية المذكورة في قول الله سبحانه وتعالى: ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ [آل عمران: ٢٨]، وداخلة في قول النبي ﷺ «الحربُ خَدْعة»[2]، وأجاز النبي ﷺ الكذب في الحرب لكونها خدعة[3].

وقد أورد ابن باديس حديث الحجاج بن عِلاط - رضي الله عنه - لما أسلم وأراد أن يخلص ماله من قريش، فاستأذن النبي ﷺ أن يتقوَّل، فأذن

---

(١) ينظر على سبيل المثل: آثار ابن باديس ٣/ ١٢٠-١٢٢، و١٧٩ و١٨٧ و٢٥٧ و٢٧٧ -٢٧٩، ٢٨٢-٢٨٥، ٣٠٩، ٤٤٥.

(٢) أخرجه البخاري: برقم (٢٨٦٥، ٢٨٦٦) ومسلم: برقم (١٧٣٩، ١٧٤٠).

(٣) أخرجه مسلم: برقم (٢٦٠٥) عن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فيقول خيراً أو ينمي خيراً»، قالت: ولم أسمع يرخص في شيء مما يقول الناس كذباً إلا في ثلاث: الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته، وحديث المرأة زوجها. وفي رواية عند البيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٢٠٢): "الحرب؛ فإن الحرب خدعة".

له[1]. قال الشيخ معقباً: «أذن له النبي صلى الله عليه وآله وسلم في التقول والإخبار بخلاف الواقع. . . ؛ لأن ذلك كله من خدع الحرب؛ لأجل التوصل إلى افتكاك مال الحجاج منهم. . . فكان ذلك منه صلى الله عليه وآله وسلم شرعاً عاماً وحكماً باقياً في مثل تلك الحال، مقدراً بذلك المقدار»[2].

وقد قال ابن كثير في تفسير آية (إلا أن تتقوا منهم تقاة): «أي: إلا من خاف في بعض البلدان أو الأوقات من شرهم، فله أن يتقيهم بظاهره لا بباطنه ونيته»[3]، وقال ابن تيمية: «من كان من المؤمنين بأرض هو فيها مستضعف، أو في وقت هو فيه مستضعف، فليعمل بآية الصبر والصفح والعفو عمن يؤذي الله ورسوله، من الذين أوتوا الكتاب والمشركين. وأما أهل القوة فإنما يعملون بآية قتال أئمة الكفر الذين يطعنون في الدين، وآية قتال الذين أوتو الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون»[4].

وقد يوافق على اجتهاد الشيخ وقد لا يوافق، لكن سعي الشيخ في إصلاح العقائد على منهاج السلف كما جاء في القرآن والسنة، وجهاده الكفار الذين يحتلون البلاد ويريدون تغير دينها، ورده على المبتدعة وتشنيعه عليهم ولو كانوا من شيوخه، وثناؤه على أهل السنة والدول التي تقوم بها وتحارب البدعة، والصدع بالحق وترك المداهنة فيه، وتحمله صنوف الأذى في ذلك كله، كل ذلك معلوم عنه، ولا يؤخذ المحكم بالمتشابه، وإنما يرد المتشابه إلى المحكم، ويعتذر له.

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم ١٢٤٠٩، قال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.
(٢) آثار ابن باديس: ٤/ ٨٨.
(٣) تفسير القرآن العظيم: ٢/ ٣٠.
(٤) الصارم المسلول على شاتم الرسول: ٢/ ٤١٣-٤١٤.

ومما يقرره الشيخ ويذكر في هذا المقام: أنه لا دين إلا الإسلام الذي جاء به النبي محمد ﷺ، وسائر الملل باطلة، حتى اليهودية والنصرانية[1]، وأنه يجب على اليهود والنصارى اتباع النبي محمد ﷺ وإلا كانوا من الهالكين[2]. وأنه يجب مباينة المشركين وإعلان البراءة منهم[3]، ومحبة الإسلام وكره ما سواه، وإن كان هذا الكره لا يحمل على الحقد والأذى والإكراه[4]. وأن الإسلام ليس سبباً في تأخر المسلمين، وتركه ليس سبباً في تقدم غيرهم؛ بل السبب في التقدم والتأخر هو التمسك بالأسباب أو الترك لها. ولو أن المسلم تمسك بها كما يأمره الإسلام لكان سيد الأنام مثل سالف أيامه[5].

يقول الشيخ محمد حاج عيسى الجزائري بعد أن قرر سلفية ابن باديس في كتابه (عقيدة الإمام عبد الحميد ابن باديس): «وربما رأى بعض الناس في كلامه شيئاً لا يقره، فلذلك محامل وأعذار، مثله مثل كلامه الموجه للإدارة الاستعمارية، الذي ينبغي أن يعد من قبيل المداراة التي اقتضاها الظرف وأداه إليها اجتهاده، وكذلك في باب العقيدة التي نحن بصدد الحديث عنها، فالعذر عند من ظفر له بخطأ قائمُ، إذ الرجل لم ينشأ في وسط سلفي، ولم يتخرج من معاهد سلفية، ولكن منَّ الله عليه بالهداية من طرق هو أعلم بها، وإن وجود بعض الخطأ في كلامه أمر لا يسقط الرجل، ولا يغض منه شيئاً، خاصة أنه من حيث المنهج الكلي كما سبق سلفي،

---

(١) ينظر: آثار ابن باديس: ٣٣/ ٤٨٧.
(٢) المرجع السابق: ٢/ ٢٢٦-٢٢٧
(٣) المرجع السابق: ١/ ١٨٠.
(٤) المرجع السابق: ٣/ ٤٨٨.
(٥) المرجع السابق: ١/ ٢١٢.

ولا مرية في ذلك، وكذلك من حيث التفصيل قد قرر العقائد التي وقع فيها الاختلاف تقريراً موافقاً لعقيدة أهل السنة والجماعة».

ومما أخذ على الشيخ مشاركته في الاحتفال بذكرى بعض المناسبات الإسلامية التي اتخذت أعياداً بدعية، كالاحتفال بذكرى المولد النبوي[1]، واحتج على منعه في المغرب[2]، وإحياء ليلة المعراج[3].

ومما أخذ عليه إجازته التوسل بذات النبي ﷺ، ورده لحديث: (إن أبي وأباك في النار)[4]؛ لأنه حديث آحاد، ويرى الشيخ أن خبر الواحد يرد إذا خالف القطعي من القرآن[5]، ورأى أن هذا الحديث يخالف الآيات القواطع التي جاءت في نجاة أهل الفترة، على أن ابن باديس قد قال: «ولا يستثنى من ذلك إلا من جاء فيهم نص ثابت خاص، كعمرو بن لحي»[6]؛ لكنه رأى أن الحديث يقبل التأويل، وأول الأب بالعم، وهو تأويل لا قرينة عليه. وقد خالف الشيخ رأيه في خبر الآحاد حينما رجح جواز التوسل بذات النبي ﷺ، مستدلاً بخبر آحاد، مع مخالفته للنص القرآني الصريح القطعي، الذي وصفه الشيخ بذلك[7].

وقد حرص قوم على إخراج الشيخ من السلفية، وآخذوه بمثل هذا وغيره من آحاد المسائل التي اجتهد فيه الشيخ، ورأوا أنه لم يصب فيها الحق. أو آخذوه بأقوال

(١) ينظر: آثار ابن باديس: ٣/ ٤٧٤، ٤٧٨، ٥٠٧، و٤/ ١١.
(٢) المرجع السابق: ٣/ ٤٤٩.
(٣) المرجع السابق: ٣/ ٤٩٧.
(٤) أخرجه مسلم: برقم (٢٠٣).
(٥) آثار ابن باديس: ١/ ١٦٨.
(٦) المرجع السابق: ٢/ ٧٢.
(٧) المرجع السابق: ٢/ ١٩٢-١٩٣.

ومواقف ساء فهمهم لها، ولم يرد فيها الشيخ ما ظنوه منه، أو أنها من الاجتهاد في الأحوال التي للشيخ عذر شرعي فيها مما يدخل في باب السياسة الشرعية.

وقد نشروا في ذلك كتباً أو مقالات في مواقع الشبكة العالمية[١]. وأُتوا في كثير مما أخذوا عليه من سوء الفهم، أو من الظلم والعدوان[٢].

**ب- الجانب العلمي:**

تهيأ للشيخ العلم منذ صغره، فقد حباه الله قدرة عقلية على التعلم والتفقه، وكان نبوغه ونباهته وتفوقه باد عليه في صغره، فألحقه أبوه في وقت مبكر بالكتاب حتى حفظ القرآن وهو في الثالثة عشر من عمره، وألحقه بالشيخ الونيسي ليتعلم العلوم الشرعية والعربية، ثم وجهه لإكمال تعليمه في جامع الزيتونة بتونس، وقد كان الطالب الجزائري الوحيد في دفعة تلك السنة التي تخرج فيها، ومن دلائل نبوغه أن الدراسة في الزيتونة تستمر لمدة سبع سنوات ثم يتخرج الطالب بعد اجتياز الامتحان، إلا أن الشيخ قضاها في ثلاث سنوات لنبوغه وتمكنه العلمي الذي ظهر لإدارة الجامع بعد امتحان القبول.

ويروي أحد تلاميذه عنه مايدل على اجتهاده وحرصه على تحصيل العلم، قال ابن باديس: «كنت أسهر الليالي للدراسة والمطالعة، مستعيناً ببعض المنبهات،

---

(١) ينظر مثلاً: الرد الوافي على من زعم أن ابن باديس سلفي، لأم أيوب غاوي. وموضوع: دفاعاً عن ابن باديس، في موقع: ملتقى أهل الحديث.

(٢) هيأ الله سبحانه وتعالى للشيخ من يذب عنه، كالشيخ محمد حاج عيسى الجزائري وفقه الله، في كتابيه: أصول الدعوة السلفية عند العلامة ابن باديس، وعقيدة الإمام عبد الحميد ابن باديس السلفية وبيان موقفه من الأشعرية، ومقالات أخرى في موقعه أو في موقع: ملتقى أهل الحديث على الشبكة العالمية.

لكني حين أحس أن النوم يغالبني ولم تعد المنبهات تنفع في دفعه عمدت إلى مطرح أضعه على الأرض، وأضع مرفقي على الأرض أو أحدهما، فيلامس الآجر بارداً، فأستيقظ، وأجدد مطالعتي أو مراجعتي حتى أفرغ منها»[1].

وهذا مما يدل على محافظته على وقته واهتمامه به وتنظيمه له، وهي صفة عرف بها ابن باديس في حياته العلمية والعملية، وسيرته كلها شاهدة على ذلك.

وتهيأ له في جامع الزيتونة من العلماء الأعلام ما أسهم في تكوينه العلمي، كالطاهر بن عاشور ومحمد النخلي ومحمد الخضر حسين وغيرهم.

وقد أعجب به شيوخه وأساتذته ومن اتصل بهم من أهل العلم فأجازوه وقدموه للتدريس، وفي قسنطينة كان المرجع غير الرسمي في الفتوى، وانقطع للطلبة والعامة يعلمهم ويفقههم ويربيهم.

قال عنه العلامة ابن عاشور: «العالم الفاضل، نبعة العلم والمجادة، ومرتع التحرير والإجادة»[2].

وقد وصفه جمع من علماء الجزائر وتونس الذين عرفوه بـ (العالم، العلامة، الجهبذ، المدقق، المحرر، الجامع، أحد الأئمة الأعلام، عالم الديار القسنطينية، رئيس علماء قسنطينة)[3].

ومما برع فيه من العلم: التفسير، فقد عني به الشيخ عناية فائقة، نبعت من يقينه بأن القرآن مصدر الهداية والإصلاح، وقد بدأ بدروسه في التفسير منذ عاد

---

(١) عن: عبد الحميد ابن باديس، العالم الرباني: ٣٢.
(٢) آثار ابن باديس: ٣/ ١٦٥.
(٣) المرجع السابق: ٣/ ١٦٤-١٧٢.

إلى الجزائر سنة (١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م)، وختمها بعد خمسة وعشرين عاماً في (١٤/ ٥/ ١٣٥٧هـ١٩٣٨م).

وقد عُدَّ الشيخ إماماً في التفسير، كما قال البشير الإبراهيمي رحمه الله بعدما بين طرق فهم القرآن عند العلماء، ومدح طريقة محمد عبده، قال: «فانتهت إمامة التفسير بعده في العالم الإسلامي كله إلى أخينا وصديقنا ومنشئ النهضة الإصلاحية العلمية بالجزائر؛ بل بالشمال الأفريقي: عبد الحميد ابن باديس»[١].

وقد ساعده في ذلك توفيق من الله سبحانه وتعالى، واهتمام كبير بالقرآن وعلومه، وذوق خاص في فهم القرآن، كأنه حاسة زائدة خص بها، وذلك لأنه يعيش القرآن بكيانه كله، وله مع ذلك بيان ناصع، وذكاء مشرق، وقريحة وقادة، وبصيرة نافذة، وشجاعة في الرأي والقول، وتمكن في العلوم الشرعية، واطلاع واسع على علوم أخرى نفسية واجتماعية وتاريخية وغيرها [٢].

ومن المؤسف أن الشيخ لم يكن يدون تفسيره، إلا مقالات يسيرة كان ينشرها في افتتاحيات مجلة (الشهاب)، تحت عنوان (مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير)، ثم جمعت بعد وفاته ونشرت. ولم يكن تلاميذه يدونون في أثناء الدرس، وبذلك «ضاع على الأمة كنز علم لا يقوَّم بمال ولا يعوَّض بحال» كما قال البشير الإبراهيمي[٣]، وقال: «إن من دواعي الأسف أنه لم ينتدب من مستمعي هذه الدروس من يقيدها بالكتابة، ولو وجد من يفعل ذلك لربحت هذه الأمة ذخراً لا يقوم بمال، ولا ضطلع

---

(١) آثار الإمام البشير الإبراهيمي: ٢/ ٢٥٢.

(٢) ينظر: المرجع السابق، وابن باديس مفسراً، مقال في موقع: الإمام عبد الحميد ابن باديس.

(٣) آثار الإمام البشير الإبراهيمي: ٢/ ٢٥٣.

هذا الجيل بعمل يباهي به جميع الأجيال، ولتمخض لنا ربع قرن عن تفسير يكون حجة هذا القرن على القرون الآتية ومن قرأ تلك النماذج القليلة المنشورة في (الشهاب) باسم (مجالس التذكير) علم أي علم ضاع وأي كنز غطّى عليه الإهمال»[1]. وقال الشيخ بعد أن حضر درساً للبشير الإبراهيمي في التفسير، فأعجبه: «لو أن التلاميذ أوتوا حظاً من النشاط والتوفيق لما ضاعت هذه الدروس، ولنشرت كما هي»[2]، وقد أثر عنه قوله: «شغلنا بتأليف الرجال عن تأليف الكتب»[3].

على أن الشيخ رغب في كتابة تفسير القرآن، يتعاون فيه هو والبشير الإبراهيمي، وقال له: «إننا لو تعاونا وتفرغنا للعمل لأخرجنا للأمة تفسيراً يغطي على التفاسير»[4].

وللشيخ عناية بالسنة النبوية، وله درس في موطأ الإمام مالك، بدأه في السنة التي تلي سنة بدء التفسير، وختمه في السنة التي تلي ختم التفسير، فشرحه في ربع قرن (١٣٣٣هـ/ ١٩١٥م = ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م). وفي شهر رمضان يضيف إلى دروسه المعتادة درساً في شرح صحيح البخاري قبيل صلاة الظهر.

وكان يدرس علوماً أخرى كالعقيدة، والفقه وأصوله، والآداب والمواعظ، وفنون العربية من لغة ونحو وصرف وبلاغة وأدب، والمنطق، والحساب، والتاريخ، والجغرافيا.

---

(١) آثار ابن باديس: ٢/ ١٠٥، وآثار الإمام البشير الإبراهيمي: ١/ ٣٤٣-٣٤٤.
(٢) آثار الإمام البشير الإبراهيمي: ٢/ ١٩٥.
(٣) ينظر: تفسير ابن باديس: ١٤، ومقال (ابن باديس مفسراً) في موقع (الشهاب) على الرابط:
http://www.chihab.net/modules.php?name=News&file=article&sid=822
(٤) آثار الإمام البشير الإبراهيمي: ٢/ ٢٥٢-٢٥٣.

وقد كانت الاستفتاءات ترد على الشيخ من أنحاء الجزائر، ومن خارجه، فيجيب عليها في صفحات (الشهاب) و(البصائر). وكان له من الفقه بالواقع وأحوال الناس والأمة ما يخوله الاجتهاد في الفتوى بحسب الظروف والأحوال والمصالح والمفاسد المعتبرة.

ولم يكن يسلك سبيل التقليد للمذهب المالكي، الذي تعلم من خلاله، ويُعلِّم من خلال كتبه، وهو الذي ربَّى نفسه منذ أن كان متعلماً على التفكير العلمي وإعمال العقل والبعد عن التقليد. وكان يسلك في التعليم والفتوى سبيل الاجتهاد والترجيح بين المذاهب، كما هو ظاهر في فتاواه ومسائل الأحكام التي يتناولها في تفسيره وشرحه للأحاديث ومقالاته، وإن كانت له عناية بذكر المذهب المالكي باعتباره المذهب الفقهي السائد في البلاد. ولما كتب في إصلاح التعليم بجامع الزيتونة اقترح أن يطلع الطلبة في قسم القضاء والفتوى على المذاهب الفقهية، قال: «ويطلعون على مدارك المذاهب؛ حتى يكونوا فقهاء إسلاميين، ينظرون إلى الدنيا من مرآة الإسلام الواسعة، لا من عين المذهب الضيقة»(١).

وربما يجيب على المسألة وينشر الجواب في المجلة، فيرى لاحقاً أنه أخطأ في الجواب، فيعترف بالخطأ ويبين الصواب(٢).

ويظهر من حياة الشيخ ودروسه ومقالاته أن له عناية بالقراءة، واطلاعاً واسعاً في فنون المعرفة، ومتابعة لما يطبع في العالم الإسلامي من كتب وصحف ومجلات، ويحرص على متابعة بعض الصحف والمجلات الفرنسية. وقد كان لهذه المتابعات لما ينشر أثر في سعة علمه، وفي معرفته بأحوال العالم.

---

(١) آثار ابن باديس: ٣/ ١٨٣.

(٢) ينظر: المرجع السابق: ٤/ ٤١٣، وعبد الحميد ابن باديس وجهوده التربوية: ١٢٨.

كما قام بتحقيق كتاب (العواصم من القواصم) لابن العربي المالكي (ت ٥٤٣هـ)، وعزم على نشر كتابه الآخر (القبس على موطأ مالك بن أنس)[١].

### ج - الجانب العقلي والفكري:

في ظل بيئة تؤسر فيها العقول بالتقليد، وتُغلُّ بالخرافات، وترفع فيها شعارات الطرقية التي تقول: (اعتقد ولا تنتقد) يؤمن الشيخ بأهمية إعمال العقل، وإعطائه حقه في التفكير، وإبداء الرأي، ومناقشة الأقوال، وعدم التسليم بها على الإطلاق، ويدعو إلى بناء الحياة على التفكير السليم. وقد ظهر ذلك منه في دروسه ومقالاته وآرائه، وكان يحث طلابه على التفكير وترك التقليد. ويدعو إلى الأخذ بالأسباب المادية للتقدم، وطلب المعرفة بأية لغة، ومن أي مصدر.

وقد يبدو هذا التوجه عند الشيخ غريباً في تلك البيئة، لكن ثمة عوامل كان لها تأثير في سعة فكر الشيخ، وتحرره من الجمود والتقليد، ولعل منها ما كان يسمعه منذ نشأته في قسطنطينة من بعض أهل العلم الذين كانوا يدعون إلى الإصلاح، والأخذ بأسباب التقدم المادي، كالشيخ عبد القادر المجاوي، والمولود ابن الموهوب، وغيرهما، وما تلقاه من تأثير مشايخه في الزيتونة، وخاصة الشيخ محمد النخلي، والبشير صفر، وما تلقاه من سماع ومقروءات في الصحف التي تحمل أصوات المنادين بالإصلاح الفكري ونبذ التقليد، من أمثال الأفغاني ومحمد عبده وشكيب أرسلان والكواكبي ورشيد رضا وغيرهم، على اختلاف بين هؤلاء في المنهج العقدي والفكري. وقد كانت أصواتهم يتردد صداها في العالم الإسلامي.

---

(١) آثار ابن باديس: ٤/ ١٢٨ و١٣٨.

ولعل منها معايشته للاحتلال الفرنسي والأوساط المحتكة به والقراءة في الصحف الغربية وخصوصاً الفرنسية، مما مكنته من النظر في المنجزات المادية والثقافية الغربية؛ ليدرك عن قرب الأسباب المادية لتفوق الغرب وتقدمه في مقابل التخلف المادي الذي تعيشه بلاد المسلمين[1].

وقد يكون للبيئة الأسرية التي نشأ فيها الشيخ تأثير عليه، فقد ولد ونشأ في أسرة عريقة مشهورة بالعلم والنباهة والنبوغ، فورث منها ذلك وقد آتاه الله سبحانه وتعالى قوة ذكاء وحدة نظر ونبوغاً مبكراً، وهيأ الله له والداً ثرياً، كفاه مؤنة الكد والنصب للبحث عن لقمة العيش، وقد عني بتعليم ابنه وتهذيبه عناية فائقة، كما سبق.

قد تكون تلك العوامل كلها وقد يكون بعضها قد أثر في تكوين الشيخ الفكري، وجعلته يتجه نحو الاستقلال الفكري والاجتهاد والتخلص من التبعية والجمود.

وفي مثل هذه المؤثرات القوية لا يسلم المرء من الشطط والانحراف في تفكيره، لردة الفعل التي قد تصيبه من الواقع الذي يعيشه، كما أن جملة من الأفكار التي تتردد على ألسنة المنادين بالإصلاح فيها انحراف عن المنهج القويم والصراط المستقيم، كما هو الحال عند أقوى صوت في ذلك الزمان يتردد صداه في الجزائر: صوت الشيخ محمد عبده، كما سبق الإشارة إلى ذلك في الحديث عن الواقع الإصلاحي. وقد كان الشيخ لا زال في شبابه، وكان يسمع عن أفكاره، ويقرأ له من خلال المجلات. ولما زار محمد عبده الجزائر وقسنطينة كان الشيخ قد بلغ الثالثة عشر من عمره أو جاوزها، ولعله رأى احتفاء أهل العلم به، وسمع عنه.

---

(١) ينظر: تفكير الإمام المصلح عبد الحميد ابن باديس، مقال في موقع الإمام عبد الحميد ابن باديس.

ومع ذلك فإن الشيخ وفقه الله سبحانه وتعالى وحفظه من مثل تلك الأفكار المنحرفة والآراء الضالة؛ لما قذف في قلبه من الاستمداد من الوحيين، والعودة إلى منهاج السلف، والسير على طريقتهم، مع نبذ التقليد والتبعية المطلقة، فكان تفكيره متفتحاً لكنه ملتزم بثوابت الشرع ومبادئ الدين ومنهج السلف، وهذه سمة مهمة في تفكير الشيخ، و «السلفية عنده لا ترفض معايشة العصر، والتفتح على علومه، والاستفادة من كل ما يمكّن المجتمع من مسايرة الركب الحضاري، كما لا ترفض الرجوع إلى العقل في معالجة الأمور دون أن يكون في ذلك ما يمس جوهر العقيدة ويتضارب مع حقائق الإسلام»[1]. وكان يقول: «نحسّن ما كان من أخلاق الأمم حسناً وموافقاً لحالنا وتقاليدنا ونقبله، ونقبّح ما كان منها قبيحاً أو مبايناً لمجتمعنا وبيئتنا ونرفضه، فلسنا من الجامدين في جمودهم، ولا مع المتفرنجين في طفرتهم وتنطعهم، والوسط العدل هو الذي نؤيده وندعو إليه»[2].

ولئن كانت بعض العبارات التي قد يشم منها بعضهم رائحة ميل عن الفكر الإسلامي القويم فينبغي أن تحمل في سياقها وظرفها، فإن لم تحتمل فيبين خطؤها ويترحم على صاحبها ويستغفر له، فإن له بحراً من الجهاد والدعوة إلى الله ونشر الاعتقاد الحق لا يكدره إن شاء الله مثل هذه العبارات.

ولقد جاء تفكير الشيخ إيجابياً عملياً واقعياً شمولياً؛ لأنه في مقام إصلاح وجهاد وتهذيب للنفوس، لا في مقام الجدل والمناظرة وتقرير المسائل والتفلسف فيها والسفسطة.

---

(١) تفكير الإمام المصلح عبد الحميد ابن باديس مقال في موقع الإمام عبد الحميد ابن باديس.

(٢) آثار ابن باديس: ٣/ ٢٨٠.

وقد ظهر حسن تفكيره من استقامته على المنهاج القويم في الدين والاعتقاد، ووعيه العميق بالواقع الذي تعيشه الأمة. ومما وصف به الشيخ: بعد النظر، وصدق الحدس، وصواب الفراسة.

**د - الجانب الخلقي:**

مما تميز به الشيخ حسن خلقه وتعامله وحلمه وتسامحه مع الموافق والمخالف، فله نفس تتسامى عن الدنايا والصغائر والأحقاد والأطماع الشخصية، ويرى أنه يدور مع الحق نصرة له، لا نصرة للذات، وأن الاختلاف في الشيء الخاص لا يمس روح الأخوة في الأمر العام[1]؛ ولذا تجده مع شدة ردوده على بعض المخالفين والأعداء يعترف لهم بفضل ويقدم لهم واجب الشكر.

ومن مواقفه التي تدل على تلك النفس الزكية الحليمة المتسامحة ما فعله مع المفتي ابن الموهوب الذي أمر أحد أتباعه أن يشوش على الشيخ، فجاء وأطبق الكتاب، وأطفأ الشموع، وكادت تقع فتنة بينه وبين الطلاب، لكن ابن باديس هدأ طلابه، ومنعهم من أذيته، وصرفهم. وكذلك موقفه مع الجاني الذي حاول قتله بتدبير من الفرقة العليوية، ولما جاءت النجدة إلى الشيخ منعهم من الفتك به، كما عفا عنه في المحكمة، وقد سبق ذكر الحادثة في سيرة حياته[2]. وفيها قال تلميذه محمد العيد آل خليفة قصيدة منها:

حمتك يد المولى وكنت بها أولى

فيا لك من شيخ حمته يد المولى

---

(١) ينظر: آثار ابن باديس: ٣/ ٥٢٠.

(٢) ينظر في تفاصيل الحادثة: صراع بين السنة والبدعة: ١/ ٩٣.

فيا لوضيع النفس كيف تطاولت
به نفسه حتى أسر لك القتلا
فوافتك بالنصر العزيز طلائعٌ
مباركة تترى من الملأ الأعلى
وإن أنس لا أنسى الذين تظافروا
على الفتك بالجاني فقلت لهم مهلا

ويظهر حسن خلقه في تواضعه وزهده، مع أنه من أسرة وجيهة غنية، إلا أنه ارتضى أن يكون أقرب إلى حياة العامة والطلاب من حياة الوجهاء والأعيان، ويروى أنه خرج ذات يوم من مقصورته بجامع (سيدي قموش) بقسنطينة، فطلب من أحد أصدقائه أن يبحث له عمن يشتري له نصف لترٍ من اللبن وأعطاه آنية، فوجدها الصديق فرصة لإكرام الشيخ، فذهب إلى الشوّاء، واشترى له لحماً، وعاد إلى الشيخ فرحاً، ولما قدمه استشاط الشيخ غضباً، وقال له: ألا تعلم أنني ابن مصطفى ابن باديس؟، وأن أنواعاً مختلفة من الطعام اللذيذ تُعدّ كل يوم في بيتي، لو أردتُ التمتع بالطعام؟، ولكن ضميري لا يسمح لي بذلك، وطلبتي يسيغون الخبز بالزيت، وقد يأكله بعضهم بالماء[1].

ولحسن خلقه وتعامله واهتمامه بطلبته وقومه وقيامه بما ينبغي عليه تجاههم ألقي في نفوسهم محبته كما ألقي هيبته، قال تلميذه محمد الأكحل: «وأشهد الله – وأنا من الطلبة – أننا ونحن نسير في شوارع قسنطينة نحس وكأن عين ابن باديس تلاحقنا

(١) ينظر: عبد الحميد ابن باديس وجهوده التربوية: ١٢٥.

بالنظرة الحادة في كل بقعة ومكان؛ نظراً لتلك الهيبة التي أودعها الله في الرجل، وتلك المحبة التي تغمر قلوبنا نحوه ممزوجة بهيبة الأبوة نحو البنوة»[1].

### هـ - الجانب النفسي والتضحية:

الناظر في سيرة الشيخ وأقواله يدرك بعض الصفات النفسية التي يتحلى بها، ولها أثر في ثباته واستمراره في دعوته، ومن أبرز هذه الصفات: الشجاعة، ورباطة الجأش. ومنها الصبر، وهي صفة مهمة للدعاة المصلحين الذين يسعون إلى تحقيق أهدافهم في ظل عقبات ومعوقات كبيرة، وإن الدعوة إلى دين الله وإصلاح المجتمع على ما يحبه الله في ظل احتلال غاشم لا يرضى هذا الإصلاح، لن يكون سهلاً ميسوراً، إلا بالتضحية بالنفس والمال والجهاد في سبيل الله.

وسيرة الشيخ كلها تؤكد هذه الصفة المهمة في شخصيته الدعوية؛ فقد بذل - رحمه الله - وقته وجهده في التعليم والإصلاح، وبرنامجه اليومي والأسبوعي يدل على هذه التضحية العظيمة.

فقد كان - رحمه الله - في غالب حاله يبدأ عمله قبيل صلاة الفجر بالمرور على مساكن الطلاب؛ ليتأكد من استيقاظهم للصلاة. ويعقد لبعض طلابه دروسًا في التاريخ والجغرافيا قبل الفجر مرة في الأسبوع في الطابق العلوي من الجامع، بعيداً عن أعين الأعداء؛ لأن هاتين المادتين محظور تدريسهما على الجزائريين، وكان يقول لتلاميذه: أنا أعلم أنكم شباب، وبحاجة إلى النوم، لكني اخترت هذا الوقت لأنه الوقت الذي تنام فيه الشياطين[2].

---

(١) خطة الأستاذ الإمام لتحرير الجزائر بالإسلام، مقال في موقع: الإمام عبد الحميد ابن باديس.

(٢) ينظر: موضوع (الشيخ محمد الصالح رمضان كما عرفته) في موقع ملتقى أهل الحديث: منتدى تراجم أهل العلم المعاصرين.

وبعد صلاة الفجر يشرع في التدريس إلى شروق الشمس. ثم يتناول إفطاره. فيعود إلى التدريس إلى صلاة الظهر. وبعد صلاة الظهر يلقي درسه في شرح الموطأ.

وما بين العصر إلى العشاء يمضيه في التدريس، أو في مكتب إدارة (الشهاب)؛ يحرر المقالات الصحفية، ويطالع الصحف، ويستقبل بعض الزوار. أو يمضيه في المكتب الرئاسي لـ (جمعية العلماء) في مدرسة التربية والتعليم الإسلامية بجوار إدارة (الشهاب).

وبعد العشاء يلقي دروسه في التفسير للطلبة والعامة، ويحضره ما يقارب ألفي شخص. ثم يذهب إلى إدارة صحيفة (الشهاب) يكتب ويراسل ويجيب على الرسائل فيقضي شطراً من الليل.

وكان عدد الدروس التي يلقيها يومياً على مختلف طبقات طلابه عشرة دروس، وقد ترتفع في الربيع والصيف ورمضان إلى ثلاثة عشر درساً.

وكان يلقي درسين خاصين بالأعضاء الشبان في جمعية التربية والتعليم بقسنطينة، صباح كل أحد ومساءه.

ويلقي درساً أسبوعياً للنساء بعد العصر من يوم الجمعة.

وفي العطلة الأسبوعية ينتقل من قسنطينة إلى مناطق البلاد من شرقها إلى غربها؛ بقصد إلقاء المحاضرات والدروس، والاتصال بالعلماء، وتوجيه الدعاة، وإرشاد المدرسين، واستقطاب الطلاب، والفصل بين الخصومات، والتعرف على أحوال المجتمع.

هذا فضلاً عن الأعمال العارضة التي تستوجب الاجتماعات، أو السفر خارج البلاد.

وهذا جهد عظيم لا يقدر على مثله إلا من يستشعر عظم المسؤولية وأوتي الصبر وقوة النفس وعلو الهمة.

ويذكر تلميذه الشيخ عمار مطاطلة أنه كان ذات يوم في أحد الدروس حاملاً الكتاب المقرر، فإذا به تأخذه سنة من النوم، فيسقط الكتاب من يده، فرآه الشيخ، وقال له: أتظن أنك الوحيد الذي بحاجة إلى نوم، أنا ما نمت إلا سويعات. ثم قال: كيف ينام من أمته في مثل هذا الذل والهوان[1].

وقد صبر الشيخ على الابتلاءات المتنوعة، من إيذاء جسدي أو نفسي أو إغراء مالي أو معنوي أو غير ذلك. ورفض الشيخ جميع المغريات التي قدمتها له السلطات الفرنسية لحمله على تأييد فرنسا في الحرب العالمية الثانية، أو على حل جمعية العلماء أو التخلي عن رئاستها، وقد قدمت له عروض مغرية بواسطة أبيه، وكان منها تعيينه في أعلى منصب ديني.

وقد بلغ من تضحيته في سبيل الله أن طلق زوجته، التي كانت تطلب أن تقيم وحدها بعيداً عن أسرة والده وكان هو يريد أن تبقى ضمن أفراد عائلة أبيه لتتوفر لديه الحرية أكثر في الحركة والنشاط؛ لأنه كان يقضي جل وقته خارج البيت ولا يزور البيت إلا نادراً وفي إحدى المرات التي كان فيها خارجاً ثارت حفيظة الزوجة وغادرت بيت أبيه، وعندما رجع ولم يجدها رفض إرجاعها على الرغم من إلحاح

---

(١) ينظر: موضوع (الشيخ محمد الصالح رمضان كما عرفته) في موقع ملتقى أهل الحديث منتدى تراجم أهل العلم المعاصرين.

والده بإحضارها، وانتظر عدة أيام ولما لم ترجع طلقها، وأصر على قراره على الرغم من محاولات أهل الزوجين[1]، ورفض الزواج ثانية. وبغض النظر عن صواب هذا التصرف أو عدمه لما يحيط به من ملابسات وأحوال، فإن الدافع له كان إزالة العوائق التي تعوق حركته في الدعوة والإصلاح.

بل بلغ من تضحيته أن يتخلى عن عرض مالي قدم لأبيه وأسرته يفك ضائقة مالية ألمت بها مقابل عدم الاستقالة عن جمعية العلماء الجزائريين، فقد وقع والده في ديون كبيرة فبعث إليه ميرانت (مدير الشؤون الأهلية في الولاية العامة بالعاصمة) دعوة بالحضور إلى مكتبه في وقت محدد معلوم؛ ليكون والد ابن باديس حاضراً، فلما دخل عليه، قال له ميرانت: إن أسرة ابن باديس في ضائقة مالية حادة، وهي مقبلة على الإفلاس منذ اليوم، وإن الحكومة الفرنسية تعلن استعدادها لإنقاذ الأسرة، وهي هذه المرة لا تطلب منك حل الجمعية، وإنما تكتفي منك بالاستقالة منها فقط، تكتب الاستقالة وتوقعها لتبقى محفوظة عندنا من غير إعلان عنها أو إشهار، ونحن نسلم لأبيك الآن صكاً مصرفياً يقضي كل ديون الأسرة ويمنحها فرصة لاستعادة مكانتها الاقتصادية والاجتماعية، ونحن يعز علينا سقوط هذه العائلة الماجدة وإفلاسها. لم يجب الشيخ في حضرة والده، وطلب مهلة للتفكير إلى صباح اليوم التالي، وفي الغد كتب جوابه إلى ميرانت: اقتل أسيرك يا ميرانت، أما أنا فمانع جاري (الجمعية)، اقتل مصطفى ابن باديس، واقتل معه ابنه عبد الحميد، واقض على أسرة ابن باديس إن منحك الله هذه القدرة ولكنك لن تصل أبداً إلى قتل جمعية العلماء بيدي؛ لأن (جمعية العلماء) ليست جمعية عبد الحميد ابن باديس وإنما هي جمعية الأمة الجزائرية

---

(١) ينظر: حياة ابن باديس ورحلاته العلمية في موقع الإمام عبد الحميد ابن باديس.

المسلمة؛ وما أنا إلا واحد فيها، أتصرف باسمها واسم الأمة كلها، ومحال أن أتصرف تصرفاً أو أن أقف موقفاً يكون فيه قتل الجمعية على يدي، أقول هذا وحسبي الله ونعم الوكيل[1].

وقد أعلن الشيخ أنه وقف لله سبحانه تعالى في بيانه الذي كتبه يعتذر فيه عن قبول ترشيحه لرئاسة المؤتمر الإسلامي الجزائري، ومما قاله: «قررت اللجنة التنفيذية للمؤتمر الإسلامي الجزائري في جلستها الأخيرة بنادي الترقي إسناد رئاسة المؤتمر إليَّ بدون أخذ رأيي في هذه المسألة الخطيرة، إذ كنت غائباً عن تلك الجلسة. وأنا مع شكري لإخواني الذين أولوني ثقتهم الاجتماعية، ومع كون الأمة الجزائرية لم تعرف عني في وقت من الأوقات الفرار من الواجبات، مع كل هذا أعلن لهؤلاء الإخوان أنهم غفلوا حين أسندوا الرئاسة إلي عن أشغالي العلمية التي تستغرق أوقاتي كلها، والتي أضحي في سبيلها بكل عزيز، كما غفلوا عن ارتباطي بهيئات علمية مروضة على الشورى، لا تعرف غير سبيلها سبيلاً، وأنها هي المالكة لحياتي، لأني جعلت حياتي وقفاً عليها. وبناء على هذا فإني أعلن لهؤلاء الإخوة وللأمة الجزائرية كلها أنني لست لنفسي؛ وإنما أنا للأمة أعلم أبناءها وأجاهد في سبيل دينها ولغتها، وأن كل ما يقطع علي الطريق أو يعوقني عن أداء واجبي في السبيل فإني لا أرضى به، ولو كان ذلك في مصلحة الأمة»[2].

---

(١) ينظر: إمام الجزائر: عبد الرحمن ابن باديس لعبد القادر فضيل ومحمد الصالح رمضان: ١٢٧ - ١٢٨، عن أصول الدعوة السلفية عند العلامة ابن باديس لمحمد حاج عيسى الجزائري، بحث منشور بموقعه وينظر: دعائم النهضة الوطنية الجزائرية لمحمد الطاهر فضلاء: ١٠٢-١٠٤ عن: الطرقية وجمعية العلماء المسلمين، مقال لعبد المالك حداد في موقع: الشهاب للإعلام.

(٢) آثار ابن باديس: ٦/ ١٨١، عن أصول الدعوة السلفية عند العلامة ابن باديس لمحمد حاج عيسى الجزائري بحث منشور بموقعه.

وسبق في مسيرة حياته أن البشير الإبراهيمي ذكر أن الشيخ كان مصاباً بسرطان في الأمعاء يحس به من سنوات قبل وفاته، وكان انهماكه في التعليم والإصلاح يمنعه من التفكير فيه وفي علاجه[1].

وما بلغ الشيخ هذا القدر العظيم من التضحية والثبات إلا بصفات الصبر والإخلاص، وقوة اليقين، والشجاعة، والعزة، والشعور بعظيم الخطر على الأمة، وعظم المسؤولية على النفس وخلو القائم بها أو قلته، والتخلص من أسر شهوات الدنيا وملذاتها ووظائفها، ولقد كان لنصيحة (الونيسي) له ومعاهدته إياه وهو في المدينة النبوية الأثر الكبير فيه.

### و- الجانب البياني والأدبي:

المطلع على ما كتبه الشيخ يدرك حقيقة ما وصف به من نصاعة البيان وإشراقة الأسلوب، والقدرة على الإفادة والإقناع والتأثير والإمتاع، ويظهر ذلك في خطبه التي تدل على براعة وتمكن، وقد شهد بذلك الأعداء، كما وصفه مراسل جريدة (Le Petit Matin) الفرنسية الصادرة في تونس، بعد أن حضر الحفلة التي أقيمت بتونس في ربيع ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م، احتفاء بذكرى شيخ ابن باديس المؤرخ التونسي البشير صفر، وقد حضر ابن باديس الحفلة وخطب فيها، قال المراسل: «الشيخ عبد الحميد ابن باديس يمثل حقاً الزعيم الخطيب، فهو قد ملك مقاليد الكلام، وبصوته الجهوري يستفز الجماهير، فيثير الحروب، أو ينزل في القلوب سكينة السلام»[2]. وكتبت أيضاً هذه الجريدة تصف قدرة ابن باديس الخطابية والعلمية والسياسية: «إن ابن باديس من

---

(١) ينظر: آثار الإمام البشير الإبراهيمي: ٥/ ٢٨٤.

(٢) عن: عبد الحميد ابن باديس، العالم الرباني: ٤٤.

هذه الناحية لقريب إلى ميرابو وجوريس وزغلول.. لقد استطاع أن يفعل ما يريد في الجموع التي كانت بالأمس تستمع إلى خطابه. كان يستطيع أن يجعل منها سرباً من الطيور الكاسرة، أو قطيعاً من الخرفان، وهذا ما نستطيع أن نصف به هذا الرجل الخارق للعادة»[1].

وللشيخ شعر يسير متأثر بفكره ودعوته الإصلاحية، ولذا لم يعن فيه الشيخ بتحسين الألفاظ وتزويق العبارات بقدر ما عني فيه بالمعاني التي تحث على التمسك بالدين واللغة العربية، والثورة على الأعداء، بل لم يعن فيه كثيراً بالوزن، فجاءت بعض الأبيات غير موزونة. وهو أشبه بالأناشيد التي حرص الشيخ أن يحفظها الناشئة ويرددها، لتترسخ المعاني في نفوسهم. ومن ذلك أبياته التي يخاطب فيها الجزائريين وخاصة النشء:

شعب الجزائر مسلم
وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن اصله
أو قال مات فقد كذب
أو رام إدماجاً له
رام المحال من الطلب
يا نشء أنت رجاؤنا
وبك الصباح قد اقترب

(١) عن النصر أو الاستشهاد، مقال للشيخ عبد الرحمن شيبان، رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، موقع الإمام عبد الحميد ابن باديس.

خـــذ لـلـحـيـاة سـلاحـهـا
وخـض الخـطـوب ولاتَـهَـب

وأذق نـفـوس الـظـالمـيـ
ـن الـسـم يمـزج بـالـرَّهَـب

واخـلـع جـذور الخـائـنـيـ
ـن فـمـنـهـم كـل الـعَـطَـب

مـن كـان يـبـغـي ودنـا
فـعـلـى الـكـرامـة والـرَّحَـب

أو كـان يـبـغـي ذلـنـا
فـلـه المـهـانـة والحـرَب

هـذا لـكـم عـهـدي بـه
حـتـى أوسـد فـي الـتُّـرَب

فـإذا هـلـكـت فـصـيـحـتـي
تحـيـا الجـزائـر والـعَـرَب[1]

وقد صار هذا النشيد على ألسنة النشء يرددونه في لقاءاتهم الكشفية.

وفي نشيد آخر مشهور يقول:

اشـهـدي يـا سـمـا
واكـتـبْ يـا وجـود

(١) ينظر: آثار ابن باديس: ٤/ ٣٣٤.

إنـــــــنـــــــا لـــلـــحـــمـــى
سـنــــكــــون الجــــنـــــود
فـــنــــزيـــح الـــبَـــلاَ
ونـــفــــك الـــقـــيـــود
ونــــنـــيــــل الــــرضـــا
مــــن وفــــى بـــالـــعـــهـــود
ونــــذيــــق الـــــردى
كــــل عــــات كـــنـــود
ويــــــــــرى جـــيـــلـــنـــا
خـــافـــقـــات الـــبـــنـــود
ويــــــــــرى نجـــمـــنـــا
لـــلـــعـــلا فــــي صـــعـــود
هــــكـــــذا هــــكــــذا
هــــكـــــذا ســنـــعـــود
فـــاشـــهـــدي يـــا ســمـــا
واكـــتـــبن يــــا وجــــود
إنــــــنـــــا لــــلـــعـــلا
إنــــــنـــــا لــــلـــخـــلـــود

والشيخ بذلك يدرك أثر الأدب في التأثير على النفوس، وخاصة على النشء.

هذه جملة من الصفات التي تبرز في الشيخ - رحمه الله رحمة واسعة -، ولو عددنا كل صفاته لطال بنا الحديث، ولما أوفيناه ما يستحق.

وهي صفات يظهر فيها وضوح الشخصية والقوة في الحق والحماسة المتقدة والهمة العالية والعزم على العمل والتصميم عليه حتى النهاية بلا كلل ولا ملل مع المحافظة على الوقت وحسن التنظيم له، ما جعله شخصية آسرة وزعيماً قائداً مباركاً.

## المبحث الثالث
## المؤثرات في شخصيته

في الاحتفال الذي نظمه أصحاب الشيخ وتلاميذه بمناسبة ختمه لتفسير القرآن العظيم تحدث - رحمه الله - عن العوامل التي أثرت في تكوينه العلمي والإصلاحي، ونلحظ في حديثه التواضع والإنصاف ونكران الذات، قال: «أنا رجل أشعر بكل ما له أثر في حياتي، وبكل من له يد في تكويني، وإن الإنصاف الذي هو خير ما ربَّى عليه امرؤ نفسه ليدعوني أن أذكر في هذا الموقف التاريخي العظيم بالتمجيد والتكريم كل العناصر التي كان لها الأثر في تكويني؛ حتى تأخذ حظها مستوفى من كل ما أفرغتم على شخصي الضعيف من ثناء ومدح بالقول والفعل. فإني أشهد الله أنكم بالغتم في التحفي بي والتنويه بأعمالي.

وأشهد أن هذا التحفي عسير علي جزاؤه، ثقيل علي حمله، فلعلي إذا ذكرت هذه العناصر ووفيتها حقها من الاعتراف لها بالفضل توزعت حصصها من التنويه، وتقاضت حقوقها من الثناء الذي أثقلتم به كاهلي، فأكون بذلك قد أرضيت ضميري، وخففت عن نفسي.

أ - إن الفضل يرجع أولاً إلى والدي الذي رباني تربية صالحة، ووجهني وجهة صالحة، ورضي لي العلم طريقة أتبعها، ومشرباً أرده، وقاتني وأعاشني، وبراني كالسهم، وراشني، وحماني من المكاره صغيراً وكبيراً، وكفاني كلف الحياة، فلأشكرنه بلساني ولسانكم ما وسعني الشكر، ولأكل ما عجزت عنه من ذلك لله الذي لا يضيع جزاء العاملين.

ب - ثم لمشائخي الذين علموني العلم، وخطوا لي مناهج العمل في الحياة، ولم يبخسوا استعدادي حقه، وأذكر منهم رجلين لهما الأثر البليغ في تربيتي، وفي حياتي العملية، وهما اللذان تجاوزا بي حد التعلم المعهود من أمثالهما لأمثالي إلى التربية والتثقيف، والأخذ باليد إلى الغايات المثلى في الحياة. أحد الرجلين: الشيخ حمدان الونيسي القسنطيني، نزيل المدينة المنورة ودفينها، وثانيهما: الشيخ محمد النخلي القيرواني، المدرس بجامع الزيتونة المعمور - رحمهما الله -. وإني لأذكر للأول وصية أوصاني بها وعهداً عهد به إلي، وأذكر ذلك العهد في نفسي ومستقبلي وحياتي وتاريخي، فأجدني مديناً لهذا الرجل بمنة لا يقوم بها الشكر، فقد أوصاني وشدد علي ألَّا أقرب الوظيفة ولا أرضاها ما حييت، ولا أتخذ علمي مطية لها، كما كان يفعله أمثالي في ذلك الوقت.

وأذكر للثاني كلمة لا يقل أثرها في ناحيتي العلمية عن أثر تلك الوصية في ناحيتي العملية، وذلك أنني كنت متبرماً بأساليب المفسرين وإدخالهم لتأويلاتهم الجدلية واصطلاحاتهم المذهبية في كلام الله، ضيِّق الصدر من اختلافهم فيما لا اختلاف فيه من القرآن، وكانت على ذهني غشاوة من التقليد واحترام آراء الرجال حتى في دين الله وكتاب الله، فذاكرت يوماً الشيخ النخلي فيما أجده في نفسي من التبرم والقلق، فقال لي: اجعل ذهنك مصفاة لهذه الأساليب المعقدة، وهذه الأقوال المختلفة، وهذه

الآراء المضطربة، يُسقط الساقط، ويُبقي الصحيح، وتستريح. فو الله لقد فتح بهذه الكلمة القليلة عن ذهني آفاقاً واسعة لا عهد له بها.

ج - ثم لإخواني العلماء الأفاضل الذي وازروني في العمل من فجر النهضة إلى الآن، فمن حظ الجزائر السعيد، ومن مفاخرها التي تتيه بها على الأقطار أنه لم يجتمع في بلد من بلدان الإسلام فيما رأينا وسمعنا وقرأنا مجموعة من العلماء وافرة الحظ من العلم، مؤتلفة القصد والاتجاه، مخلصة النية، متينة العزائم، متحابة في الحق، مجتمعة القلوب على الإسلام والعربية، قد ألف بينها العلم والعمل، مثلما اجتمع للجزائر في علمائها الأبرار، فهؤلاء هم الذين وري بهم زنادي، وتأثل بطارفهم تلادي، أطال الله أعمارهم، ورفع أقدارهم.

د - ثم لهذه الأمة الكريمة المعاونة على الخير، المنطوية على أصول الكمال... هذه الأمة التي ما عملتُ يوماً - علم الله - لإرضائها لذاتها، وإنما عملتُ وما أزال أعمل لإرضاء الله بخدمة دينها ولغتها، ولكن الله سددها في الفهم، وأرشدها إلى صواب الرأي، فتبينت قصدي على وجهه، وأعمالي على حقيقتها، فأعانت ونشطت بأقوالها وأموالها، وبفلذات أكبادها، فكان لها بذلك كله من الفضل في تكويني العملي أضعاف ما كان لتلك العناصر في تكويني العلمي.

هـ - ثم الفضل أولاً وأخيراً لله.

و - ولكتابه الذي هدانا لفهمه، والتفقه في أسراره، والتأدب بآدابه، وإن القرآن الذي كوَّن رجال السلف لا يكثر عليه أن يكوِّن رجالاً في الخلف، لو أُحسن فهمه وتدبره، وحُملت الأنفس على منهاجه»[1].

---

(١) آثار ابن باديس: ٢/ ١٢٦-١٤٢.

ويذكر الشيخ أيضاً أن ممن أثروا في حياته العلمية والفكرية من شيوخه: الشيخ الطاهر بن عاشور، قال ابن باديس: «وإن أنس فلا أنسى دروساً قرأتها من ديوان الحماسة على الأستاذ ابن عاشور، وكانت من أول ما قرأت عليه، فقد حببتني في الأدب والتفقه في كلام العرب، وبثت فيَّ روحاً جديدة في فهم المنظوم والمنثور، وأحيت مني الشعور بعز العروبة والاعتزاز بها كما أعتز بالإسلام»[1]. وقال عنه وعن شيخه النخلي: «عرفت هذا الأستاذ - يعني: الطاهر بن عاشور- في جامع الزيتونة، وهو ثاني الرجلين اللذين يشار إليهما بالرسوخ في العلم، والتحقيق في النظر، والسمو والاتساع في التفكير. أولهما: العلامة الأستاذ شيخنا محمد النخلي القيرواني - رحمه الله -. وثانيهما: الأستاذ شيخنا الطاهر بن عاشور، وكانا كما يشار إليهما بالضلال والبدعة وما هو أكثر من ذلك، لأنهما كانا يحبذان آراء الأستاذ محمد عبده في الإصلاح ويناضلان عنها ويبثانها فيمن يقرأ عليهما. وكان هذا مما استطاع به الوسط الزيتوني أن يصرفني عنهما. وما تخلصت من تلك البيئة الجامدة واتصلت بهما حتى حصلت على شهادة (العالمية)، ووجدت لنفسي الاختيار، فاتصلت بهما عامين كاملين، كان لهما في حياتي العلمية أعظم الأثر، على أن الأستاذ ابن عاشور اتصلت به قبل نيل الشهادة بسنة، فكان ذلك تمهيداً لاتصالي الوثيق بالأستاذ النخلي»[2].

ولشيخه المؤرخ الأستاذ البشير صفر أحد دعاة الإصلاح في تونس أثر فيه، كما قال الشيخ: «وأنا شخصياً أصرح بأن كراريس البشير صفر الصغيرة الحجم الغزيرة العلم، هي التي كان لها الفضل في اطلاعي على تاريخ أمتي وقومي، والتي زرعت

(١) المرجع السابق: ٣/ ٧٥.
(٢) المرجع السابق: ٣/ ٧٤ - ٧٥.

في صدري هذه الروح التي انتهت بي اليوم لأن أكون جندياً من جنود الجزائر»[1].

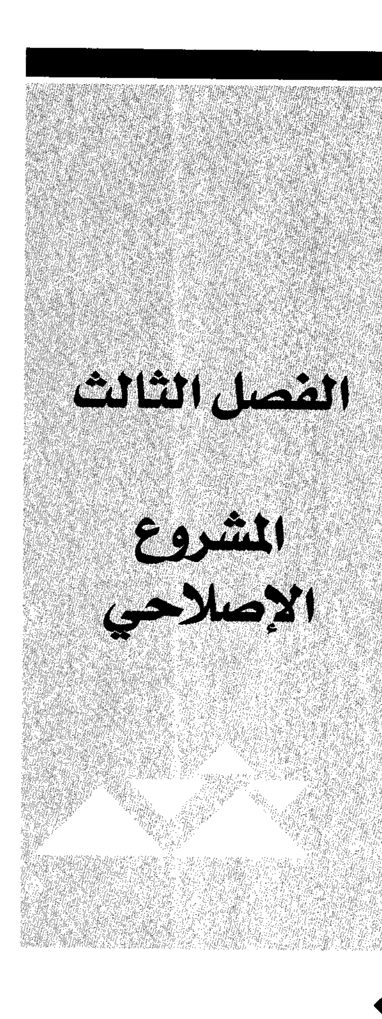
وللشيخ رشيد رضا تأثير كبير فيه، وكان ابن باديس شغوفاً بقراءة مجلته (المنار) كما سبق ذكره، وكتب ترجمة له بعد وفاته في (الشهاب) وكان مما قاله عنه: «إن السيد رشيد بما نشر من تفسير القرآن الحكيم على صفحات المنار، وما كتب في المنار وغير المنار، هو الذي جلَّى الإسلام بصفاته الحقيقية، للمسلمين وغير المسلمين، وهو الذي لفت المسلمين إلى هداية القرآن، وهو الذي دحر خصوم الإسلام من المنتمين إليه وغير المنتمين إليه، وهتك أستارهم، حتى صاروا لا يحرك أحد منهم أو من أشباههم يده إلا أخذ بجنايته. فهذه الحركة الدينية الإسلامية الكبرى اليوم في العالم إصلاحاً وهداية، بياناً ودفاعاً، كلها من آثاره»[2].

وثمة مؤثرات أخرى في تكوين الشيخ سواء أكانوا من شيوخه الذين تتلمذ عليهم ممن لم يذكرهم، أم الرحلات إلى بلاد المشرق الإسلامي التي اطلع فيها على التجارب الإصلاحية السلفية وغيرها، أم المقروءات التي تأتي من المشرق كتباً أو صحفاً، وخاصة من مصر، أو الواقع بكل أبعاده ومواقفه الذي يدفع مثل الشيخ إلى الدعوة والإصلاح، وغيرها من المؤثرات الصغيرة والكبيرة.

(١) آثار ابن باديس: ٤/ ٣٢٧.

(٢) المرجع السابق: ٤/ ٢٠٩.






وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: مجالات الإصلاح.

والمبحث الثاني: وسائل الإصلاح.

المبحث الثالث: جوانب النجاح وعوامله.



## المبحث الأول
## مجالات الإصلاح

في ظل ذلك الواقع الجزائري فإن المشروع الإصلاحي الذي خطط له الشيخ ابن باديس مع إخوانه العلماء وفي مقدمتهم البشير الإبراهيمي يسعى لتحقيق هدفين عظيمين :

**الأول:** استقلال الجزائر وتطهيرها من الاحتلال .

**الثاني:** إصلاح المجتمع الجزائري .

ومع أن الاحتلال كان سببا مهماً ومباشراً في تردي أحوال المجتمع ، إلا أن جهاده وتطهير البلاد منه لايمكن أن يتحقق إلا حيثما ينفض المجتمع عنه غبار البدعة والجهل ، ويحل عنه أغلال التقليد والكسل ، وينظر إلى الاحتلال نظرة الند للند ، لانظرة الضعيف المهزوم ، بإيمان عميق ، ووعي دقيق ، ومنهاج قويم ، وتفكير سليم ، وقناعة راسخة بأهمية المجاهدة .

ولذا كان من الطبعي أن يبدأ المشروع بتحقيق الهدف الثاني؛ لا لأنه الأسهل، وليس بسهل؛ بل لأنه لاسبيل إلى الأول إلا به، فضلاً عن كونه يظهر على أنه إصلاح ديني داخلي يقوم به علماء لا علاقة لهم بالسياسة، مما يعطي انطباعاً لدى المحتل بأن الدعوة «دينية بحتة لتنقية الإسلام من البدع، ولا دخل لها بمحاربة فرنسا»[1].

ويروي محمد الصالح رمضان - تلميذ الشيخ ابن باديس- للدكتور مازن مطبقاني أن بعض شبان الحركة الوطنية جاؤوا إلى الشيخ، وقالوا له: أنت شخصية كبيرة، فلماذا لاتدعو إلى الاستقلال، وأنت مسموع الكلمة؟ فقال لهم: ياأبنائي، من أراد أن يبني منزلاً، هل يبدأ بالسقف؟ قالوا: لا. قال: فبماذا إذن؟ قالوا: بالأساس والجدران. قال: هذا ماأفعله، الآن نبني الأساس والجدران، ثم نبني السقف[2].

والبدء بتطهير النفوس وإصلاحها منهج شرعي للتغيير كما قال الله - سبحانه وتعالى -: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

والإصلاح الذي ينشده الشيخ ويسعى إلى تحقيقه إنما يكون في صلاح المسلمين، متمثلاً في «صحة العقيدة، واستنارة الفكر، وطهارة النفس، وكمال الخلق، واستقامة العمل، وهذا هو الإصلاح كله» كما قال ابن باديس[3]، وقال: «صلاح المسلمين إنما هو بفقههم الإسلام وعملهم به»[4].

---

(١) دروب النهضة: ١٠١، وينظر: آثار الإمام البشير الإبراهيمي: ٥/ ٢٨٢.
(٢) عبد الحميد ابن باديس: العالم الرباني: ٩٢.
(٣) آثار ابن باديس: ٤/ ٣٥٨.
(٤) المرجع السابق: ٣/ ٢١٧.

إذاً، ليس الإصلاح الذي يقوم به الشيخ قائماً على مبادئ بشرية أرضية، سياسية أو غيرها، ينافح عنها أحزاب سياسية، لاهم لها إلا مصالحها، ومصالح رجالها ونوابها. إنما هو قائم على مبادئ الإسلام، بل الإسلام الذي على منهج السلف الصالح، وكانت هذه المرجعية للإصلاح واضحة عند الشيخ، ومن معه، ويعلنها، ويربي عليها، كما قال: «لانجاة للعالم مما هو فيه إلا بإصلاح عام على مبادئ الإسلام»[1]، وقال: «من مبدئنا في الإصلاح الديني من ناحية العقائد، والأخلاق، والأفكار، والأعمال، تصحيحاً وتهذيباً وتنويراً وتقويماً. كل ذلك في دائرة الإسلام كما نزل به القرآن، وبينته السنة، ومضى عليه- علماً وعملاً- السلف الصالح من هذه الأمة»[2].

والبيئة التي يسعى الشيخ إلى إصلاحها يفقه واقعها ويعي أحوالها بدقة وشمولية، ولعل النص الآتي مع إيجازه يبين تصور ابن باديس الدقيق والشامل لما آل إليه الحال في الجزائر، قال: «انحطاط في الخلق، وفساد في العقيدة، وجمود في الفكر، وقعود عن العمل، وانحلال في الوحدة، وتعاكس في الوجهة، وافتراق في السير. حتى خارت النفوس القوية، وفترت العزائم المتقدة، وماتت الهمم الوثابة، ودفنت الآمال في صدور الرجال، واستولى القنوط القاتل واليأس المميت، فأحاطت بنا الويلات من كل جهة، وانصبت علينا المصائب من كل جانب»[3]. وأما فقهه ووعيه لتفاصيل الحال وأحداثها فإنك واجده بوضوح في مقالاته ومحاضراته وبياناته.

---

(١) آثار ابن باديس: ٣/ ٥٥٠.
(٢) المرجع السابق: ٤/ ٣٦١.
(٣) المرجع السابق: ٣/ ٢٤.

ومجالات الإصلاح في ذلك الواقع متنوعة ولا يحصرها مجال واحد، كما تبيناه من خلال عرض واقع الإصلاح. وفي أقوال الشيخ السابقة نجده يؤكد على أربعة مجالات رئيسة: (العقائد، والأخلاق، والأفكار، والأعمال) تصحيحاً، وتهذيباً، وتنويراً، وتقويماً.

وسنذكر جملة من المجالات بصورة أكثر تفصيلاً، وإن كانت تؤول إلى هذه الأربعة، وربما ذكرت في كل مجال بعض الوسائل التي اتبعها الشيخ في إصلاحه، مع أننا سنتحدث لاحقاً عن الوسائل الكبرى للإصلاح، التي تشمل هذه المجالات جميعاً.

### المجال الأول/ العقيدة:

وفي العناية بإصلاح هذا المجال قال الشيخ: «الذي نوجه إليه الاهتمام الأعظم في تربية أنفسنا وتربية غيرنا هو تصحيح العقائد وتقويم الأخلاق؛ فالباطن أساس الظاهر»[1].

وفي هذا المجال تبرز في الواقع ثلاث قضايا متلازمة:

- الأولى: الخلل في منهج تلقي الوحيين، والانحراف عن مرجعيتهما.
- والثانية: البدع والخرافات.
- والثالثة: سوء تعليم العقيدة.

أما الثالثة فسأرجئها حين الحديث عن مجال التعليم.

(١) آثار ابن باديس: ١/ ٣٣٩.

وأما القضية الثانية فمنشؤها ابتداءً من القضية الأولى، لكنّ لها انتشاراً عظيماً، وصارت ضاربة في الأرض، وكان لها آثار سلبية في الواقع على جوانب أخرى، مما استوجبت على الشيخ أن يعطيها اهتماماً كبيراً في الإصلاح العقدي مع اهتمامه أيضاً بالأولى.

أما القضية الأولى (الخلل في تلقي الوحيين، والانحراف عن مرجعيتهما في الأحكام والعبادات) فإن الأهواء والبدع مادخلت على المسلمين إلا من الخلل في الرجوع إلى الكتاب والسنة وفي منهج التلقي لهما، سواء أكان في الاعتقاد أم السلوك أم الأعمال. وماتميز السلف الصالح أهل السنة والجماعة عن غيرهم بسلامة الطريقة وصحة المسلك إلا بمنهج التلقي في عقائدهم وتصوراتهم وسلوكهم وأعمالهم وعلومهم، وكان هذا المنهج عصمة لهم من الوقوع في الاهواء والابتداع في الدين.

ويتلخص منهج السلف في تلقي العقيدة بما يأتي:

١ - مصادر العقيدة هي: كتاب اللّه عز وجل، وسنة رسوله ﷺ، وإجماع السلف الصالح من الصحابة والتابعين أهل القرون المفضلة.

٢ - يؤمنون بجميع نصوص الكتاب، ونصوص السنة الصحيحة، ولو كانت من أخبار الآحاد، فهي حجة في العقائد كما هي حجة في الأحكام.

٣ - يؤمنون بأن النصوص النقلية من الكتاب والسنة تستقل بإثبات العقائد.

٤ - يرون أن الصحابة أعلم الناس بعد رسول اللّه ﷺ بالعقيدة، لذلك فأقوالهم وتفاسيرهم للنصوص حجة؛ لأنهم - رضي الله عنهم - قد اكتمل فيهم الفهم

والمعرفة لأصول الدين التي دل عليها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ولهذا قال الرسول ﷺ في بيان الفرقة الناجية: «مَا أَنا عَلَيه وَأَصحَابي»[1]، وقال: «عَليكُم بِسُنّتي وسُنّةِ الخلفاءِ الراشدينَ المَهديينَ»[2].

٥ - لم يكونوا يتلقون النصوص الشرعية ومعهم مقررات وأصول عقلية يحاكمون النصوص إليها، بخلاف المبتدعة الذين وضعوا أصولاً عقلية، ثم نظروا في النصوص الشرعية، فما وافق تلك الأصول أخذوا به، وماخالفها أوّلوه أو ردوه بأية حجة.

٦ - لا يرون تعارضاً بين النقل الصحيح والعقل الصريح. وعند توهم التعارض يوجبون تقديم الشرع على العقل.

٧ - الأصل في نصوص الكتاب والسنة أنهم يجرونها على ظاهرها، دون تعرض لها بتحريف أو تعطيل ونحوهما، واعتقاد أن ظاهرها يطابق مراد المتكلم بها، خاصة ما يتعلق منها بأصول الدين والإيمان؛ إذ لامجال للرأي فيها، وهذا يدل على وجوب فهمه على ما يقتضيه ظاهره باللسان العربي إلا أن يمنع منه دليل شرعي.

٨ - يتلقون العقيدة عن أئمة أهل السنة والجماعة، كما تلقاها الأئمة عن أئمتهم إلى سلف الأمة من التابعين والصحابة - رضي الله عنهم - عن رسول الله ﷺ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ولهذا تجد المعتزلة، والمرجئة، والرافضة، وغيرهم

(١) أخرجه بهذا اللفظ الترمذي: برقم (٢٦٤١)، وحسنه الترمذي، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي: ٣/ ٥٤.

(٢) أخرجه أحمد: (٢٨/ ٣٧٣)، وأبو داوود: برقم (٤٦٠٧)، والترمذي: برقم (٢٦٧٦) وصححه، وصححه أيضاً الهروي، والبزار، وابن عبد البر، والحالكم، والضياء المقدسي، والألباني، وينظر: إرواء الغليل: ٨/ ١٠٧.

من أهل البدع، يفسرون القرآن برأيهم ومعقولهم وماتأولوه من اللغة، ولهذا تجدهم لايعتمدون على أحاديث النبي ﷺ والصحابة والتابعين وأئمة المسلمين، فلا يعتمدون لا على السنة ولا على إجماع السلف وآثارهم، وإنما يعتمدون على العقل واللغة، وتجدهم لايعتمدون على كتب التفسير المأثورة والحديث وآثار السلف، وإنما يأخذون مافي كتب الفلسفة وكتب الأدب واللغة، وأما كتب القرآن والحديث والآثار فلا يلتفتون إليها، هؤلاء يعرضون عن نصوص الأنبياء إذ هي عندهم لاتفيد العلم، وأولئك يتأولون القرآن برأيهم وفهمهم بلا آثار عن النبي ﷺ وأصحابه، وقد ذكرنا كلام أحمد وغيره في إنكار هذا وجعله طريقة أهل البدع»[1].

ولما كانت بلاد الجزائر تنتشر فيها العقائد الأشعرية والصوفية وغيرها كما تبين في الحديث عن الواقع العقدي، فإنها وقعت في خلل عريض في منهج تلقي العقيدة، وكانت المصادر الكلامية والصوفية هي الغالبة والحاكمة في تعبد الناس، وفي تقرير العقيدة في مجالس العلم ودروسه ومؤلفاته، بعيداً عن منهج القرآن والسنة والسلف الصالح.

ولقد أدرك الشيخ - رحمه الله - هذا الخلل العظيم، ورأى أن إصلاحه من الأولويات، فسعى في بيان الحق في تلقي العقيدة وتعلمها، وصار يعلم العقيدة من القرآن والسنة، ويقرر أن «أدلة العقائد مبسوطة كلها في القرآن العظيم بغاية البيان ونهاية التيسير». وأن «الوحي هو المرجع الوحيد لبيان دين الله تعالى وشرعه، وما أنزله لعباده من الحكمة، وذلك الوحي هو: القرآن العظيم، وسنة النبي ﷺ، الذي أرسل ليبين للناس ما نزل إليهم»، و «لا نعتمد في إثبات العقائد والأحكام على ما ينسب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم من الحديث الضعيف»، ولزوم فهم الدين

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٧/ ١١٩.

بفهم الكتاب والسنة وكلام السلف الصالح من الأئمة وفهم كلام العرب وأساليب العربية»، و «الدواء الذي يقلل من الاختلاف ويعصم من الافتراق هو تحكيم الصريح من كتاب الله والصحيح من سنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم»، والمرجع في الاختلاف حول البدع: ماكان عليه النبي ﷺ وأصحابه، و«من لانرى له عناية بكتب السنة فإننا لانثق بعلمه في الدين»، و «كل من اخترع وابتدع في الدين مالم يعرفه السلف الصالح فهو ساقط عن رتبة الإمامة فيه»، وكان ينادي: «أيها المسلمون، تثبتوا في الحقائق الشرعية، واطلبوا تفسيرها من صاحب الشريعة، أو ممن قرب زمنه من زمنه. ولاتعتمدوا في فهم حقائق دينكم على عرفكم وعادتكم، فإن الجهل بالسنة وخروج أمر العامة من يد العاملين بها مما ابتليت به الأمة الإسلامية قديماً»[1].

وأما القضية الثانية (البدع والخرافات) فإنها انتشرت وسيطرت على عقول الناس، فأسرتهم، وغلغلت بتفكيرهم، وجعلتهم يقعدون عن السعي والعمل، ويركنون إلى التواكل والكسل، وصاروا تابعين للرجال لا مستمسكين بالحق، بسبب العقائد الفاسدة التي روّج لها التصوف والإرجاء، ورَبّى عليها أصحابهما تلاميذهم، حتى خارت الهمم، وماتت النفوس وخبت روح الجهاد والعمل. ثم صارت الطرق الصوفية والأفكار الإرجائية وسيلة مهمة للاحتلال لاتقل أهمية عن الوسائل العسكرية؛ لأن الخطر ليس في الأبدان، ولكن في القلوب التي تنبعث منها الروح، فتحمل الأبدان.

لقد أدرك الشيخ - رحمه الله - بنظره الثاقب ووعيه العميق هذا الخطر العظيم، فأبلى فيه بلاء عظيماً، فكان يقرر العقيدة الحقة، ويحارب البدع، ويرد على المبتدعة

(١) ينظر في هذه الأقوال والتقريرات حسب ترتيبها: آثار ابن باديس: ١/ ٢٧٣، ٢٨٠، ٢٨٣، ٤/ ٣٢٠، ٣١١، ٢٤٣، ٣٠٩، ١/ ٤٩٦، ٢/ ٣١٨.

ومقالاتهم في الصحف وبرسائل، قال رحمه الله: «حاربنا الطرقية لما عرفنا فيها - علم الله - من بلاء على الأمة من الداخل ومن الخارج، فعملنا على كشفها وهدمها مهما تحملنا في ذلك من صعاب، وقد بلغنا غايتنا والحمد لله، وقد عزمنا أن نترك أمرها للأمة، هي التي تتولى القضاء عليها، ثم نمد يدنا لمن كان على بقية من نسبته إليها، لنعمل معاً في ميادين الحياة، على شريطة واحدة، وهي: ألَّا يكونوا آلة مسخرة في يد نواح اعتادت تسخيرهم، فكل طرقي مستقل في نفسه عن التسخير فنحن نمد يدنا له للعمل في الصالح العام. . . »[1].

ومما كتبه - رحمه الله - في إنكار البدع رده على من أجاز الاستغاثة بغير الله[2]، ورده على الصوفية الذين يرون أن أكمل أحوال العابد أن يعبد الله لاطمعاً في ثوابه ولاخوفاً من عقابه[3]، ورده على محمد فريد وجدي، فيما ذكره في كتابه (الإسلام دين علم خالد) من عبارات حلولية[4]، وكتب رسالة (جواب سؤال عن سوء مقال) في الرد على من أساء الأدب مع النبي ﷺ من المتصوفة، وقرضها عدد من أهل العلم، منهم شيخه النخلي، وابن عاشور، ومفتي قسنطينة ابن الموهوب، وغيرهم[5]، وكتب في إنكار العلماء المتقدمين على الصوفية[6]، وكتب في الرد على الفرقة الصوفية التيجانية، وصرح أنها موضوعة ضد الإسلام باسم الإسلام، وأنها

(١) آثار ابن باديس: ٤/ ٣٦٩.
(٢) المرجع السابق: ٣/ ٣٣-٣٨.
(٣) المرجع السابق: ١/ ٤٤٥ و٤٤٧-٤٦٤.
(٤) المرجع السابق: ٣/ ٥١.
(٥) المرجع السابق: ٣/ ١٥٢-١٧٤.
(٦) المرجع السابق: ٣/ ٤٢-٤٧.

كمسجد الضرار[1]، ونبه إلى خطر القاديانية، وقال: «قد كادت هذه القاديانية تدخل الجزائر على يد طائفة الحلول وشيخها، لولا أن قام في وجوههم العلماء المصلحون، وفضحوهم على صفحات (الشهاب)... فرد الله كيدهم، ووقى الله الجزائر شرّاً عظيماً[2]»، وغير ذلك من الردود.

وكان في تقرير مسائل العقيدة والرد على المخالفين يحرص على ذكر قول مالك والمالكية، لكون المذهب السائد في البلاد هو المذهب المالكي، فيكون لقول أئمة المالكية وقع أقوى من غيرهم، ومن ذلك قوله بعد أن ذكر بعض أحاديث النهي عن اتخاذ القبور مساجد: «وإننا بعد أن نفرغ من نقل متون هذه الأحاديث الصحيحة الصريحة نأتي بكلام الأئمة من شراحها عليها، ثم بكلام الأئمة من فقهائنا المالكية»[3].

ولما اتهم ابن غراب - أحد النواب - عام (١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م) بأن الجمعية تنشر المذهب الوهابي، ونحن مالكيون، كتب الشيخ ردّاً عليه، وكان مما قال: «من ينازع في هذا! وما يُقرِئ علماء الجمعية إلا فقه مالك. وياليت الناس كانوا مالكية حقيقة: إذاً لطرحوا كل بدعة وضلالة، فقد كان مالك - رحمه الله - كثيراً ماينشد:

**وخير أمور الدين ما كان سنة**

**وشر الأمور المحدثات البدائع»[4].**

---

(١) المرجع السابق: ٣/ ١٤٢-١٥١.
(٢) المرجع السابق: ٢/ ٢٣٩.
(٣) آثار ابن باديس: ٢/ ٢٥٣.
(٤) المرجع السابق: ٣/ ٢٩٢.

وقد سلك الشيخ وسائل عديدة لإصلاح الجانب العقدي، من أهمها: ربط الناس بالمصادر الإصلية لتلقي العقيدة: القرآن والسنة، وربطهم بحياة السلف، وتعليم الجيل العقيدة السلفية من القرآن والسنة، وتربيتهم على منهاجها، والرد على الطرقيين تأليفاً، وكتابة في الصحف والمجلات، ومناصحتهم، وحثهم على المشاركة في الإصلاح، وعلى إرسال مريديهم للتعلم على العلماء.

**المجال الثاني/ التعليم:**

ثمة مشكلات تعليمية من جهات متعددة، حيث لايوجد مدارس نظامية يتعلم فيها النشء دينهم ولغتهم العربية ومقومات حياتهم، بعد أن أغلق الاحتلال المدارس العربية، وفتح بدلاً منها مدارسة فرنسية تحقق أهدافه، إلا كتاتيب تفتح بإذن من الاحتلال، لايتجاوز فيها المعلم مجرد تحفيظ القرآن الكريم للطلاب الصغار، أو زوايا الطرقيين التي تربي على ضعف الهمة والقعود عن العمل. أو مساجد خاضعة للاحتلال، تأذن للتدريس فيها لمن تريد وتمنع من لاتريد، يقوم فيها غالب الشيوخ بعد الإذن من الاحتلال بتدريس العلوم الشرعية بطريقة تقليدية.

وكان مما يشكو منه الشيخ ويأسى له هجر القرآن والسنة في التعليم، وخاصة في تعليم العقيدة، وادعاء أن تلك النصوص الربانية أدلة سمعية، لايحصل بها اليقين، فتُستبدل بها في تقرير العقيدة وتعليمها «الطرائق الكلامية المعقدة، وإشكالاتها المتعددة، واصطلاحاتها المحدثة، مما يصعب أمره على الطلبة فضلاً عن العامة»[1]، ويقرر أن «أدلة العقائد مبسوطة كلها في القرآن العظيم بغاية البيان ونهاية التيسير . . .

---

(١) المرجع السابق: ١/ ٤٠٧.

فحق على أهل العلم أن يقوموا بتعليم العامة لعقائدهم الدينية وأدلة تلك العقائد من القرآن العظيم . . . أما الإعراض عن أدلة القرآن والذهاب مع أدلة المتكلمين الصعبة ذات العبارات الاصطلاحية فإنه من الهجر لكتاب الله، وتصعيب طريق العلم إلى عباده وهم في أشد الحاجة إليه . وقد كان من نتيجة هذا مانراه اليوم في عامة المسلمين من الجهل بعقائد الإسلام وحقائقه»[1] .

كما يشكو من هجر القرآن والسنة في تعليم الفقه، والاقتصار على الفروع العلمية المنتشرة دون استدلال[2]، ويدعو إلى بناء التعليم على التفقه في القرآن والسنة[3] .

كما يأسى لطريقة التعليم القائمة لعلوم الدين واللسان، التي يغلب عليها الجمود التام، وترسيخ التقليد، ولا تربي في الطلبة ملكة التعلم، والقدر على التفكير وإعمال العقل والنظر الصحيح .

ويرى أن من الخطأ الانصراف عن تعليم العلوم غير الشرعية واللغوية، من علوم الأكوان والعمران، ولو كانت تؤخذ باللسان الأجنبي[4] .

ويؤكد على أهمية التطبيق العملي لقواعد العلوم، خلافاً لطريقة التعليم المعمول بها في وقته، قال في فنون اللغة : «نرى أن يشتمل منهاج التعليم المشترك على اللغة والنحو والصرف والبيان، بتطبيق قواعد هذه الفنون على الكلام الفصيح : لتحصل الملكة . وأما قراءتها بلا تطبيق - كما الجاري به العمل اليوم - فهو تضييع وتعطيل وقلة تحصيل»[5] .

---

(١) آثار ابن باديس: ١/ ٢٧٢.
(٢) المرجع السابق: ٣/ ٢١٩، ٢٢٠.
(٣) المرجع السابق: ٣/ ٢١٧.
(٤) المرجع السابق: ٤/ ٣٣٢.
(٥) المرجع السابق: ١/ ١٨٢.

إن مشكلات التعليم لاتقل خطورة عن فساد العقيدة؛ لأن التعليم السليم هو المنبع الأهم لغرس العقيدة الصحيحة، والعمل بمقتضاها، والمحافظة عليها، ونشرها، والدفاع عنها، ووسيلة مهمة لتكوين نخبة مصلحة من العلماء.

وهذا الذي جعل الشيخ يرى أن «صلاح التعليم أساس الإصلاح»، وهذه الكلمة هي عنوان مقالة له قال فيها: «لن يصلح المسلمون حتى يصلح علماؤهم... ولن يصلح العلماء إلا إذا صلح تعليمهم... ونعني بالتعليم: التعليم الذي يكون به المسلم عالماً من علماء الإسلام، يأخذ عنه الناس دينهم، ويقتدون به فيه، ولن يصلح هذا التعليم إلا اذا رجعنا به للتعليم النبوي، في شكله وموضوعه، في مادته وصورته... فقد صح عنه صلى الله عليه وآله وسلم فيما رواه مسلم أنه قال: (إنّما بُعثتُ مُعَلِّماً)[1]»[2]. ويرى أيضاً أن التعليم الذي ينشده للأمة هو «التعليم الذي ينشر فيها الحياة، ويبعثها على العمل، ويسمو بشخصيتها في سلم الرقي الإنساني، ويظهر كيانها بين الأمم»[3].

ويؤكد كثيراً على أهمية التعليم والتعلم الذي يرتقي بالفكر، ويدعو إلى التفكير وإعمال العقل.

ومما يحسب للشيخ أنه لم يجعل العقل حاكماً على كل شيء، ومعياراً للتحسين والتقبيح في كل شيء، ولذا نبه إلى أن العقل له حدٌّ يقف عنده وينتهي إليه، وحذر من خطر الإعجاب به «حتى يحسب أنه محيط بالحقائق كلها، وأن مدركاتها يقينيات بأسرها، فيؤديه حسبانه الأول إلى الفتنة بالمدركات، فيحسب أن لا شيء بعدها، فقد

---

(١) أخرجه مسلم: برقم (١٤٧٨).

(٢) آثار ابن باديس: ٣/ ٢١٧.

(٣) المرجع السابق: ٤/ ٣٥٩.

يخرج إلى إنكار خالقها. فيؤديه حسبانه الأول إلى الفتنة بالمدركات، فيحسب أن لا شيء بعدها، فقد يخرج إلى إنكار خالقها. ويؤديه حسبانه الثاني إلى الذهاب في ظنونه وأوهامه وفرضياته إلى غايات لانسب بين اليقين وبينها»[1]. وبيّن حدود عمل العقل في خلق الله وقدره وشرعه وكلامه، بكلام تام، انقل منه لو طال، قال: «ليذكر الناظر في خلق الله وقدره وشرعه وكلامه دائماً هذه الحقيقة، وهي: ثبوت الحق والحكمة والنعمة في جميعها، وإمكان عجز عقله في بعض المواضع والأحوال عن إدراكها.

فيكون عمله في (خلق الله) هو النظر والبحث والتعليل والاكتشاف واستجلاء الحقائق الكونية واستخراج الفوائد العلمية والعملية إلى أقصى حد توصله إليه معلوماته وآلاته، حتى إذا انتهى إلى مشكل استغلق عليه اعترف بعجزه، ولم يرتكب من الأوهام والفروض البعيدة مايكسو الحقيقة ظلمة، ويوقع الباحث من بعده في ضلالة أو حيرة، فكثيراً ماكانت الفروض الوهمية الموضوعة موضع اليقينيات سبباً في صد العقول عن النظر، وطول أمد الخطأ والجهل.

ويكون عمله في (قدر الله) هو الاعتبار في تصاريف القدر، والاتعاظ بأحوال البشر، واستحصال قواعد الحياة من سيرة الحياة، فإذا رأى من تصاريف القدر ما لم يعرف وجهه ولم يتبين له مافيه من عدل وحكمة وإحسان ورحمة، فليذكر عجزه... وأنه إذا طالت به الأيام قد يظهر له من وجه ماخفي منه، فيتلقاه الآن بالتسليم والتنزيه، رادّاً علمه إلى الله تعالى، مفوضاً أمره إليه.

ويكون عمله في (شرع الله) هو الفهم لنصوص الآيات والأحاديث ومقاصد الشرع وكلام أئمة السلف، وتحصيل الأحكام وحِكمها، والعقائد وأدلتها، والآداب

---

(١) آثار ابن باديس: ٢/ ٥٣.

وفوائدها، والمفاسد وأضرارها، حتى إذا بلغ إلى حكم لم يعرف حكمته وقضاء لم يدر علته ذكر عجزه، فوقف عنده، فلم يكن من المرتابين ولا من المتكلفين. . .

ويكون عمله في (كتاب الله) هو التفهم والتدبر لآياته، والتفطن لتنبيهاته ووجوه دلالته، واستثارة علومه من منطوقه ومفهومه، على مادلت عليه لغة العرب في منظومها ومنثورها، وماجاء من التفاسير المأثورة، ومانقل من فهوم الأئمة الموثوق بعلمهم وأمانتهم، المشهود لهم بذلك من أمثالهم. . . »[1].

وقد استطاع الشيخ ثم جمعية العلماء الجزائريين برئاسته أن يحققا نجاحاً باهراً في مجال التعليم، سيأتي الحديث عنه في وسائل الإصلاح.

ولم يكن اهتمام الشيخ بإصلاح التعليم مقتصراً على الجزائر؛ بل تعداه إلى غيره، حيث شارك سنة (١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م) في محاولة إصلاح التعليم في جامع الزيتونة بتونس، وبعث بمقترحاته إلى اللجنة المكلفة بوضع مناهج الإصلاح، وتضمن اقتراحه خلاصة آرائه في التربية والتعليم، فشمل المقررات التي يجب أن يدرسها الملتحق بالجامع، من اللغة والنحو والصرف والبلاغة والأدب، والعقيدة، والفقه وأصوله، والتفسير، والحديث، والأخلاق، والتاريخ، والجغرافيا، ومبادئ الطبيعة والفلك، والهندسة.

وجعل الدراسة في الزيتونة تتم على مرحلتين: الأولى تسمى قسم المشاركة، وتستغرق الدراسة فيه ثماني سنوات، وقسم التخصص ومدته سنتان، ويضم ثلاثة أفرع: فرع للقضاء والفتوى، وفرع للخطابة والوعظ، وفرع لتخريج الأساتذة[2].

---

(١) المرجع السابق: ٢/ ٥٥-٥٦.

(٢) آثار ابن باديس: ١/ ١٨٠-١٨٣.

**المجال الثالث/ الدعوة:**

من المجالات المهمة التي صرف الشيخ لها عنايته: مجال الدعوة إلى الله: قياماً بها، وثباتاً عليها، واتباعاً للمنهج الصحيح في تبليغها.

وكثيراً ماكان الشيخ يحث أهل العلم على القيام بالدعوة إلى الله وتبليغ العلم، مع تحمل الأذى، ويذكرهم بأمانة العلم عندهم، ويحذرهم من القعود والكتمان[1]، كما ستأتي الإشارة إلى ذلك في الحديث عن مجال العلماء.

وكان يربي طلابه على الدعوة إلى الله، ويحثهم على ذلك، وأن ينشروا بين الناس ما تعلموه من العلم.

وفي صفحات (الشهاب) كان الشيخ - رحمه الله - يحث الناس عامة على ذلك، ويرغبهم فيه، ولما شرح حديث النهي عن قول (ما شاء الله وشئت) قال: «على من عرف هذا الحديث النبوي أن يعمل به في نفسه، وأن ينشره بين الناس، وأن يعالجهم به، بتفهيمهم فيه، وتحذيرهم من مغبة مخالفته والإصرار على معاندته، ولأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم. فإلى التوحيد أيها المسلمون، وإلى الإرشاد أيها العالمون، والله مع الصابرين»[2]. وفعل مثل ذلك في حديث النهي عن اتخاذ القبور مساجد[3]، وفي حديث النهي عن البناء على القبور[4]، وفي حديث لعن من اتخذ القبور مساجد[5].

(١) المرجع السابق: ٢/ ٣١١.
(٢) المرجع السابق: ٢/ ٢٤٥.
(٣) المرجع السابق: ٢/ ٢٤٨.
(٤) المرجع السابق: ٢/ ٢٥٠.
(٥) المرجع السابق: ٢/ ٢٥١.

وفي دروس التفسير كان يؤكد على ذلك كلما مرت به آية تتضمن أهمية الدعوة، وحينما فسر قول الله تعالى على لسان النملة: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨] أكد الشيخ على العبر المستخلصة من موقف هذه النملة، التي أدركت الخطر على نفسها وقومها فبادرت إلى الإنذار، قال الشيخ مبيناً عظة بالغة في هذا الموقف: «هذه نملة وفت لقومها، وأدت نحوهم واجبها، فكيف بالإنسان العاقل فيما يجب عليه نحو قومه. هذه عظة بالغة لمن لايهتم بأمور قومه، ولا يؤدي الواجب نحوهم، ولمن يرى الخطر داهماً لقومه فيسكت ويتعامى، ولمن يقود الخطر إليهم ويصبه بيده عليهم. آه، ما أحوجنا - معشر المسلمين - إلى أمثال هذه النملة»[١].

وفي إصلاح الخطاب الدعوي القائم فقد حث الشيخ الأئمة والدعاة والخطباء على مراعاة مقتضى الحال في خطبهم ووعظهم وتذكيرهم، وقال: «ولقد كانت الخطب النبوية والخطب السلفية كلها على هذا المنوال، تشتمل مع الوعظ والتذكير على مايقتضيه الحال»[٢]. ونقد أكثر خطباء الجمعة في الجزائر الذين يخطبون بخطب قديمة معقدة مسجعة طويلة، لايراعى فيها شيء من أحوال الحاضر وأمراض السامعين، وعدَّ ذلك حالاً بدعية في شعيرة من شعائر الإسلام، ومظهراً من مظاهر القصور والجمود[٣].

---

(١) آثار ابن باديس: ٢/ ٢٨-٢٩.
(٢) المرجع السابق: ١/ ٤١٨.
(٣) المرجع السابق: ١/ ١٨٨، ٤١٨.

ومن أكثر ماكان يؤكد عليه في إصلاح الخطاب الدعوي أن تكون الدعوة بالقرآن والحديث[1]، قال: «التذكير بآيات القرآن والأحاديث النبوية هذا هو التذكير المشروع المتبوع، والدواء الناجع المجرب، ولذلك تجد مواعظ السلف كلها مبنية عليه راجعة إليه، والنصح لله ولرسوله وللمسلمين في لزوم ذلك والسير عليه»[2].

وقال عند قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]: «هذه الآية نص صريح في أن الجهاد في الدعوة إلى الله، وإحقاق الحق من الدين، وإبطال الباطل من شبه المشبهين وضلالات الضالين وإنكار الجاحدين، هو بالقرآن العظيم، ففيه بيان العقائد وأدلتها ورد الشبه عنها، وفيه بيان الأخلاق محاسنها ومساوئها، وطرق الوصول إلى التحلي بالأولى والتخلي عن الثانية ومعالجتها، وفيه أصول الاحكام وعللها. وهكذا فيه كل مايحتاج إليه المجاهد به في دين الله. فيستفاد منها كما يستفاد من آيات أخرى غيرها أن على الدعاة والمرشدين أن تكون دعوتهم وإرشادهم بالقرآن العظيم»[3].

وكان يحث الدعاة والعلماء على سلوك منهج القرآن في الدعوة والبيان، وقال عند قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]: «لنقتد بالقرآن فيما نأتي به من كلام في مقام الحجاج أو مقام الإرشاد، فلنتوج دائماً الحق الثابت بالبرهان أو بالعيان، ولنفسره أحسن التفسير، ولنشرحه أكمل الشرح، ولنقربه إلى الأذهان غاية التقريب، وهذا يستدعي صحة الإدراك

---

(١) المرجع السابق: ١/ ٢٧٢، ٣٨١، و٢/ ٢٢٧.
(٢) المرجع السابق: ١/ ٤٨٩.
(٣) المرجع السابق: ١/ ٤٢٩.

وجودة الفهم ومتانة العلم لتصور الحق ومعرفته، ويستدعي حسن البيان وعلوم اللسان لتصوير الحق وتجليته والدفاع عنه. فللاقتداء بالقرآن في الإتيان بالحق وأحسن بيان علينا أن نُحصّلَ هذه كلها، ونتدرب فيها، ونتمرن عليها، حتى نبلغ إلى ما قُدّرَ لنا منها»[1].

وربما نشر الشيخ بعض الخطب، ويحث الخطباء على أن يخطبوا بها، كما نشر خطبة لسلطان المغرب في القرن الثاني عشر، السلطان السلفي سليمان بن محمد بن عبد الله، فيها حث على الالتزام بالسنة، والتحذير من البدعة، وحث الشيخ خطباء الجزائر على الخطبة بها[2]. وكتب خطبة لعيد الأضحى، ونشرها في الشهاب، لعل الخطباء أن يخطبوا بها، وقد كتبها بطلب من بعض الخطباء[3].

**المجال الرابع/ العلماء:**

يدرك الشيخ أهمية العلماء في تحقيق الإصلاح، وأنهم أداة مؤثرة في المجتمع، بقوتهم تقوى الهمم، وعلى أيديهم يتربى الجيل، وبإرشادهم ينطلق الناس، وهم مرجع الناس في العلم والفتوى، خصوصاً أن المجتمع الجزائري كغيره من مجتمعات المسلمين يحظى فيه العلماء باحترام عظيم، إلا أن الذي يُقلق الشيخ كثيراً ما آل إليه حال البقية الباقية من العلماء في البلاد، فعلى الرغم من كونهم قلة، فإنهم متفرقون، وأصابهم ما أصاب الطرقيين من الاستكانة والقعود، وشلل التفكير والجمود، وصاروا قدوة للطلبة والعامة في ضعف الهمة واستصعاب المهمة.

---

(١) آثار ابن باديس: ١/ ٤٢١.

(٢) المرجع السابق: ٣/ ١٣٥-١٤١.

(٣) المرجع السابق: ٣/ ٥٣٠.

وصور الشيخ ما آل إليه حال كثير من العلماء في وقته فيقول: «كان الذين يتسمون بالعلم - إلا قليلاً - بين جامد خرافي، تستخدمه الطرقية وما يحرك الطرقية في التخدير والتضليل، وقد لايدري المسكين مايدس به للأمة من كيد. وحاذق دنيوي، قد غلبه الوظيف، واستولى على قلبه، فأنساه نفسه، وأنساه ذكر الله. وكان العلماء الأحرار المفكرون - على قلتهم - مغمورين مشتتين»[1].

ويَلحظ - رحمه الله - أن حركة المجتمع قوة وضعفاً ترتبط بالعلماء، قال: «إنا راجعنا تاريخ المسلمين في سعادتهم وشقائهم وارتفاعهم وانحطاطهم، وجدنا ذلك يرتبط ارتباطاً متيناً بقيام العلما بواجبهم، أو قعودهم عما فرضه الله وأخذ به الميثاق عليهم»[2].

ولذا فإنه يرى أنه «لن يصلح المسلمون حتى يصلح علماؤهم؛ فإنما العلماء من الأمة بمنزلة القلب، إذا صلح صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله»[3].

وقد سعى الشيخ في إصلاح هذا المجال بدعوة العلماء إلى الإسهام في الإصلاح ودعوة الناس، وتعليم النشء من البنين والبنات وتربيتهم على الدين القويم والتفكير السليم، يقول: «لو أن الأمة سمعت صيحات الإنكار من كل ذي علم لأقلعت عن ضلالها، ورجعت إلى رشدها، فما أسعد من نصحها من أهل العلم وجاهد لإنقاذها، وما أشقى من غشها وزادها رسوخاً في ضلالها وتمادياً في هلاكها»[4].

---

(١) المرجع السابق: ٤/ ٣٦٧.
(٢) المرجع السابق: ٣/ ١١٥.
(٣) آثار ابن باديس: ٣/ ٢١٧.
(٤) المرجع السابق: ٢/ ٢٣٨ -٢٣٩.

وخاطب علماء جامع الزيتونة من خلال مجلة (البصائر) يذكرهم بمسؤولية العلماء عند الله، ويحثهم على النصح للأمة وإنقاذ المسلمين والصدع بالحق والدعوة إلى الله، والقيام بالإصلاح الإسلامي كما هو الشأن في مصر وليبيا والجزائر والمغرب[1].

وقد كان يدعو العلماء والوجهاء إلى التضحية والإقدام وتحمل المسؤولية، ويحذرهم من القعود والاستكانة والهروب من الواقع، ومن ذلك ماخاطب به النواب الجزائريين قائلاً لهم: «حرام على عزتنا القومية وشرفنا الإسلامي أن نبقى نترامى على أبواب أمة ترى أو ترى أكثريتها ذلك كثيراً علينا. . . !، ويُسمعنا كثير منها في شخصيتنا الإسلامية مايمس كرامتنا، ويجرح أعز شيء علينا»[2].

وفي خطبة عيد الأضحى يذكر الناس بقصة إبراهيم مع ابنه إسماعيل، ويحثهم على الاقتداء بهما في التضحية في سبيل الخير العام، وأن تكون التضحية خلقاً فيهم كل حين[3]. وفي خطاباته في اجتماعات جمعية العلماء المسلمين يؤكد دائماً أنهم مبتلون، وسيبتلون، ويعاهدهم على الاستمرار في العمل والتعليم بصبر وتضحية وثبات. ويؤكد لهم أن كيد الأعداء لهم ماهو إلا دليل على نجاحهم[4].

ويروي البشير الابراهيمي أنه وقع مرة في همّ برح به، فصمم على الخروج من الجزائر. فزاره الشيخ ابن باديس بتلمسان، فكشف له عن تصميمه، فارتاع الشيخ

---

(١) المرجع السابق: ٣/ ١١٥- ١١٧.

(٢) المرجع السابق: ٣/ ٣٧١.

(٣) المرجع السابق: ٣/ ٥٣٠.

(٤) ينظر مثلاً: آثار ابن باديس: ٣/ ٥٣٨- ٥٦٥.

وسكت قليلاً ثم قال له: إن خروجك أو خروجي يكتبه الله فراراً من الزحف. قال البشير: فو الذي وهب له العلم والبيان لقد كانت كلمته شُؤبوباً من الماء صُبّ على لهب[1].

كما كان يشد من أزر أهل العلم الذين يتعرضون للمحن والابتلاء، كسفره إلى العاصمة لحضور محاكمة العقبي مع أنه لم يكن ينقطع عن دروسه حتى في وفاة ولده وأخيه، وقال في الشهاب معتذراً عن تتميم مجالس التذكير أيام المحاكمة: «في صبيحة هذه الثلاثاء ابتدئت المحاكمة في قضية مقتل المفتي ابن دالي عمر، التي اتهم الشيخ الطيب العقبي والسيد عباس التركي باطلاً ظلماً عدواناً، فكان من واجبي أن أحضر جميع الجلسات، فانشغل بالي عن تتميم مجالس التذكير. ولقد مات ابني الوحيد ومات أخ لي عزيز فما شغل ذلك بالي مثل اليوم، ولا منعني عن دروسي وأعمالي؛ ذلك لأن هذه القضية اليوم قضية الإسلام والعروبة والجزائر، لاقضية فرد أو جماعة، فمعذرة يا قرائي الأعزة، والله نسأل أن يظهر الحق ويدحض الباطل»[2]. ومن ذلك رسالته الأخيرة قبيل وفاته بأيام إلى رفيق دربه البشير الإبراهيمي بعد أن بلغه أنه رفض متاع الدنيا وهداياها التي جاءته من فرنسا، لأجل أن يقف معها في الحرب العالمية الثانية، قال له: «أخي الكريم الأستاذ البشير الإبراهيمي.. السلام عليكم. لقد بلغني موقفكم المشرف العادل.. لقد صُنتَ الدين والعلم، فصانك الله وحفظك. عَظّم الله قدرك في الدنيا والآخرة»[3]. وكان الشيخ وهو في مرضه يقص

---

(١) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي: ٤/ ٣٣٨. والشُؤبوب: الدفعة من المطر. وقيل: إذا كان فيه برد. وينظر: لسان العرب: ١/ ٤٨٠.

(٢) آثار ابن باديس: ٢/ ٤١.

(٣) حياة الشيخ الإمام عبد الحميد ابن باديس، مقال في موقع: الإمام عبد الحميد ابن باديس.

على طلابه موقف الإبراهيمي بسرور وانشراح نفس وحمد لله سائلاً له الثبات، كما اخبر بذلك تلميذه عبد الحفيظ الجنان في رسالته إلى الشيخ قصيبة أحمد بن بو زيد[1].

وجعل في صحيفة (السنة النبوية المحمدية) زاوية بعنوان (التاريخ يعيد نفسه)، قال: «للنشر فيها- ما أمكننا النشر- قصصاً عن حياة رجال السنة المصلحين مع دعاة البدعة المبطلين؛ تزيد العالم المصلح ثباتاً على الحق...»[2].

ونبه أهل العلم إلى خطر الركون إلى المناصب والوظائف، وألَّا تكون عائقاً عن الدعوة والإصلاح، قال: «كل مسلم عليه أن ينفع بما استطاع في أي حال كان، وماكان الوظيف (الوظيفة) من حيث هو وظيف بمانع لأحد يحترم نفسه من النفع والخير، غير أنه في أنواع من الحكومات والأصناف كثير من الناس صار الوظيف قيداً في اليد وغلاً في العنق، ونحن نعلم أن الإصلاح الديني ماتأخر في القطر المصري والقطر التونسي إلا لأن جميع المتسمين بالعلم متوظفون أو مرشحون للوظيف أو طامعون فيه... ونحن نرى حتماً لزاماً على كل مَن كان يعد نفسه لخدمة الإسلام بنشره وبيان حقائقه لأبنائه وغير أبنائه أن يبتعد عن كل وظيف»[3].

وحث أهل العلم على ربط الناس بأدلة القرآن والسنة في فتاواهم وإرشادهم، قال: «ومما ينبغي لأهل العلم أيضاً إذا أفتوا وأرشدوا أن يذكروا أدلة القرآن والسنة لفتاويهم ومواعظهم؛ ليقربوا المسلمين إلى أصل دينهم، ويذيقوهم حلاوته، ويعرفوهم منزلته، ويجعلوه منهم دائماً على ذكر، وينيلوهم العلم والحكمة من

---

(١) ينظر: حياة ابن باديس ورحلاته العلمية، في موقع: الإمام عبد الحميد ابن باديس.

(٢) آثار ابن باديس: ٣/ ٢٧.

(٣) المرجع السابق: ٤/ ٢٠٥.

قريب، ويكون لفتاواهم ومواعظهم رسوخ في القلوب وأثر في النفوس، فإلى القرآن والسنة أيها العلماء إن كنتم للخير تريدون»[1]. وكان إذا رأى عالما له عناية بكتب السنة شكره وأثنى عليه[2].

كما سعى إلى إنشاء جمعيات تجمع شمل العلماء وتقرب بينهم وتوجه جهودهم، فحاول في عام (١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م) تأسيس جمعية باسم (الإخاء العلمي)؛ لكنها لم تقم، ثم تحقق له ما أراد في (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) عام (١٣٤٩هـ/ ١٩٣١م). وكان نظر الشيخ أبعد من الحدود الجغرافية للجزائر فأراد أن يكون للأمة الإسلامية من أهل العلم والخبرة (جماعة المسلمين) ويرجع إليهم، وينظرون في مصالح المسلمين، وطالب «الأمم الإسلامية جمعاء أن تسعى لتكون هذه الجماعة من أنفسها، بعيدة كل البعد عن السياسة وتدخل الحكومات، لا الحكومات الإسلامية ولا غيرها»؛ بل ذكر أنه كاتب شيخ الأزهر بهذا ولكنه لم يتلق منه جواباً، وبيّن أن سبب عدم رده في كون الأزهريين هتفوا بالخلافة للملك فاروق[3].

لكن المهمة الخطيرة التي حملها الشيخ على عاتقه هي تكوين جيل يكون منهم في المستقبل علماء مصلحون، يحملون الدعوة، وينشرونها، ويربون عليها، ويدافعون عنها، وسيأتي حديث عنها في وسائل الإصلاح.

---

(١) آثار ابن باديس: ١/ ٢٧٢.

(٢) المرجع السابق: ٤/ ٣٠٩.

(٣) المرجع السابق: ٣/ ٤١١.

## المجال الخامس/ الشباب:

تحدق بالشباب في ظل الاحتلال والعقائد الفاسدة ومشكلات التعليم مخاطر عظيمة من تحقير وتجهيل، وتقليد وجمود، وتواكل وقعود، حتى صار صيداً سهلاً لسياسات الفرنسة والتغريب والتبعية والإدماج، واشتكى المصلحون من الانحراف العريض الذي حصل في أخلاق الشباب.

ويدرك الشيخ أنه لاقيمة كبيرة للإصلاح إذا لم يتوجه إلى الشباب، لأن جيل اليوم هم قادة المستقبل ومجتمعه. ولذا توجه جهد الشيخ منذ بدء دعوته إلى إصلاح الناشئة والشباب، وتعليمهم، وتربيتهم، ففتح لهم مدارس، وأنشأ لهم دروساً، وأقام لهم محاضرات، وأشركهم في الجمعيات التربوية والكشفية، وحرص على القرب منهم والحديث إليهم، وخاطبهم بالأناشيد، ونظم منها مايرددونه في لقاءاتهم، قال عام (١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م): «أعلن (الشهاب) من أول يومه و (المنتقد) الشهيد قبله أنه لسان الشباب الناهض في القطر الجزائري، ولم يكن يوم ذاك من شباب إلا شباب أنساه التعليم الاستعماري لغته وتاريخه ومجده، وقَبَّح له دينه وقومه، وقطع له من كل شيء - إلا منه - أمله، وحقَّره في نفسه تحقيراً. وإلا شباب جاهل أكلته الحانات والمقاهي والشوارع، ومن وجد العمل منه لايرى نفسه إلا آلة متحركة في ذلك العمل، لاهم له من ورائه في نفسه فضلاً عن شعوره بأمر عام. وإلا شباب حفظه الله للإسلام والعروبة، فأقبل على تعلمها، لكنه تعلم سطحي لفظي خال من الروح، لايعتز بماض، ولا يألم بحاضر، ولايطمح لمستقبل، اللهم إلا أفراداً قلائل جدّاً هنا وهنالك. أما اليوم فقد تأسست في الوطن كله جمعيات ومدارس

ونواد باسم الشباب والشبيبة والشبان، ولا تجد شابّاً - إلا نادراً - إلا وهو منخرط في مؤسسة من تلك المؤسسات، وشعار الجميع: الإسلام، العروبة، الجزائر»[1].

وسيأتي حديث عن منهج الشيخ في تربية الناشئة والشباب في وسائل الإصلاح.

**المجال السادس/ المرأة:**

للمرأة وظيفة عظيمة في تربية النشء وإصلاح المجتمع، لكنها حُرمت من التعليم، خوفاً عليها من الفساد، إلا أن الفساد صار إليها يسرع بجهلها، وبعدها عن معرفة تعاليم دينها، وسوء معاملتها، وصارت ثغرة مفتوحة في جسد الأمة ينفذ من خلالها شياطين الإنس والجن.

وقد استغل الأعداء هذا الخلل العظيم فأوهموا أن التخلف والجهل الذي تعيشه المرأة إنما هو بسبب التمسك بالدين وبتقاليده - كما يزعمون -، وبادر المستغربون بإرسال بناتهم إلى المدارس التغريبية، حتى إذا تخرجن وإذا هنَّ بغير فكر الأمة وهويتها، وصرن أداة للاحتلال والتغريب، ودعاة للانسلاخ عن الدين، والخطير أن يكنَّ هنَّ المعلمات لجيل المستقبل من البنين والبنات. وقد حصلت خسارة كبيرة للأمة قبل أن يعي المسلمون خطورة الأمر، وأهمية تعليم المرأة.

وقد وعى الشيخ هذه الخطورة، وأهمية التكوين الصحيح للمرأة في إصلاح الأمة «فأوجب تعليمها، وإنقاذها مما هي فيه من الجهالة العمياء، ونصح بتكوينها تكويناً يقوم على أساس العفة وحسن تدبير المنزل والشفقة على الأولاد، وحسن تربيتهم، كما أنه حمّل مسؤولية جهل المرأة أولياءها والعلماء الذين يجب عليهم

---

(١) آثار ابن باديس: ٤/ ٣٦٤- ٣٦٥.

أن يعلّموا الأمة رجالها ونساءها، وقرر أنهم آثمون إثما كبيراً، إذا فرطوا في هذا الواجب واستدل إلى جانب الآيات والأحاديث، بما استفاض في تاريخ الأمة المسلمة من وجود العالمات والكاتبات الكثيرات»[1]. ويبين الشيخ أهمية إصلاح المرأة في مشروع الإصلاح فيقول: «إذا أردنا أن نكوّن رجالاً، فعلينا أن نكوّن أمهات دينيات، ولا سبيل لذلك إلا بتعليم البنات تعليماً دينياً، وتربيتهن تربية إسلامية. وإذا تركناهنّ على ماهنّ عليه من الجهل بالدين، فمحال أن نرجو منهن أن يكوّنّ لنا عظماء الرجال»[2].

ويؤكد أنه «لن ينهض المسلمون نهضة حقيقية إسلامية إلا إذا شاركتهم المسلمات في نهضتهم، في نطاق عملهن الذي حدده الإسلام، وعلى مافرضه عليهن من صون واحتشام»[3].

وفي مجلة (الشهاب) أنشأ باباً بعنوان (رجال الإسلام ونساؤه) وتناول عدداً من النساء، مبيناً مواطن العبر في حياتهن، وكثيراً ما يؤكد أهمية العناية بالنساء وتعليمهن واستصلاحهن، وأثرهن في النهضة والإصلاح[4].

وحذر الشيخ من الدعوة إلى «الذهاب بها في تيار المدنية الغربية إلى مايخرجها عن حدود دينها ووظيفة أنوثتها» كما قال في رده على كتاب بعنوان (امرأتنا) للطاهر الحداد، وقال: «وجدناه يدعو إلى إبطال أحكام عديدة من أحكام القرآن الصريحة

---

(١) من مقدمة عمر عبيد حسنة لكتاب: عبد الحميد ابن باديس وجهوده التربوية: ٣٠-٣١، وينظر: آثار ابن باديس: ٢/ ٢٩٩.

(٢) آثار ابن باديس: ٣/ ٨٩، وينظر: ٣/ ٤٦٧ - ٤٧٠، وعبد الحميد ابن باديس وجهوده التربوية: ١٥١.

(٣) آثار ابن باديس: ٤/ ١١٧.

(٤) ينظر: المرجع السابق: ٤/ ٨٢، ١١٣، ١١٦، ١١٨، ١٢٣.

القطعية الإجماعية، وتعطيل آيات عديدة من آياته، بدعوى أنها غير لائقة بالنساء في هذا العصر. وهذا هو الجحود نفسه لبعض القرآن، وجحود بعضه كجحود كله في مفارقة الإسلام»[1].

ونبه إلى خطورة مساواة المرأة في وظيفتها بالرجل؛ فالرجل يقوم بأعباء القسم الخارجي من الحياة، والمرأة تقوم بأعباء القسم الداخلي المتعلق بشؤون البيت والأسرة، والله عز وجل قد أعطى الرجل من كمال القوة في العلم والإرادة والعمل القدر الذي يحتاج إليه في القيام بوظيفته. «والمرأة لما خلقت لقسم الحياة الداخلي أعطيت من القوى الثلاث القدر الذي تحتاج إليه منها، وهو دون مايحتاج إليه الرجل الذي خلق للقيام بقسم الحياة الخارجي . . . وتقسيم الحياة إلى قسميها ضروري لبقاء النسل وحفظه. وتقسيم وظيفة الحياة بين الرجل والمرأة، وإعطاء كل واحد منهما القدر الذي يحتاج إليه في وظيفته من بديع صنع الحكيم الخبير»[2]، واستشهد على خطورة اختلال وظيفة المرأة بما حصل للحياة الغربية لما أخلت بوظيفة المرأة، قال: «نحن نرى اليوم في المدنية الغربية ومقلديها لما خيل إليها أنها قوية مثل الرجل هجرت وظيفتها، أو أهملتها، وخرجت تزاحم الرجل في وظيفته، فأضرت بالقسم الداخلي من الحياة؛ بإهماله واضطرابه، وأضرت بالقسم الخارجي؛ بمزاحمة الرجل وزحزحة قسم كبير منه عن العمل، وتعريضه للفتن. والأمم الغربية اليوم تشكو مر الشكوى من تفكك نظام الأسرة، وانحلال رباط الأخلاق الزوجية»[3].

---

(١) ينظر: آثار ابن باديس؛ ٤/ ٤٧٥.

(٢) المرجع السابق: ٤/ ٢٠٩.

(٣) المرجع السابق: ٤/ ٢٠٩- ٢١٠.

وقد خطا الشيخ في هذا المجال خطوات عملية، ففتح للفتيات أبواب الدراسة، وقدم للنساء دروساً ومحاضرات، وكان يخاطبهن في المجلات من خلال عرض القدوات من نساء السلف الصالح من الصحابيات وغيرهن.

**المجال السابع/ الانتماء للعربية والجزائر:**

لم يقنع الاستعمار الفرنسي باحتلال الجزائر؛ بل ذهب إلى ماهو أبعد من الاحتلال، حيث قرر إدماج الجزائر في فرنسا، وأعلن أنها قطعة منه، ولكي تحقق فرنسا خطتها في اقتطاع الجزائر من العالم الإسلامي، وإدماجها في فرنسا، كان عليها أن تغير لغتها العربية، وتحل بدلها الفرنسية، فصارت هي اللغة الرسمية في البلاد، وصار لزاماً على المدارس العربية التي يرخص لها أن تعلم الفرنسية، وصارت اللغة العربية لغة أجنبية ولا يسمح بتعليمها إلا بترخيص.

كما سعت إلى إقناع الشعب الجزائري بعدم وجود وطن في التاريخ يقال له: الجزائر، وأنه ليس في التاريخ أمة جزائرية، كما أثارت النعرات الطائفية والعرقية واللغوية كالأمازيغية؛ لتجعلها محوراً للانتماء، بديلاً للانتماء إلى الجزائر العربية المسلمة، فضلاً عن أنّ إثارة النعرات يحقق السياسة الاستعمارية (فَرّق تَسُد).

إن فرنسا تريد أن تقنع الشعب بارتباط هذا الوطن الجزائري عضوياً وتاريخياً ومصيرياً بفرنسا، وقد حقق الاحتلال في هذا المجال نجاحاً.

ولقد وعى الشيخ ما تسعى له فرنسا في مخطط الفرنسة، الذي يهدف إلى إلغاء الشخصية الجزائرية وهويتها العربية والإسلامية، وإبدالها بهوية غربية فرنسية. ولهذا صار الشيخ يُذَكّر الشعب مراراً وتكراراً بالشعور بالوطن، وبحدوده، وتاريخه،

ولغته العربية، وارتباطه العميق بالتاريخ العربي الإسلامي، ويؤكد عليهم أن الوطن الجزائر حقيقة راسخة لايمكن أن تمزقها يد الاحتلال، ويرسل رسائل تثبيط وإحباط لمن يرومون مسخ الوطن وإلغاء شخصيته وتاريخه، ويسعون في إدماجه في فرنسا، ومن يرومون تقسيم الوطن وتفريق الشعب من المحتلين وأدواتهم.

ومما قاله في هذا الشأن: «إن أبناء يعرب وأبناء مازيغ قد جمع بينهم الإسلام منذ بضع عشرة قرناً، ثم دأبت تلك القرون تمزج ما بينهم في الشدة والرخاء وتؤلف بينهم في العسر واليسر، وتوحدهم في السراء والضراء، حتى كَوّنت منهم منذ أحقاب بعيدة عنصراً مسلماً جزائرياً، أمّه الجزائر وأبوه الإسلام. وقد كتب أبناء يعرب وأبناء مازيغ آيات اتحادهم على صفحات هذه القرون، بما أراقوا من دمائهم في ميادين الشرف لإعلاء كلمة الله، وما أسالوا من محابرهم في مجالس الدرس لخدمة العلم. فأي قوة بعد هذا يقول عاقل تستطيع أن تفرقهم؟ لولا الظنون الكواذب والأماني الخوادع.. يا عجباً! لم يفترقوا وهم الأقوياء، فكيف يفترقون وغيرهم القوي؟! كلا والله؛ بل لاتزيد كل محاولة للتفريق بينهم إلا شدة في اتحادهم وقوة لرابطتهم. ذمتي بما أقول رهينة وأنا به زعيم، والإسلام له حارس، والله عليه وكيل»[1].

ولما دعا بعض النواب وغيرهم إلى الاندماج التام مع فرنسا، وادعى بعضهم أنه فتش عن القومية الجزائرية في بطون التاريخ فلم يجد لها أثراً، وقال بعضهم: فرنسا هي أنا، كتب الشيخ قائلاً: «إن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا، ولايمكن أن تكون فرنسا، ولاتريد أن تصير فرنسا، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت،

---

(١) آثار ابن باديس: ٣/ ٤٨٣.

بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد، في لغتها، وفي أخلاقها، وفي عنصرها، وفي دينها، لاتريد أن تندمج، ولها وطن محدود معين هو الوطن الجزائري»[1].

وحينما أسس الشيخ صحيفة (المنتقد) جعل لها شعارها الذي تحمله في رأس كل عدد (الحق فوق كل أحد، والوطن قبل كل شيء)، رفع هذا الشعار في وقت كما يقول الشيخ: «كانت كلمة الوطن والوطنية كلمة إجرامية لايستطيع أحد أن ينطق بها، وقليل جداً من يشعر بمعناها، وإن كان ذلك المعنى دفيناً في كوامن النفوس ككل غريزة من غرائزها، خاصة في أمة تنسب إلى العروبة، وتدين بالإسلام، مثل الأمة الجزائرية ذات التاريخ المجيد»[2].

ولما قررت الإدارة الاستعمارية عام (١٣٥٧هـ/١٩٣٨م) منع التعليم إلا برخصة، وقررت عقوبة من يعلم بدونها، كتب الشيخ مبيناً أن هذا القرار لايراد به إلا من يعلم العربية والإسلام، وأن هذا أمر لايمكن السكوت عليه؛ لأنه يصيب الأمة بمقتل في دينها ولغة دينها، وذكر أنه لاتعليم لدين الإسلام إلا بتعليم لغته، وأعلن أنه سيمضي بعون الله في تعليم الدين واللغة على الرغم من كل ما يصيبه، ولن يصده عن ذلك شيء، حتى لايكون مشاركاً في قتلهما[3].

ويروي الشيخ عبد الرحمن شيبان أنه في يوم من الأيام حضر صلاة المغرب في بجاية مع الشيخ ابن باديس، وبعد الصلاة وقف ابن باديس يخطب بحماسة تحرك الصخور الجامدة، منددا بالقرار الاستعماري الفرنسي القاضي باعتبار اللغة العربية

---

(١) المرجع السابق: ٣/ ٣٠٩.
(٢) المرجع السابق: ٣/ ٣٦٦.
(٣) المرجع السابق: ٣/ ٢٤٤.

لغة أجنبية، ومما قاله: «إن في هذا القرار قتلاً لنا، لأنه يمس ديننا ولغتنا، فعلى كل الجزائرين أن يحتجّوا ضده، فمن لم يفعل فهو خائن لدينه ووطنه، سواء أكان عالماً، أم متعلماً، أم إماماً، أم مُفتياً»[1].

وقد سلك الشيخ في إصلاح هذا المجال وسائل عديدة من أهمها: تعليم العربية، والتاريخ والجغرافية، وكان يعلمهما بخفية كما سبق، وافتتاح المدارس لتعليم العربية، والتعليم بها، ووعظ الناس بالعربية الفصيحة، ونشر الصحف العربية، وحث الناس فيها على التمسك بهويتهم العربية، والرد على دعاة الفرنسة والأمازيغية، ورفع شعار العروبة ملازماً لشعار الإسلام في الجمعيات والصحف والمجلات، وكثيراً مايصف الرسول ﷺ بأنه رجل القومية العربية، وكتب مقالة بعنوان (محمد صلى الله عليه وآله وسلم رجل القومية العربية)[2]، وألقى محاضرة بعنوان (العرب في القرآن) يؤكد فيها على أهمية العناية بتاريخ العرب، ويقرر عناية القرآن بالعرب وباللغة العربية[3]، وألقى في العاصمة محاضرة بعنوان (الرجل المسلم الجزائري) شرح فيها عناصر العنوان الثلاثة، وأكد فيها على جزائرية أهل هذا الوطن (الجزائر)، وحث على معرفة تاريخه والقيام بواجباته[4]، وغير ذلك من الوسائل[5].

---

(١) من دروس يوم العلم: الإمام ابن باديس وحجاب المرأة، مقال للشيخ عبد الرحمن شيبان، بموقع: جريدة البصائر الجزائرية.

(٢) آثار ابن باديس: ٤/ ١٧.

(٣) ينظر: المرجع السابق: ٤/ ٥٩- ٧٦.

(٤) المرجع السابق: ٣/ ٤٦٦.

(٥) للاستزادة ينظر: مقال: عبد الحميد ابن باديس والعروبة، للدكتور صالح خر في، موقع: الإمام عبد الحميد ابن باديس.

وقد يتوهم بعضهم من تأكيد الشيخ المتكرر على الوطن والعربية أنها دعوة عنصرية ضيقة إلى القومية العربية والوطنية بالمفهوم العلماني لهما، لكن هذا المفهوم لاينطبق على مايذكره الشيخ، وقد أكد أنه لاتناقص في دعوته إلى الوطنية الجزائرية مع عالمية الإسلام، ويبين هدفه من التذكير بالوطن الجزائري، فقال: «ليس ماندعو إليه، ونسير على مباديه من الإصلاح، بالأمر يخص المسلم الجزائري، ولا ينتفع به سواه، كلا، فإن صحة العقيدة، واستنارة الفكر، وطهارة النفس، وكمال الخلق، واستقامة العمل، وهذا هو الإصلاح كله، مما يشترك في الانتفاع به جميع المسلمين؛ بل جميع بني الإنسان، وإنما نذكر المسلم الجزائري لأنه هو الذي قدر أن يكون منا ونكون منه... على أنه لم يذكر لتخصيصه، وإنما ذكر ليشعر بنفسه، فيعمل لإسلامه وجزائريته، فيكون ذا قيمة ومنزلة في المجموع»[1]، وقد قرر غير مرة أن الوطن الذي يعيش فيه الجزائري ليس هو الوحيد له؛ بل له أوطان أخرى يعمل لها، قال: «وأقرب هذه الأوطان إلينا هو المغرب الأدنى والمغرب الأقصى، اللذان ماهما والمغرب الأوسط (الجزائر) إلا وطن واحد لغة وعقيدة وآداباً وأخلاقاً وتاريخاً ومصلحة، ثم الوطن العربي والإسلامي، ثم وطن الإنسانية العام»[2].

وهو يقول: «هذه الأمه التي ماعملتُ يوماً - علم الله - لإرضائها لذاتها، وإنما عملت وما أزال أعمل لإرضاء الله بخدمة دينها ولغتها»[3].

---

(١) آثار ابن باديس: ٤/ ٣٥٨.

(٢) المرجع السابق: ٣/ ٢٣٧، وينظر: ٣/ ٣٦٦- ٣٦٨.

(٣) المرجع السابق: ٢/ ١٤٠.

ومن هنا ندرك أن دعوة الشيخ في ذلك الوقت إلى العروبة والقومية والوطنية ليست دعوة عنصرية جاهلية، وإنما هي دعوة جاءت في سياق مواجهة الاحتلال والتغريب والفرنسة، لتكون وسيلة للمحافظة على الهوية الإسلامية للشعب الجزائري وعدم الانسياق وراء دعوات الفرنسة.

وفي هذا السياق جاءت فتواه الشهيرة التي تتعلق بالتجنس بالجنسية الفرنسية، قال: «ما أكثر ما سئلنا عن هذه المسألة، وطلب منا الجواب في الصحف، ومن السائلين رئيس المتجنسين الأستاذ التركي- الذي لم يجد من يفته في تونس- وكاتبنا برسالتين، فأدينا الواجب بهذه الفتوى: بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على محمد وآله. التجنس بجنسية غير إسلامية يقتضي رفض أحكام الشريعة الإسلامية ومن رفض حكماً واحداً من أحكام الإسلام عُدّ مرتداً عن الإسلام بالإجماع، فالمتجنس مرتد بالإجماع[1]. والمتجنس- بحكم القانون الفرنسي- يجري تجنسه على نسله، فيكون قد جنى عليه بإخراجه من حظيرة الإسلام، وتلك الجناية من شر الظلم وأقبحه، وإثمها متجدّد عليه ما بقي له نسل في الدنيا خارجاً عن شريعة الإسلام بسبب جنايته... والعلم عند الله»[2]. وأفتى بأن ابن المتجنس إذا كان مكلفاً، ولم يُعلَم منه إنكار ما صنع أبوه والبراءة منه، فهو مثل أبيه لا يصلى عليه، ولايدفن في مقابر المسلمين، وإن كان صغيراً فهو مسلم على فطرة الإسلام[3]، كما أفتى بحرمة تزوج المسلم من الفرنسية مع أنها من أهل الكتاب، وعلل ذلك بكون النتيجة التي

(١) مسألة التجنس من مسائل الاجتهاد لدى المعاصرين، ودعوى الإجماع تحتاج إلى نظر، وينظر في المسألة: حكم التجنس بجنسية الدول غير المسلمة، لمحمد السبيل، والجنسية والتجنس وأحكامها في الفقة الإسلامي، لسميح الحسن، وحكم التجنس بجنسية دولة غير مسلمة، لمحمد يسري.

(٢) البصائر: عدد ٩٥، جمادى الثاني ١٣٥٦هـ.

(٣) البصائر: عدد ٧٩، جمادى الثاني ١٣٥٦هـ.

يؤدي إليها هذا الزواج هي الخروج عن حظيرة الإسلام؛ لأن القانون الفرنسي يقضي بأن أبناءه منها يتبعون جنسية أمهم. فإن كان راضياً بذلك فهو مرتد عن الإسلام، جان على أبنائه، ظالم لهم، وإن كان غير راض لهم بذلك وإنما غلبته شهوته على الزواج فهو آثم بجناياته عليهم، وظلمه لهم، لايخلصه من إثمه هذا إلا إنقاذهم مما أوقعهم فيه[1].

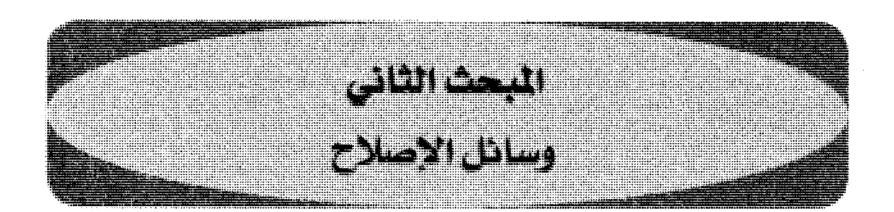
**المجال الثامن/ استقلال الجزائر وطرد الاحتلال:**

وهو الهدف البعيد للمشروع الإصلاحي، وماسبقه من إصلاح في المجالات السابقة وسيلة لتحقيقه، لتحصل القوة، فيرفع راية الجهاد بالسلاح؛ لكنه أمر لم يتحقق للشيخ في حياته، وسيأتي حديث عنه في وسائل الإصلاح.

وأشير هنا إلى أن الشيخ قصر جهده على إصلاح الواقع الجزائري مع أن العالم الإسلامي كان بحاجة أيضاً إلى إصلاح في مجالات متنوعة؛ لكنه أراد أن يركز الجهود في الجزائر، ويدع لغيره غيرها، وهذا أدعى لنجاحه. وقد أراد البشير الإبراهيمي من الشيخ أن يخرج إلى أقطار العالم الإسلامي داعياً إلى الله وإلى الاجتماع على كتاب الله، قال البشير: «كنت نازعته الحديث في هذا مرات، وقلت له: إن من النقص أن تقضي طول عمرك مدرساً لهذه الكتب وهذه القواعد، في طائفة من الطلاب، فإن زدت فمحاضراً في الجموع. وأن يبقى هذا العلم محصوراً في الجزائر... فكان يحيل الأمر إليّ تنصلاً، ويقول لي: أنت أعرف بالشرق، وألين عريكة مني. وكنا نتفق على الأصل، ونُسَوّفُ، ونُسَوّفُ، إلى أن فرق الموت بيننا»[2].

(١) البصائر: عدد ٩٥، جمادى الثاني ١٣٥٩هـ.

(٢) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي: ٣/ ٥٥٤.




اتخذ الشيخ لتحقيق أهدافه الإصلاحية وسائل عديدة، وفي الحديث السابق عن مجالات الإصلاح أشرنا في كل مجال إلى عدد من الوسائل التي اتبعها الشيخ في إصلاحه، وهنا نذكر بشيء من التفصيل أبرز الوسائل الكبرى التي تشمل تلك الوسائل.

**الوسيلة الأولى/ القرآن والسنة:**

ما عرفت البشرية جيلاً خيراً ولا أصلح من جيل الصحابة - رضي الله عنهم -، الذين اصطفاهم الله لنبيه ﷺ، فكانوا القرن الذي هو خير القرون، بشهادة النبي ﷺ.

والله الذي اصطفاهم لنبيه ﷺ لم يرتض لإصلاحهم وهدايتهم إلا سبيلين: كتابه، وسنة رسوله ﷺ، وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ

الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٦]، وقال النبي ﷺ «إنّ خيرَ الحديث كتابُ الله، وخيرَ الهَديَ هديُ محمد ﷺ، وشَرّ الأمور مُحدثاتُها، وكلّ بدعة ضلالة»[١]، وقال: «عليكُم بسُنتي وسُنة الخلفاء الرّاشدينَ المَهديين، عَضّوا عليها بالنّواجذِ، وإيّاكُم ومُحدثات الأمُور، فإنّ كُلّ محدَثَة بدعةٌ، وإنّ كُل بدعة ضلالة»[٢].

وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يعظ ويذكر بالقرآن، فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، وقال: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١].

والشيخ ابن باديس يعلم علم اليقين أنه لاهداية للأمة، ولانجاة لها، ولاصلاح لحالها، إلا بالأخذ بأسباب العزة والقوة، التي أخذ بها السلف الصالح من الصحابة - رضي الله عنهم - ومن تبعهم بإحسان، فكانوا خير جيل وأصلحه، وما كان لهم ذلك إلا بالتمسك بكتاب الله سبحانه وتعالى وسنة رسوله ﷺ، والاهتداء بهديهما، والرجوع إليهما في العلم والعمل، قال - رحمه الله -: «وليكن دليلنا في ذلك وإمامنا كتاب ربنا وسنة نبينا وسيرة صالح سلفنا، ففي ذلك كله مايعرفنا بالحق، ويبصرنا في العلم، ويفقهنا في الدين، ويهدينا إلى الأخذ بأسباب القوة والعزة والسيادة العادلة في الدنيا، ونيل السعادة الكبرى في الآخرة»[٣]، وقال: «لا نجاة لنا من هذا التيه الذي نحن فيه، والعذاب المنوع الذي نذوقه ونقاسيه إلا بالرجوع إلا القرآن؛ إلى

---

(١) أخرجه مسلم: برقم (٨٦٧).

(٢) أخرجه أحمد (٢٨/ ٣٧٣)، وأبو داود: برقم (٤٦٠٧)، والترمذي: برقم (٢٦٧٦) وصححه، وصححه أيضاً الهروي، والبزار، وابن عبد البر، والحاكم والضياء المقدسي، والألباني، وينظر: إرواء الغليل: ٨/ ١٠٧.

(٣) آثار ابن باديس: ١/ ٣٠٠.

علمه وهديه، وبناء العقائد والأحكام والآداب عليه، والتفقه فيه، وفي السنة النبوية شرحه وبيانه، والاستعانة على ذلك بإخلاص القصد، وصحة الفهم، والاعتضاد بأنظار العلماء الراسخين، والاهتداء بهديهم في الفهم عن رب العالمين»[1].

لذا عني الشيخ بتعليم كتاب الله عناية فائقة، وكان أول مابدأ به الشيخ دعوته وتعليمه بعد عودته من الحج هو تفسير القرآن، واستمر ربع قرن من الزمان حتى ختمه.

ولم يكن الشيخ يهدف حينما شرع في التفسير أن يضيف تفسيراً جديداً إلى المكتبة الإسلامية الزاخرة بالتفاسير، وإنما كان يهدف إلى إعادة الشعب المسلم إلى القرآن بعدما أبعد عنه، فكان القرآن الكريم هو محور الإصلاح للمجتمع، والتربية التي يتلقاها النشء، كما كان ذلك هو منهاج النبي ﷺ مع أصحابه - رضي الله عنهم -، فكانوا جيلاً قرآنياً فريداً، قال: «إننا والحمد لله نربي تلاميذنا على القرآن من أول يوم، ونوجه نفوسهم إلى القرآن في كل يوم، وغايتنا التي ستتحقق أن يُكوِّن منهم القرآن رجالاً كرجال سلفهم، وعلى هؤلاء الرجال القرآنيين تعلق الأمة آمالها، وفي سبيل تكوينهم تلتقي جهودها»[2]، وقال: «القرآن الذي كَوَّن رجال السلف لا يكثر عليه أن يُكِّون رجالاً في الخلف، لو أُحسن فهمه وتدبره، وحملت الأنفس على منهاجه»[3].

ولأجل هذا الهدف جاء تفسير الشيخ واضحاً سهلاً بأسلوب رشيق ممتع، تحس فيه بصدق اليقين ووهج الإيمان وحرارة القلب، فيبعث على الهداية ويحث إلى العمل.

---

(١) المرجع السابق: ١/ ٤١٠.
(٢) المرجع السابق: ٢/ ١٤٢.
(٣) المرجع السابق: ٢/ ١٤٢.

وفي صحيفة (الشهاب) كان الشيخ يكتب بعض الافتتاحيات بعنوان (مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير) يفسر فيها آيات القرآن، ويبين هداياته.

وفي جولاته الدعوية كان كثيراً ما يلقي المحاضرات والدروس في تفسير بعض الآيات والسور القصيرة[1]، قال عن دروسه في رحلاته: «كانت مادة الدرس دائماً آية من كتاب الله مشفعة بحديث رسوله - عليه وعلى آله الصلاة والسلام -»[2]. وقال في معالجة الآفات الاجتماعية التي تعد من أهداف الرحلات: «كانت طريقة الوعظ والإرشاد بالهداية القرآنية هي أنجع دواء لذلك عند المسلمين»[3].

وكان الشيخ يحفز الطلبة إلى حفظ القرآن، وكان مما عمله أن اشترط لحضور التلميذ الدروس العلمية أن يكون حافظاً للقرآن أو لربعه على الأقل[4].

وأما السنة فصنع في دروسه كما صنع في التفسير، فبدأ بتدريس موطأ مالك منذ بدء دعوته إلى أن ختمه في ربع قرن، كما كان يدرس في كتاب (الشفا بتعريف حقوق المصطفى) للقاضي عياض، ويكتب في (الشهاب) افتتاحيات بعنوان: (مجالس التذكير من حديث البشير النذير)، وأسس في أثناء رئاسته لجمعية العلماء المسلمين صحيفة (السنة النبوية المحمدية)؛ لتنشر على الناس ماكان عليه النبي ﷺ من الهدي في أقواله وأفعاله وأحواله، حتى يهتدي المسلمون به، ويكونوا للناس قدوة[5]، وقال: «أخذنا على أنفسنا دعوة الناس إلى السنة النبوية المحمدية وتخصيصها بالتقدم

---

(١) ينظر: المرجع السابق: ٤/ ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٤، ٣٠٥.
(٢) المرجع السابق: ٤/ ٣١٨.
(٣) المرجع السابق: ٤/ ٣١٧.
(٤) ينظر: المرجع السابق: ٣/ ١٩٥.
(٥) المرجع السابق: ٣/ ٢٥.



والأحجية، فكانت دعوتنا - علم الله - من أول يوم إليها، والحث على التمسك والرجوع إليها، ونحن اليوم على ما كنا سائرون، وإلى الغاية التي سعينا إليها قاصدون، وقد زدنا من فضل الله أن أسسنا هذه الصحيفة الزكية، وأسميناها: السنة النبوية المحمدية؛ لتنشر على الناس ماكان عليه النبي ﷺ في سيرته العظمى وسلوكه القويم وهديه العظيم، الذي كان مثالاً ناطقاً لهدي القرآن، وتطبيقاً لكل ما دعا القرآن إليه بالأقوال والأفعال والأحوال، مما هو المثل الأعلى في الكمال، والحجة الكبرى عند جميع أهل الإسلام، فالأئمة كلهم يرجعون إليها، والمذاهب كلها تنطوي تحت لوائها وتستنير بضوئها، وفيها وحدها ما يرفع أخلاقنا من وهدة الانحطاط ويطهر عقيدتنا من الزيغ والفساد ويبعث عقولنا على النظر والتفكير ويدفعنا إلى كل صالح».

وقد سبق في الحديث عن مجالات الإصلاح - العقيدة والتعليم والعلماء - أن الشيخ كان يشكو من هجر القرآن والسنة في بناء العقائد وتعليمها، وفي تعليم الفقه، والفتيا. فكان يعلم العقيدة من القرآن والسنة، ويدعو إلى بناء التعلم على التفقه فيهما، ويحث أهل العلم على ربط الناس بأدلتهما في فتاواهم وإرشادهم.

### الوسيلة الثانية/ التربية والتعليم:

عاد ابن باديس من الحجاز إلى قسنطينة والرغبة تحدوه في الإصلاح والدعوة إلى الله، التي بثها في روحه شيخه حسين الهندي.

عاد واستأنف نشاطه بروح جديدة ونظرة عميقة وتخطيط بعيد المدى؛ حيث اتفق مع البشير الإبراهيمي في المدينة النبوية أن تكون الخطوة الأولى في المشروع الإصلاحي هي (التربية والتعليم)، وخاصة (تربية النشء) الذي يحتاج إلى زمن طويل.

وهذا التخطيط نابع من إدراك عميق من الشيخين بأن أي مشروع إصلاحي كبير على مستوى الأمة يحتاج في تحقيقه إلى زمن طويل، وإذا لم يبدأ من تربية الأمة وخاصة تربية نشئها وغرس الدين في نفوسها وتجديده في حياتها وإلا فهو مشروع فاشل، وإن تحققت بعض جوانبه؛ لأن النشء هم جيل المستقبل، الذين فيهم وبهم تتحقق أهداف الإصلاح البعيدة، وإذا لم يرث نشء صالح هذا المشروع، فيحمل همه، ويؤدي حقه، فسيموت بموت أصحابه. ومن هنا فإن الوسيلة العملية الأولى والمدخل الأهم؛ لتحقيق هذا الإصلاح عند الشيخين هو في تربية الجيل الناشئ على صحة المعتقد والعلم والعمل؛ ليكون منهم علماء مصلحون، يحملون الدعوة، وينشرونها، ويربون عليها، ويدافعون عنها.

بدأ الشيخ وأصحابه في خطة الإصلاح بهذه الوسيلة، ومضى عليها وصمد فيها عشر سنوات، وذكر أنه لم يخلط مع هذه الغاية (تكوين نشء علمي) أي عمل آخر، فلما تحقق له ما أراد قام بعد ذلك بالدعوة العامة[1].

وقد اجتهد الشيخ في تعليم النشء وتربيته اجتهاداً عظيماً، وأمضى فيه وقته، وأضنى به جسده، بصورة فردية وجماعية، في المساجد، وفي المدارس، حتى كان لا يرضى بما يشغله عنه، ولو كان تأليف الكتب كما قال: «شغلنا بتأليف الرجال عن تأليف الكتب»[2].

ولندع الشيخ يحدثنا عن بدايات الأمر ومراحله، قال: «كان التعليم المسجدي بقسنطينة قاصراً على الكبار، ولم يكن للصغار إلا الكتاتيب القرآنية؛ فلما يسّر

(١) آثار ابن باديس: ٣/ ٢٨.
(٢) تفسير ابن باديس: ٢/ ٧١٦.

الله لي الانتصاب للتعليم عام (١٣٣٢هـ) جعلت من جملة دروسي تعليم صغار الكتاتيب القرآنية بعد خروجهم منها في آخر الصبيحة وآخر العشية، فكان ذلك أول عهد الناس بتعليم الصغار. ثم بعد بضع سنوات رأى جماعة من الفضلاء المتصلين بي تأسيس مكتب- أي: مدرسة- يكون أساساً للتعليم الابتدائي العربي، فأسسناه. وكان الأخوان الفاضلان السيد العربي والسيد عمر بن مغسولة قد اشتريا مسجد سيدي بومعزة، والبناء المتصل به، وكان فوق بيت الصلاة محل للسكنى بالكراء، فأزالاه عن ذلك، وأبقياه محلاً فارغاً، فجعلناه هو محل المكتب. ثم نقلناه إلى بناية الجمعية الخيرية لاتساعها... وفي سنة (١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م) رأيت أن أخطو بالمكتب خطوة جديدة، وأخرجه من (مكتب جماعة) إلى (مدرسة جمعية) فحررت القانون الأساسي لـ (جمعية التربية والتعليم الإسلامية)، وقدمته باسم الجماعة المؤسسة إلى الحكومة فوقع التصديق عليه»[1].

وكان تأسيس (جمعية التربية والتعليم الإسلامية) بقسنطينة، سنة (١٣٤٩هـ) قبل تأسيس (جمعية العلماء الجزائريين) بأقل من عام. ودعا الشيخ إلى تأسيس مثل هذه الجمعية، أو تأسيس فروع لها في أنحاء الجزائر.

وقد كانت تضم في عام (١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م) أكثر من (٨٠٠) تلميذ وتلميذة. وكانت مدرسة الجمعية لصغار التلاميذ، وأما الكبار من الشباب الذين عني الشيخ بهم ويقوم على تربيتهم وتعليمهم، فإن تعليمهم يكون في الجامع الأخضر وغيره، بصورة منظمة، وفي عام (١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م) كان الشيخ يشرف على نحو من (٣٠٠) طالب، في الجامع الأخضر، تدريساً وقياماً على شؤون المبيت والإطعام ونحوه؛ لأن

(١) آثار ابن باديس: ٣/ ٢٦٨- ٢٦٩.

أكثر الطلبة كانوا من غير أهل مدينة قسنطينة. وهؤلاء غير الذين تخرجوا، من عند الشيخ، وأرسل كثيراً منهم إلى تونس للدراسة في جامع الزيتونة[1].

ولما أسست جمعية العلماء الجزائرين عام (١٣٤٩هـ-١١٩٣١م) وكان الشيخ يرأس مجلس إدارتها توسع مشروع الإصلاح في فتح المدارس، حتى قدر عدد المدارس التي أسستها الجمعية إلى عام (١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م) بسبعين (٧٠) مدرسة تعليمية في أنحاء الجزائر، وقدر عدد التلاميذ بحوالي ثلاثين ألف (٣٠،٠٠٠) تلميذ مابين فتى وفتاة.

**ومن أهم المعالم التي يتميز بها منهج الشيخ في تربيته وتعليمه ما يأتي:**

(١) التربية على القرآن والسنة وسيرة السلف، وذلك نابع من يقين الشيخ بأن القرآن والسنة هما مصدرا الهداية والإصلاح، وأن المجتمع إذا رسخ فيه أن القرآن والسنة هما مصدرا التلقي، وأنهما المرجع لكل مسلم، وأنهما المعيار في صلاح الأمور وفسادها، وأن التعليق بهما لا بحامليها، وأن الهداية بهما لا بغيرهما، وأن خير من فهمها واهتدى بهديهما السلف الصالح، وأنه لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها سهل بعد ذلك على المصلح أن يقنع الناس بما يريد مما هو في كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة رسوله ﷺ. . . وقد سبق الحديث آنفاً عن الدعوة بالقرآن والسنة.

وأما سيرة السلف الصالح فقد كان الشيخ ينشر مقالات في (الشهاب)، يترجم فيها لبعض الصحابة رضي الله عنهم رجالاً ونساءً، ثم نشرت المقالات بعنوان (رجال السلف ونساؤه)، كما كان يترجم لغيرهم من أعلام الإسلام من السلف والخلف، جمعت تحت عنوان (تراجم أعلام).

---

(١) المرجع السابق: ٣/ ٢٢٩.

(٢) رأى الشيخ أن يركز على تربية الطلاب أكثر من توسعه في تعليمهم، فلم يقتصر على مجرد التعليم وتلقين المعرفة؛ بل سعى مع ذلك إلى التربية على هذا العلم وبناء النفوس من جميع جوانبها؛ لتكون متسلحة بالإيمان، والعلم، والفكر الصحيح، والخلق القويم، وآخذة بأسباب العمل والحضارة، وناهضة بالدعوة والإصلاح.

ولما أسس الشيخ (جمعية التربية والتعليم الإسلامية) نصَّ في قانونها على أن هدف الجمعية نشر الأخلاق والمعارف والصنائع اليدوية بين أبناء المسلمين وبناتهم. وأسس لذلك الوسائل التي تحقق الهدف، ومنها مدرسة، وناديا للمحاضرات، وملجأ للأيتام، ومعملاً للصنائع[١].

وإنما سلك الشيخ هذا السبيل في التعليم لأن التربية هي نقطة الارتكاز في التخطيط للإصلاح، كما قال البشير الإبراهيمي: «كانت الطريقة التي اتفقنا عليها أنا وابن باديس في اجتماعنا في المدينة في تربية النشء هي: ألا نتوسع له في العلم، وإنما نربيه على فكرة صحيحة ولو مع علم قليل، فتمت لنا هذه التجربة في الجيش الذي أعددناه من تلامذتنا»[٢].

(٣) لم يقتصر الشيخ في التربية والتعليم على أبناء قسنطينة؛ بل سعى إلى أن يبني قاعدة عريضة من الذين يتربون على المنهج الإسلامي الصحيح، والذين يكونون مؤثرين في الإصلاح أو داعمين له على مستوى الجزائر كلها، لا على مستوى قسنطينة وحدها؛ ولذا كان الشيخ يعلن في جولاته ورحلاته إلى أنحاء الجزائر عن نشاطه التربوي، والدروس العلمية التي يتلقاها الطلبة في قسنطينة، ويحث الناس على

---

(١) آثار ابن باديس: ٣/ ١٨٤-١٨٥.

(٢) آثار الإمام البشير الإبراهيمي: ٥/ ٢٨٠.

إرسال أبنائهم إليها للتعلم، كما يحث شيوخ الطرق الصوفية على إرسال تلاميذهم، وفي عام (١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م) صار الطلبة الذين يدرسون بقسنطينة يمثلون جميع مناطق الجزائر[١].

(٤) لم يقتصر على الفتيان دون الفتيات، بل جعل للفتيات نصيباً من التعليم والتربية، وهو ينطلق في ذلك من إدراكه لخطورة جهل المرأة المسلمة بدينها، أو أن يكون تعليمها من خلال المدارس التغريبية. كما ينطلق من أهمية التكوين الصحيح للمرأة في مشروع إصلاح الأمة وتكوين المصلحين، يقول في ذلك: «إذا أردنا أن نكوِّن رجالاً، فعلينا أن نكوّن أمهات دينيات، ولا سبيل لذلك إلا بتعليم البنات تعليماً دينياً، وتربيتهن تربية إسلامية. وإذا تركناهنّ على ماهنّ عليه من الجهل بالدين، فمحال أن نرجو منهن أن يكوّنّ لنا عظماء الرجال»[٢].

وافتتحت جمعية (التربية والتعليم الإسلامية) التي أسسها الشيخ بقسنطينة قسماً خاصاً لتعليم البنات، وأعفاهن من رسوم الدراسة، قال: «يتعلمن كلهن مجاناً؛ لتتكون منهن بإذن الله المرأة المسلمة المتعلمة»[٣].

وخصهن بدروس مرّة في الأسبوع في السنوات الخمس الأخيرة من حياته، كما حثَّ العلماء على أن يقوموا بمثل ذلك في مدنهم وقراهم، فساروا على نهجه.

(٥) لم يكتف الشيخ بتعليم العلوم الشرعية فحسب، مع أصالتها وأهميتها؛ بل توسع أيضاً، فكان يدرس التفسير، والتجويد، والحديث، والفقة، والعقيدة،

---

(١) آثار ابن باديس: ٣/ ١٩٨- ٢١١.
(٢) آثار ابن باديس: ٣/ ٨٩، وينظر: ٣/ ٤٦٧- ٤٧٠، وعبد الحميد ابن باديس وجهوده التربوية: ١٥١.
(٣) آثار ابن باديس: ٣/ ١٨٦.

والآداب والمواعظ، وفنون العربية من لغة ونحو وصرف وبلاغة وأدب، والمنطق، والحساب، والتاريخ، والجغرافيا[1]. وحث على تعلم العلوم النافعة والصنائع ولو كانت عند غير المسلمين، قال مخاطباً الشباب في إحدى محاضراته: «أرجوكم أيها الشباب الحازمون أن تأخذوا العلم بأي لسان كان، وعن أي شخص وجدتموه، وأن تطبعوه بطابعنا؛ لننتفع به الانتفاع المطلوب، كما أخذه الأوروبيون من أجدادنا وطبعوه بطابعهم النصراني وانتفعوا به»[2].

(٦) حرص الشيخ على أن يكون لدى الطالب القدرة الذاتية على التعلم، فدعا إلى أن تكون الدروسة العلمية لتلقي القواعد والأصول، وإكساب الملكة العلمية، ثم لا يكتفي الطالب بما يتلقاه في الدرس؛ بل ينطلق بعد ذلك في خطة ذاتية (نفسية)؛ ليوسع مداركه ومعارفه من خلال القراءة وغيرها، قال: «فهم قواعد العلم وتطبيقها حتى تحصل ملكة استعمالها، هذا هو المقصود من الدرس على الشيوخ. فأما توسيع دائرة الفهم والاطلاع فإنما يتوصل إليها الطالب بنفسه، بمطالعاته للكتب، ومزاولته للتقرير والتحرير.... فعلى الطلبة والمُتَولّين أمرَ الطلبةِ أن يسيروا على خُطةِ التحصيل الدرسي، والتحصيل النفسي؛ ليقتصدوا في الوقت، ويتسعوا في العلم، ويوسعوا نطاق التفكير»[3].

(٧) كما حرص على أن يكون لديه القدرة على التفكير. وهو يحرص كثيراً في خطاباته ومقالاته ودروسه على الدعوة إلى التفكير، وإعطاء العقل حظه من النظر والفكر في آيات الله وكونه، ويرى أن ذلك وسيلة إلى النهوض بالأمة، قال:

---

(١) ينظر: المرجع السابق: ٣/ ١٩٥، ٢٢٩.
(٢) المرجع السابق: ٤/ ٣٤٠.
(٣) المرجع السابق: ٤/ ٢٠٣.

«بالتفكير في آيات الله السمعية وآياته الكونية وبناء الأقوال والأعمال والأحكام على الفكر تنهض الأمم، فتستثمر مافي السموات وما في الأرض، وتشيد صروح المدنية والعمران»[1]. وأما في شأن طلبة العلم فقال: «إذا كان التفكير لازماً للإنسان في جميع شؤونه وكل مايتصل به إدراكه، فهو لطلاب العلم ألزم من كل إنسان. فعلى الطالب أن يفكر فيما يفهم من المسائل، وفيما ينظر من الأدلة تفكيراً صحيحاً مستقلاً عن تفكير غيره، وإنما يعرف تفكير غيره ليستعين به، ثم لا بد له من استعماله فكره هو بنفسه. بهذا التفكير الاستقلالي يصل الطالب إلى ما يطمئن له قلبه، ويسمى حقيقة علماً، وبه يأمن الوقوع فيما أخطأ فيه غيره، ويحسن التخلص منه إن وقع فيه. . . فالتفكير التفكير يا طلبة العلم؛ فإن القراءة بلا تفكير لا توصل إلى شيء من العلم، وإنما تربط صاحبها في صخرة الجمود والتقليد، وخير منهما الجاهل البسيط»[2].

وهو حينما يدعو إلى إعطاء العقل حظه من الفكر لايجعله حاكماً على كل شيء؛ بل يؤكد أنه محدود محكوم بالشرع، كما سبق بيانه في الحديث عن التعليم من مجالات الإصلاح.

(٨) كان الشيخ يربي طلابه على الإصلاح والدعوة إلى الله. وفي العطلة السنوية إذا أراد الطلاب أن يرجعوا إلى مناطقهم يطلب منهم أن يقوموا بواجب الدعوة إلى الله ونشر ماتعلموه. وعند استئناف الدراسة يطلب من كل واحد أن يقدم تقريراً عما أنجزه. وكان يشجع القائمين على ذلك ويشكرهم، وفي إحدى العطلات جاءته كتب وإفادات من بعض طلابه، فكتب في مجلة (الشهاب) بعنوان (تحية وشكر إلى أبنائي

---

(١) ينظر: المرجع السابق: ٣/ ٢٢٣.

(٢) المرجع السابق: ٤/ ٢٠٤-٢٠٥.

الطلبة): «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. جاءتني كتبكم، وأفادتني ما يسرني ويسر كل محب للعلم من استمراركم على الجد في مراجعته، والترغيب فيه، ونشر الهداية- كل بما استطاع- بين قومه وعشيرته...»[1].

(٩) كان يوجه طلابه إلى التركيز على التعلم ونشر العلم، ويحرص على ألَّا ينشغلوا بغيرهما من أمور السياسة ونحوها، ولعله يخشى أن يحصل منهم ما يثير الاحتلال، فيؤثر على خطة الإصلاح.

ويروي محمد الصالح رمضان تلميذ الشيخ ابن باديس أن باعة الكتب والمجلات والجرائد العربية يأتون عند الجامع الأخضر حين درس التفسير للبيع؛ لأنهم يعلمون أن عامة قراء العربية يحضرون هذا الدرس. وكان الشيخ ابن باديس من عادته أن يدخل المقصورة بعد الدرس ولا يخرج حتى ينصرف الناس، وفي يوم من الأيام خالف الشيخ عادته وخرج مع الناس، ولمح تلميذَه محمد الصالح رمضان يشتري عدداً من جريدة الأهرام المصرية.

وفي الغد جاء عريف المنطقة التي ينتمي إليها رمضان يقول له: إن الشيخ ابن باديس يطلبك. فتوجس رمضان خيفة وقال للعريف: أستحلفك بالله أن تخبرني بالسبب. قال العريف: أقسم لك بالله إني لا أعلم شيئاً، وإنك لم تُذكر في مجالس العرفاء بسوء أبداً.

ولما جاء رمضان سأله الشيخ ابن باديس: لماذا أتيت إلى قسنطينة؟

قال: أتيت لطلب العلم.

---

(١) ينظر: المرجع السابق: ٣/ ٢٤٢.

قال: من المسؤول عنك هنا؟ قال: العريف. قال: وقبل العريف. قال: أنت.

قال الشيخ: أنا المسؤول عنك أمام والديك وأمام باقي الناس، وقد علمتُ أنك تشتغل بأمور أخرى غير الدراسة.

قال رمضان: أتحدى كل من يتهمني بأني أشتغل بأمور أخرى غير الدراسة.

قال الشيخ: أنا الشاهد.

قال رمضان: إذن لم يبق لي كلام بما أنك أنت الشاهد وأنت الحاكم، فاحكم بما تراه مناسباً.

قال الشيخ: أنت تشتغل بالسياسة.

قال: كيف استنتجت ذلك؟

قال: رأيتك أمس اشتريت الجريدة.

قال رمضان: لولا هيبة الشيخ لضحكتُ، ثم قلت: قراءة الجريدة تعني الاشتغال بالسياسة.

قال: نعم هذه البداية وهذه الخطوة الأولى، تتبعها خطوات. وذلك المبلغ الذي اشتريت به الجريدة لو زدت عليه مبلغاً ثانياً وثالثاً لاشتريت كتاباً ينفعك في دراستك عوضاً عن الجريدة التي تُقرأ في حينها وترمى.

قال رمضان: أنا اشتريت الجريدة لأن الطلبة كانوا يتناقلون أخباراً عن مظاهرات للطلبة المصرين في القاهرة، تدخلت فيها الشرطة، ومات عدد منهم. وكان كل واحد

يروي قصة تختلف عن الآخر، فأحببت أن أتاكد، وآخذ الحقيقة من المصدر، ونحن طلبة يهمنا مايقع لإخواننا في باقي دول العالم الإسلامي.

قال الشيخ: هذا يدل على حس سياسي.

قال رمضان: أنا أعاهدك ألَّا أشتغل بالسياسة ما حييت.

قال الشيخ: أنا لم أطلب منك هذا. أنا أقول: لاتشتغل بالسياسة الآن ما دمت في دراستك، وبعد ذلك أنت حر.

وذات مرة طلب محمد الصالح رمضان من شيخه أن يُعيره كتاب (حاضر العالم الإسلامي) للمستشرق لوثروب ستودارد، وعليه تعليقات شكيب أرسلان. فسأله الشيخ ابن باديس: لمَ تريد قراءة هذا الكتاب بالذات؟ فأجاب رمضان: لأنني أسمع عن شكيب، وأراك تنشر له مقالات في (الشهاب)، فأحببت أن أقرأ مايكتب. قال الشيخ: شكيب أرسلان دائرة معارف، وأنت يا بني في بداية الطلب فقراءة كتبه تشتت لك ذهنك. فأنا أنصحك بعدم قراءة كتابه الآن[1].

وفي حفل توديع الطلبة نهاية العام الدراسي قال لهم: «اتقوا الله، ارحموا عباد الله، اخدموا العلم بتعلمه ونشره، وتحملوا كل بلاء ومشقة في سبيله، وليهن عليكم كل عزيز، ولتهن عليكم أرواحكم من أجله. أما الأمور الحكومية وما يتصل بها فدعوها لأهلها، وإياكم أن تتعرضوا لها بشيء»[2].

---

(١) ينظر في الموقفين: موضوع (الشيخ محمد الصالح رمضان كما عرفته)، في موقع: ملتقى أهل الحديث: منتدى تراجم أهل العلم المعاصرين.

(٢) ينظر: آثار ابن باديس: ٣/ ٢٢٣.

(١٠) يُعنى الشيخ بطلابه، ويظهر لهم الاحترام والتقدير، فكان يبذل لهم النصيحة، ويحسن استقبالهم في بداية الدروس السنوية، وفي نهاية السنة يجمعهم ويودعهم واحداً واحداً[١]، وكان يحرص على أن يخالطهم، ويعيش معهم، ولا يتميز عنهم بطعام، وهو في ذلك ينطلق من قاعدة تربوية في الاتصال والمعايشة بين الشيخ والتلميذ، يقررها قائلاً: «أغلب المعلمين في المعاهد الإسلامية الكبرى كالأزهر لا يتصلون بتلامذتهم إلا اتصالاً عاماً، لا يتجاوز أوقات التعليم، فيتخرج التلامذة في العلوم والفنون، ولكن بدون تلك الروح الخاصة التي ينفخها المعلم في تلميذه، إذا كانت للمعلم روح، ويكون لها الأثر البارز في أعماله العلمية في سائر حياته. . . فعلى المعلم الذي يريد أن يكوِّن من تلامذته رجالاً أن يشعرهم واحداً واحداً أنه متصل بكل واحد منهم اتصالاً خاصاً، زيادة على الاتصال العام، وأن يصدق لهم هذا، بعنايته خارج الدرس بكل واحد منهم عناية خاصة، في سائر نواحي حياته»[٢].

(١١) يستغل الشيخ في تربيته لتلاميذه المواقف التي يقعون فيها؛ ليلفتهم إلى ما يناسب المقام التنبيه إليه.

ومن ذلك ما ذكره تلميذه علي مرحوم من أن الشيخ كان يلقي درسه، فرأى أحد التلاميذ يلبس بُرنساً من قماش مصنوع في فرنسا، فقال الشيخ: ما هذا البرنس؟ أما أنا فأفضل الذي صنعته أمي على الذي صنعته ضرتها[٣].

(١) ينظر: المرجع السابق: ٣/ ٢٢٣.
(٢) المرجع السابق: ٤/ ٢٠٢.
(٣) عن: عبد الحميد ابن باديس، العالم الرباني: ٣٧.

وروى تلميذه محمد الصالح رمضان أنه كان يعير كتبه لتلاميذه، لكنه كان يشترط عليهم في ذلك شروطاً منها: عدم العطاس في الكتاب، وعدم بلِّ الأوراق بالريق عند تقليبها، وفتح الكتاب برفق حتى لا تنفصل أوراقه، وكان إذا شم رائحة الدخان في الكتاب بعد إعارته لأحد تلاميذه لا يعيره كتاباً بعد ذلك أبداً، وبعد إعادة الكتاب يسأل الشيخ تلميذه عن رأيه فيه وعمَّا استفاده منه[1].

(١٢) يُعنى الشيخ في تفسيره للقرآن الكريم وشرحه للأحاديث النبوية بالإرشادات التربوية، ويشير إلى الأصول التربوية فيهما[2].

### الوسيلة الثالثة/ الإعلام:

دخل الشيخ عالم الإعلام من خلال الصحافة، وهو يدرك ما للصحافة في وقته من دور بالغ في توعية الناس، والتأثير في توجيه الرأي واتخاذ القرار، وهو يرى تجارب صحفية سبقته سواء أكان على مستوى الجزائر أم خارجها، لها انتشارها وتأثيرها، وقد كان شغوفاً بقراءة الصحف والمجلات، كـ (المنار) لرشيد رضا، و (الفتح) لمحب الدين الخطيب، وغيرهما؛ بل كان يتابع الصحف الفرنسية، ويعجب بما لها من نظام ومهرة أقلام وجرأة وإقدام. وقد كان للصحافة الجزائرية التي سبقت تجربة الشيخ دور في الإصلاح كما سبقت الإشارة إليه في واقع الإصلاح من الفصل الأول، إلا أن ابن باديس يرى أن أول دعوة

(١) ينظر: موضوع (الشيخ محمد الصالح رمضان كما عرفته) في موقع: ملتقى أهل الحديث: منتدى تراجم أهل العلم المعاصرين.
(٢) ينظر مثلاً: آثار ابن باديس: ٢/ ٢٨٥.

للإصلاح الإسلامي في الشمال الأفريقي أعلنت على لسان الصحافة هي دعوته في جريدة (المنتقد) التي صدرت عام (١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م)(١).

ولم يدخل الشيخ عالم الصحافة إلا بعد أن حقق المرحلة الأولى من دعوته، وهي (تكوين النشء العلمي).

لقد كان الشيخ يركز في خطابه على شريحة النشء؛ لكنه بعد ذلك أراد أن يتوسع إلى شرائح أخرى بحاجة إلى خطاب، وإلى أهداف أخرى بحاجة إلى تحقيق.

إن ثمة صوتاً للشيخ يريد أن يجلجل في الجزائر كلها؛ ليخاطب الجميع ويسمعه الجميع ويتأثر به الجميع، حتى الاحتلال. ووجد أن هذا الصوت لا يبلغه غير الصحافة.

قال ابن باديس: «مضينا على مارسمنا من خطة، وصمدنا إلى ما قصدنا من غاية، وقضيناها عشر سنوات في الدرس؛ لتكوين نشء علمي، لم نخلط به غيره من عمل آخر، فلما كملت العشر، وظهرت - بحمد الله - نتيجتها، رأينا واجباً علينا أن نقوم بالدعوة العامة إلى الإسلام الخالص والعلم الصحيح، إلى الكتاب والسنة وهدي صالح سلف الأمة، وطرح البدع والضلالات ومفاسد العادات، فكان لزاماً علينا أن نؤسس لدعوتنا صحافة، تبلغها للناس، فكان (المنتقد) وكان (الشهاب). ونهض كُتّاب القطر ومفكروه في تلك الصحف بالدعوة خير قيام، وفتحوا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ أعيناً عمياً وآذاناً صمّاً وقلوباً غلفاً»(٢).

---

(١) المرجع السابق: ٣/ ١٢٦، و ٤/ ٣٥٢.
(٢) المرجع السابق: ٣/ ٢٨.



وكان أول أمره شارك في صحيفة (النجاح) وتحريرها عام (١٣٣٧هـ/ ١٩١٩م) على أنها صحيفة إصلاحية؛ لكنَّ آمال الشيخ في الصحيفة لم تتحقق، فلم تكن لتتحمل الصحيفة جرأة الشيخ وقوله في الإصلاح، فتركها، وكان يكتب مقالاته باسم (القسنطيني، العبسي، الصنهاجي).

ثم استقل الشيخ بتأسيس صحيفة (المنتقد) عام (١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م)، وكان شعارها الذي يظهر في رأس الجريدة كل عدد (الحق فوق كل أحد، والوطن قبل كل شيء)، وتولى الشيخ رئاسة تحريرها، وأسند إدارتها لأحمد بوشمال.

وقد أراد الشيخ أن تكون الصحيفة منبراً لتغذية العقول وإصلاح العقائد ومحاربة البدع خصوصاً تقويم المعوج من الأخلاق والفاسد من العادات، ونقد فساد المسؤولين ومناهضة المستبدين ونصر المظلومين[1].

واختيار اسم (المنتقد) تعبير عن توجه الصحيفة الغالب، فكانت اللغة ناقدة صدامية؛ ولهذا لم تكن لترضي المستبدين الظالمين والمتنفذين من الدجالين والمنقودين، فأوقفت الصحيفة بعد (١٨) عدداً.

لم يستسلم الشيخ فحاول مرة أخرى، وأصدر صحيفة (الشهاب) بعد إغلاق (المنتقد) بمدة يسيرة، حيث صدر أوّل عدد منها عام (١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م)؛ لكنه أفاد من تجربة (المنتقد)، فتغيرت اللغة الصدامية، وغلب عليها التوجه العلمي الشرعي والتربوي، وتغير الشعار الناقد إلى شعارين آخرين؛ واحد إصلاحي تربوي يتضمن مقولة الإمام مالك - رحمه الله -: (لايصلح آخر هذه الأمة إلا بما

---

(١) ينظر: آثار ابن باديس: ٣/ ٢٧٩-٢٨١،و٤/ ٣٥٢.

صلح به أولها)، وثان سياسي: (الحق والعدل والمؤاخاة في إعطاء جميع الحقوق للذين قاموا بجميع الواجبات). إلا أن الشيخ غير الشعار بعد عودته من فرنسا مع وفد المؤتمر الإسلامي خائبين بعد تهديد وزير الدفاع الفرنسي ليصبح: (فلنعتمد على أنفسنا ونتكل على الله).

وكانت (الشهاب) صحيفة أسبوعية، ثم تحولت إلى مجلة شهرية سنة (١٣٤٧هـ/ ١٩٢٩م) بسبب ضعف الموارد المالية. وكانت تحتوي افتتاحية، ومقالات، وفتاوى، وقصصاً، وأخباراً، وطرائف، وتراجم، وعرضاً للكتب، والصحف العربية، والأجنبية، وتنشر مقالات وقصائد للكتاب والشعراء من مصر ولبنان وتونس والمغرب، كما تنشر مقتطفات مما تنشره بعض الصحف في العالم الإسلامي، وكان الشيخ في السنوات الأولى يكتب معظم المقالات، ويقوم بتصميمها، ويوزعها بنفسه.

وكان لها شهرة واسعة في العالم الإسلامي، وشهد بفضلها وأثرها العلماء والمصلحون، من ذلك الكلمة التي كتبها حسن البنا في افتتاحية العدد الأول من مجلة الشهاب المصرية التي أسسها في القاهرة في نهاية الأربعينيات قال فيها: «قامت مجلة (الشهاب) الجزائرية التي كان يصدرها الشيخ عبد الحميد ابن باديس - رحمه الله - في الجزائر بقسط كبير من هذا الجهاد، مستمدة من هدي القرآن الكريم وسنة النبي العظيم سيدنا محمد ﷺ. وإنا لنرجو أن تقفو الشهاب المصرية الناشئة أثرها وتجدد شبابها، وتعيد في الناس سيرتها في خدمة دعوة القرآن وتجلية فضائل الإسلام، على أن الفضل للمتقدم وفضل السبق ليس له كفاء». وكتب المفكر السوري الدكتور محمد

المبارك في مجلة المجمع العلمي الدمشقية أنه كان يطالع في شبابه في الثلاثينيات مجلة (الشهاب) الجزائرية، التي تصل إلى دمشق مع مجموعة من أصدقائه الطلبة بلهفة شديدة. وعن تأثيرها في المغرب، يقول الشيخ محمد غازي أحد علماء فاس: «مجلة الشهاب الغراء . . . خدمت الإسلام والمسلمين عموماً والإصلاح والمصلحين خصوصاً، تلك الجريدة التي كان الشمال الأفريقي متعطشاً لمثلها منذ زمان»[1].

ولما أعلنت الحرب العالمية الثانية أوقف ابن باديس مجلة (الشهاب) عام (١٩٣٩م) حتى لا تكون أداة بيد السلطات الفرنسية التي وضعت الصحف تحت إشرافها المباشر بموجب قوانين الحرب[2].

وفي غير (الشهاب) شارك ابن باديس في تحرير الصحف التي كانت تصدرها جمعية العلماء المسلمين الجزائرين لما تأسست في عام (١٣٤٩هـ/ ١٩٣١م)، وغالباً ما يكتب افتتاحياتها، وهي (السنة النبوية المحمدية) وصدر عددها الأول في (٨/ ١٢/ ١٣٥١هـ- ١/ ٣/ ١٩٣٣م)، ثم (الشريعة النبوية المحمدية) وصدرت بعد توقيف جريدة السنة، وكان أول عدد في (٢٤/ ٣/ ١٣٥٢هـ - ١٧/ ٦/ ١٩٣٣م)، وأوقفت، ثم (الصراط السوي) صدرت في (٢١/ ٥/ ١٣٥٢هـ- ١١/ ٩/ ١٩٣٣م)، وأوقفت في (٢٢/ ٩/ ١٣٥٢هـ - ٨/ ١/ ١٩٣٤م)، ثم (البصائر) من بدء صدورها في (١/ ١٠/ ١٣٥٤هـ - ٢٧/ ١٢/ ١٩٣٥م).

ومما يلحظ على عمل ابن باديس الإعلامي اهتمامه بالشعارات، التي تحمل رسائل قصيرة ذات معان إصلاحية عظيمة، يهدف منها الشيخ ترسيخ المفاهيم الإصلاحية في

---

(١) ينظر: ابن باديس والعمل الإعلامي، مقالة في موقع: الإمام عبد الحميد ابن باديس، وينظر: آثار ابن باديس: ٤/ ٣٥٤-٣٥٧.

(٢) ينظر: آثار ابن باديس: ١/ ٥٩، وآثار الإمام البشير الإبراهيمي: ٥/ ٢٨٥.

أذهان القراء. وقد كان كل شعار يعكس المرحلة الذي تمر بها الدعوة الإصلاحية، كما رأيناه غيّر شعار (الشهاب) بعد عودته من فرنسا.

ويحرص من خلال الصحافة أن يكوّن رأياً عامّاً في بعض الموضوعات التي يريد أن تشيع بين الناس ويتبنونها، كإنشاء جمعية للعلماء المسلمين، ومن ذلك حثه الكتاب على طرق تعلم القرآن وتعليمه من نواح عديدة، قال: «وكل من هذه النواحي يلزم أن تتعدد فيها الكتابة؛ حتى تحدث تأثيراً في المجتمع، وتكوّن رأياً عاماً في الموضوع»[1].

كما كان حريصاً على الإعلان عن حركة التعليم ودروسه العلمية في قسنطينة، فيعلن عن بدء دروسه، ويصدر في نهاية كل سنة تقريراً عنها، ويعلنه للأمة الجزائرية «إدخالاً للسرور على قلوبها، وبعثاً للنشاط فيها» كما يقول، ويتضمن التقرير أسماء الطلاب ومناطقهم، والعرفاء، والمعينين، والأطباء، والمتبرعين، وتقريراً مالياً للوارد والمصروف، ويشفع بصور توضيحية، كما يعلن عن أعمال جمعية التربية والتعليم وإنجازاتها[2].

### الوسيلة الرابعة/ تأسيس الجمعيات:

على الرغم من الجهود الفردية المتواصلة التي كان الشيخ يقوم بها، إلا أنه كان يؤمن بأهمية العمل الجماعي، وإنشاء جمعيات منظمة تجمع الطاقات وتوحد الصفوف وتوجه الجهود وتتولى الإصلاح، وفي هذا يقول: «إنما ينهض المسلمون

---

(١) آثار ابن باديس: ٢/ ٣١٩.

(٢) ينظر المرجع السابق: ٣/ ١٩٥و١٩٨و٢٢٣و٢٢٩و٢٦٤و٢٦٨.

بمقتضيات إيمانهم بالله ورسوله إذا كانت لهم قوة، وإنما تكون لهم قوة إذا كانت لهم جماعة منظمة، تفكّر وتدبّر، وتتشاور وتتآزر، وتنهض لجلب المصلحة ولدفع المضرّة، متساندة في العمل على فكرة وعزيمة»[1].

ويذكر بعض المؤرخين لحياة الشيخ أن له جهوداً متعددة في تأسيس الجمعيات المتنوعة، سواء أكانت علمية أم شبابية أم تجارية خيرية، كإسهامه في تأسيس جمعيات كشفية، واختارته بعض أفواجها رئيساً شرفياً لها. وإسهامه في تأسيس جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين. وإسهامه في تأسيس جمعية الشباب الفني، واختير الشيخ رئيساً شرفياً لها، ولها عناية بالفن التمثيلي للدعوة إلى محاسن الأخلاق وتجنب مساوئها. وإسهامه في تأسيس جمعية تجار قسنطينة؛ لكسر السيطرة اليهودية على التجارة والصناعة[2].

وأهم الجمعيات التي أسسها الشيخ وأعطاها من همه وجهده وصارت جزءاً من حياته جمعيتان: جمعية العلماء المسلمين، وجمعية التربية والتعليم الإسلامية بقسنطينة.

أما الأولى (جمعية العلماء المسلمين) فقد وضع - رحمه الله - من أهدافه المهمة في خطته الإصلاحية منذ بدئها: تأسيس جمعية للعلماء، تجمع شملهم، وتوجّه جهودهم، ويحقق من خلالها أهدافه الإصلاحية. فكانت جمعية العلماء هدفاً مرحلياً مهماً؛ ليتخذها أيضاً وسيلة في تحقيق الأهداف. وقد ذكر البشير الإبراهيمي أن الليالي الأولى التي كان يسمر فيها هو وابن باديس للتخطيط للإصلاح وضعت

(١) آثار ابن باديس: ١/ ٣٧٠.

(٢) ينظر: عبد الحميد ابن باديس، العالم الرباني: ١١٦-١٢١.

جمعية العلماء هدفاً لهم، قال: «وأشهد الله على أن تلك الليالي من سنة ١٩١٣م هي التي وضعت فيها الأسس الأولى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي لم تبرز للوجود إلا في سنة ١٩٣١م»[١].

وفي عام (١٣٤٢هـ/ ١٩٢٤م) تدارس ابن باديس مع البشير الإبراهيمي في سطيف تأسيس جمعية للعلماء باسم (الإخاء العلمي)، لكن هذا المشروع لم يتيسر قيامه؛ لعدم توفر الظروف المناسبة، إذ لابد له من زمن واسع، حتى يختمر وتتهيأ له الظروف، وتأنس إليه نفوس العلماء، وتقتنع به[٢].

وحتى يأتي اليوم المناسب مهد له الشيخ وأصحابه بحملة إعلامية لتكوين رأي عام للتوجه نحو إنشاء جمعية تجمع شمل العلماء، فبث من خلال الصحافة الدعوة إلى اجتماع الكلمة وتوحيد الصف وتأسيس جمعية للعلماء، وصار يكرر ويعيد هو ومؤيدوه من أهل الإصلاح هذه المعاني بصور شتى، وقد حملت (الشهاب) هذه المهمة بقوة، ومن مقالات الشيخ قوله في العدد الثالث من الشهاب (٩/ ٥/ ١٣٤٤هـ): «أيها السادة العلماء المصلحون المنتشرون بالقطر الجزائري، إن التعارف أساس التآلف، والاتحاد شرط النجاح، فهلموا إلى التعارف والاتحاد بتأسيس حزب ديني محض»، وتتوالى المقالات المرحبة بالفكرة والمؤيدة لها، ففي العدد التاسع (٢١/ ٦/ ١٣٤٤هـ) كتب أحدهم مرحباً بهذا الاقتراح، وفي عدد لاحق (١/ ٢/ ١٣٤٦هـ) كتب آخر قائلاً: «يجب تأسيس حزب إصلاحي ديني، يكون مركزه العاصمة، وله فرعان: أحدهما بقسنطينة، والآخر بوهران» وغيرها من المقالات.

---

(١) آثار الإمام البشير الإبراهيمي: ٥/ ٢٧٨.

(٢) ينظر: آثار ابن باديس: ١/ ١٨٤-١٨٥.



وبعد سبع سنوات من محاولته الأولى تهيأت العوامل لتأسيس جمعية على مستوى الوطن، ومن أبرز هذه العوامل:

١. انتشار صوت الإصلاح وقوة الدعوة إليها على ألسنة المصلحين من داخل الجزائر ومن خارجها، وفي الصحافة الإصلاحية الجزائرية وغيرها التي انتشرت في أنحاء الوطن.

٢. تأثر كثير من أهل العلم بالدعوة إلى الاجتماع والتوحد.

٣. وجود قاعدة قوية ومنتشرة من طلبة الشيخ.

٤. عودة كثير من الشيوخ وطلبة العلم المؤيدين للإصلاح إلى الوطن.

٥. استثمار الشيخ لحادثة مقاطعة الشعب الجزائري لاحتفالات السلطات الفرنسية المئوية على احتلال الجزائر عام ١٩٣٠م، وقد كان من المقرر له أن يدوم ستة أشهر، لكنها اضطرت إلى تقليصه إلى شهرين بسبب مقاطعة الشعب الجزائري لها وغضبه منها. فكانت هذه فرصة تاريخية لأن يتقدم ابن باديس بطلب التصريح للجمعية، وأن توافق سلطات الاحتلال لتلطف الأجواء بينها وبين الشعب الغاضب[١].

تنادى أهل الإصلاح إلى اجتماع عام للعلماء لتأسيس جمعية لهم، وحدد الموعد الساعة الثامنة صباح يوم الثلاثاء (١٧/ ١٢/ ١٣٤٩هـ =٥/ ٥/ ١٩٣١م) في نادي الترقي بالعاصمة.

---

(١) ينظر: جمعية العلماء المسلمين: ٧٥، و مقال: ابن باديس، الابتعاد عن السياسة لأجل الإصلاح، في موقع: الإمام عبد الحميد ابن باديس.

وفي ذلك اليوم حضر العلماء، وأقروا القانون الأساسي للجمعية المعد سلفاً، وتوالت الاجتماعات التأسيسية لمدة أربعة أيام، وكان ابن باديس غائباً في اليومين الأولين، ومع ذلك انتخب رئيساً للجمعية، ولعل غيابه كان بتخطيط مسبق، ندركه من قول البشير الإبراهيمي عن تأسيس الجمعية: «دعونا فقهاء الوطن كلهم، وكانت الدعوة التي وجهناها إليهم صادرة باسم الأمة كلها، ليس فيها اسمي ولا اسم ابن باديس، لأن أولئك الفقهاء كانوا يخافوننا لما سبق لنا من الحملات الصادقة على جمودهم... فاستجابوا جميعاً للدعوة، واجتمعوا في يومها المقرر، ودام اجتماعنا في نادي الترقي بالجزائر أربعة أيام... وانتخبوا ابن باديس رئيساً»[1].

وقد صارت الجمعية القناة المهمة لتحقيق المشروع الإصلاحي في مجالاته المتنوعة، والحديث عنها يحتاج إلى بحث مستقل[2]. كما أنها أصبحت نقطة تحول في حركة الشيخ نحو مواجهة الاحتلال بقوة الخطاب[3].

---

(١) آثار الإمام البشير الإبراهيمي: ٥/ ٢٨١.

(٢) ينظر في الحديث عن (الجمعية) وجهودها الإصلاحية: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، لمازن مطبقاني.

(٣) وكان من أعظم إنجازات هذه الجمعية:

١. محاربة البدع والخرافات، وتطهير عقائد الإسلام وعباداته من الانحراف والضلال.
٢. إحياء تاريخ الإسلام.
٣. الشروع العاجل في تعليم العربية للصغار، ودعوة كل المتخرجين من الزيتونة للإسهام في هذا العمل.
٤. إبراز فضائل الإسلام: إيثار العزة والنفور من الذلة، بذل المال والنفس في سبيل الدين، نشر التآخي بين أفراد المجتمع، ومحاربة الرذائل التي شجعها الاستعمار.
٥. المطالبة باستقلال المساجد والأوقاف عن الدولة وإلحاقها بالجمعية.
٦. أنشأت الجمعية الصحف والمجلات لتبصير الشعب بحقوقه وواجباته، كما أنشأت المدارس والمعاهد العليا.

أما (جمعية التربية والتعليم الإسلامية بقسنطينة) فإن الشيخ أسسها عام (١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م) قبل تأسيس جمعية العلماء بأقل من عام.

وأسسها بتصريح من سلطات الاحتلال. وشارك الشيخَ في تأسيسها جماعة من أهل العلم وطلبته، واختير الشيخ لرئاستها.

ودعا إلى تأسيس مثل هذه الجمعية، أو تأسيس فروع لها في أنحاء الجزائر.

وقامت الجمعية بجهد وإشراف مباشر من الشيخ، ومع ذلك فإن الشيخ بناها على أسس من العمل الجماعي، تظهر معالمه فيما يلي[1]:

- تتكون إدارة الجمعية من عشرة أعضاء برئاسة الشيخ، ونائب له، وأمين للمال، ونائب له، وكاتب بالعربية وكاتب بالفرنسية، وأربعة أعضاء.
- حددت لها أهداف تقوم على نشر الأخلاق الفاضلة، والمعارف الدينية، والعربية، والصنائع اليدوية، بين أبناء المسلمين وبناتهم.
- حددت وسائل لتحقيق الأهداف، وهي: تأسيسُ مكتب للتعليم، وملجأ لإيواء اليتامى، ونادٍ للمحاضرات، ومعملٍ للصنائع. وإرسال التلاميذ للكليات والمعامل.
- تكوين صندوق الطلبة لإدارة الشؤون المالية، ويتولاه أمين المال.
- تأسيس قسم للشبان من أعضاء الجمعية، سنة (١٩٣٣م)، يشارك ببعض المهام التعليمية والدعوية، ورأى الشيخ أن من حقهم أن يحظوا بالتربية والتعليم على وجه يناسبهم، فأسس لهم درساً خاصاً بهم في

(١) آثار ابن باديس: ٣/ ١٨٤.

يوم الأحد من كل أسبوع، يلقيه على مجموعتين، واحدة في النهار والأخرى في الليل لكونها لاتتفرغ بالنهار.

- تكوين لجنة للطلبة من أعضاء الجمعية تعنى بالطلبة وتراقب سيرهم وتشرف على الصندوق المالي.
- تتكون الموارد المالية مما يدفعه أعضاء الجمعية وهو فرنكان شهرياً، وتبرعات المحسنين، واشتراكات الطلاب القادرين، والإعانة الحكومية، وبعد إنشاء جمعية العلماء صارت تتلقى إعانات منها.
- تتكون مدرسة الجمعية من قسمين: للبنين، والبنات.
- التعليم باللغتين: العربية والفرنسية.
- للمدرسة نظام، وناظر، ومعلمون، وطبقات وصفوف يتوزع عليها الطلاب.

وفي عام (١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م) كانت الجمعية تضم نحو (٨٠٠) تلميذ وتلميذة، ونحو (٧٠) من كبار الطلبة، ومصنعاً للنسيج.

وصار الشيخ بعد ترشيحه لإدارة جمعية العلماء يدير جمعيتين، تمارسان عملاً جماعياً، أحدهما (جمعية العلماء المسلمين) يرأس مجلس إدارتها باعتباره عضواً منتخباً فيه، وقام عليها حق قيام. والثانية: يرأسها باعتباره المؤسس الأبرز لها، بل صارت جزءاً من روحه، يصعب عليه التخلي عنها، ويمارس من خلالها أهدافه التعليمية التربوية.

## الوسيلة الخامسة/ الجولات والرحلات:

لم يكتف الشيخ بما كان يقدمه في قسنطينة، أو بما كان يقدمه للوطن كله من خلال الصحافة، والتلاميذ الذين جاؤوا من أرجائه؛ بل كان يقوم بنفسه في العطلة السنوية وفي يومي الراحة الأسبوعية بجولات ورحلات إلى مختلف مناطق البلاد، وكان يأخذ معه بعض تلامذته. وربما كانت الرحلة إلى بلدة مابدعوة من أهلها. وربما كانت الجولة بانتداب من جمعية العلماء لعدد من أهل العلم ومنهم ابن باديس، وقد سلكت الجمعية هذه السبيل في نشر الدعوة إلى الله، ويذكر البشير الإبراهيمي عن نفسه، وكان مشرفاً لجمعية العلماء على مقاطعة وهران، أنه يخرج في فترة العطلة الصيفية للجولات في المقاطعة، مدينة مدينة، وقرية قرية، فيلقي في كل مدينة درساً أو درسين، ويتفقد شعب الجمعية ومدارسها، حتى تنقضي العطلة[1].

وكان من أبرز أهداف الجولات وفوائدها:

١. التعرف على أحوال العباد وما يحصل في البلاد؛ ليكون التخطيط للإصلاح عن مشاهدة وإدراك للحال.

٢. دعوة الناس خارج قسنطينة ووعظهم وإرشادهم ومعالجة منكراتهم عن قرب، من خلال إلقاء المحاضرات والدروس والمواعظ، في المساجد والنوادي والمجالس وأماكن العمل والمناسبات.

٣. التواصل مع أهل العلم وحثهم على المشاركة في الإصلاح وتحمل مسؤولية العلم والقيام بواجب البلاغ ونشر الدعوة.

---

(١) ينظر: آثار الإمام البشير الإبراهيمي: ٥/ ٢٨٤.

٤. التواصل مع التجار والموسرين وحثهم على الإنفاق في وجوه الخير، وعلى المشاركة في جهود الإصلاح بالتبرع من أموالهم.

٥. الإعلان عن النشاط العلمي والتربوي في قسنطينة، وكان يحث الناس وشيوخ الطرق الصوفية على إرسال أبنائهم وتلاميذهم للتعلم.

٦. الإصلاح بين الناس وإزالة ما بينهم من فرقة، والحث على التعاون والتآخي والاتفاق بين المسلمين والبعد عن أسباب الافتراق.

٧. حث الناس على بناء الجوامع والمدارس في مدنهم وقراهم، كما يحثهم على العمل وعدم القعود، بالفلاحة والتجارة والصناعة.

٨. التعريف بجمعية العلماء ومقاصدها ومنافعها، وحث أهل العلم على المشاركة فيها ودعم جهودها.

٩. التعريف بمجلة (الشهاب) وحث الناس على الاشتراك فيها ودعمها.

وكان يدعو الناس إلى التزام الأمن والنظام والقوانين، وربما زار ممثل الحكومة في البلدة إن كان فيها ممثل، وربما تحدث عن فضل الحكومة بإذنها لجمعية العلماء؛ لأن الشيخ يدرك أنه أينما اتجه فإن عيون الاستعمار ترقبه، وقد كانت الصحف الفرنسية تتابع رحلاته وتنشر عنها، فكان الشيخ يحاذر العدو ويطمئنه، كما أن في التزام الأمن أماناً لجهود الإصلاح، واجتناباً لأي فرصة يريد العدو أن ينفذ من خلالها للقضاء عليه.

وكان الشيخ يجد من الناس رغبة ومحبة، والتفافاً عليه واستماعاً إليه، ويقرأ على وجوههم سمات القبول والإذعان، وكان كلهم أو جلهم منتمين للطرق[1].

(١) ينظر: آثار ابن باديس: ٤/ ٢٩٧.

كما يجد أحياناً إيذاءً من بعض المتسبين إلى الفرق، ومحاولات منهم لمنعه عن إلقاء الدروس والمحاضرات[1].

وفي مجلة (الشهاب) تسجيل لعدد من الرحلات التي قام بها الشيخ، ولقد زار كثيراً من بلدات الجزائر؛ بل لعله جاب أنحاء الجزائر كلها[2].

**الوسيلة السادسة/ المقاومة السياسية:**

لم يكن للشيخ وهو العالم المصلح إلا أن يسلك مسالك السياسة، ويخوض غمارها، ولا بد من ذلك لمن رام إصلاح أمة وسعى في استقلالها، وهي ترزح تحت احتلال بغيض، يناصره ساسة منحرفون، وقد تناول الشيخ هذه المسألة في إحدى محاضراته، فقال: «كلامنا اليوم عن العلم والسياسة معاً، وقد يرى بعضهم أن هذا الباب صعب الدخول؛ لأنهم تعودوا من العلماء الاقتصار على العلم والابتعاد عن مسالك السياسة، مع أنه لابد لنا من الجمع بين السياسة والعلم، ولا ينهض العلم والدين حق النهوض، إلا إذا نهضت السياسة بجد»[3]، وقال متحدثاً عن جمعية العلماء: «لو أردنا أن ندخل الميدان السياسي لدخلناه جهراً، ولضربنا فيه المثل بما عرف عنا من ثباتنا وتضحيتنا، ولقدنا الأمة كلها للمطالبة بحقوقها، ولكان أسهل شيء علينا أن نسير بها على مانرسمه لها، وأن نبلغ من نفوسنا إلى أقصى غايات التأثير عليها، فإن مما نعلمه ولا يخفى على غيرنا أن القائد الذي يقول للأمة: (إنك مظلومة في حقوقك، وإنني أريد إيصالك إليها) يجد منها ما لا يجده من يقول لها: (إنك ضالة عن أصول دينك، وإنني أريد هدايتك).

---

(١) ينظر: صراح بين السنة والبدعة: ١/ ١٥٢.

(٢) آثار ابن باديس: ٤/ ٢٩٧-٣٢٤، و ٣٣٧-٣٤١، وعبد الحميد ابن باديس، العالم الرباني: ٦٤-٦٨.

(٣) آثار ابن باديس: ٤/ ٣٣١.

فذلك تلبيه كلها، وهذا يقاومه معظمها أو شطرها . . . ثم ما العيب الذي يعاب به العلماء المسلمون إذا شاركوا في السياسة؟ فهل خلت المجالس النيابية الكبرى والصغرى من رجال الديانات الأخرى؟ وهل كانت الأكادمية الفرنسية خالية من آثار الوزير القسيس رشيلو؟ أفيجوز الشيء ويحسن إذا كان من هنالك، ويحرم ويقبح إذا كان من هنا؟ كلا لا عيب ولا ملامة»[1].

وقد نص قانون جمعية العلماء الجزائريين على الابتعاد عن السياسة وعدم الاشتغال بها، وهذا منها حسن سياسة؛ إلا أنها جعلت لأعضائها الحرية أن يخوضوا ميدان السياسة بصفتهم الشخصية، ولذا كان الشيخ يكفي الجمعية هذا الأمر على صفحات (الشهاب) باعتبارها لا تنسب إلى الجمعية، ويتحدث باسمه الشخصي، لا باسم الجمعية، مع أنه رئيسها.

وفي أول عدد لـ (المنتقد) أعلن الشيخ عن مبادئ الصحيفة، وكان منها المبدأ السياسي، وذكر أن مبدأه قائم على «المحافظة التامة على جميع مقوماتنا ومميزاتنا كأمة لها مقوماتها، والمطالبة بجميع حقوقنا السياسة والاجتماعية لجميع طبقاتنا دون الرضى بأي تنقيص أو أي تمييز»[2].

ولما أصدر صحيفة (الشهاب) جعل لها شعاراً سياسياً يقول: (الحق والعدل والمؤاخاة في إعطاء جميع الحقوق للذين قاموا بجميع الواجبات)[3].

---

(١) المرجع السابق: ٣/ ٢٩٥.
(٢) المرجع السابق: ٤/ ٣٦١
(٣) ينظر: المرجع السابق: ٣/ ٣٢٩.

وكان يدعو فرنسا إلى تشريك الجزائرين سياسياً واقتصادياً في إدارة شؤون الوطن الجزائري[1]. ويطالب بمساواة الجزائريين بالفرنسيين في الحقوق السياسية، مع المحافظة على الشخصية الإسلامية[2]، وهو بذلك يعارض النواب المتفرنسين الذين يطالبون بالمساواة في الحقوق السياسية بين الفرنسيين والجزائرين، ولو على حساب التخلي عن الشخصية الإسلامية[3].

وعارض بقوة وصلابة إدماج الجزائر في فرنسا، وتجنيس الجزائريين بالفرنسية. ولما دعا بعض النواب وغيرهم إلى الاندماج، وادعى بعضهم أنه فتش عن القومية الجزائرية في بطون التاريخ فلم يجد لها أثراً، وقال بعضهم: فرنسا هي أنا، كتب الشيخ قائلاً: «إن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تريد أن تصير فرنسا، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد، في لغتها، وفي أخلاقها، وفي عنصرها، وفي دينها، لا تريد أن تندمج، ولها وطن محدود معين هو الوطن الجزائري»[4].

وكتب مقالة بعنوان (كلمة صريحة) رد فيها على دعاة الاندماج، وأكد فيها على الاحتفاظ بالكيان العربي الإسلامي فوق أرض الآباء والأجداد، مع الاحترام التام للسلطة والخضوع لقوانين البلاد[5]. ثم بعد هذه المقالة كتب خصوم الشيخ ردوداً على مقالته، اتهموه فيها بالسعي إلى الاستقلال، وقدم بعضهم للشيخ أسئلة تدور

(١) ينظر: المرجع السابق: ٣/ ٢٨٩.
(٢) ينظر: المرجع السابق: ٣/ ٣٢٥.
(٣) ينظر: المرجع السابق: ٣/ ٣٠١.
(٤) المرجع السابق: ٣/ ٣٠٩.
(٥) المرجع السابق: ٣/ ٣٠٧.

حول تاريخ استقلال الجزائر وحدودها ووحدة لغتها، فرد عليهم الشيخ بمقال (حول كلمتنا الصريحة) قال فيها: «أرادوا أن يفهموا من كلامنا أننا نريد الاستقلال، ورأوا أنهم يحرجوننا إذا وضعوا البحث على بساط الاستقلال، حتى إذا زلت بنا القدم فوق هذا البساط الأملس استنزلوا علينا نقمة الحكومة» ثم بين «أن الاستقلال حق طبيعي لكل أمة من أمم الدنيا» و «أنه من الممكن أن يأتي يوم تبلغ فيه الجزائر درجة عالية من الرقي المادي والأدبي، وتتغير فيه السياسة الاستعمارية عامة والفرنسية خاصة، وتسلك فرنسا مع الجزائر مسلك إنكلترا مع أستراليا وكندا واتحاد جنوب أفريقيا، وتصبح البلاد الجزائرية مستقلة استقلالاً واسعاً... بإعانة فرنسا وإرادتها» وذكر أن هذا الاستقلال الذي سيكون، لا «الاستقلال الذي يتصوره خصومنا المجرمون: استقلال النار والدم»[1]، وهذا الكلام من الشيخ فيه مداراة، وإلا فإنه يضمر في نفسه شيئاً آخر كما سيأتي.

ولما كونت فرنسا لجنة استشارية من مسلمي الجزائر، تستشيرها الوزارات الفرنسية فيما يهم الجزائر، أثنى الشيخ على الفكرة؛ لكنه طالب بأن يكون أعضاؤها يمثلون طبقات الأمة الجزائرية، ولا يقتصر فيها على السياسيين والاقتصاديين، وقدم مقترحاً في تمثيل اللجنة[2].

وفي عام (١٣٥٦هـ/ يناير١٩٣٦م) دعا الشيخ في حديث له مع صحيفة (الدفاع) التي يصدرها الأمين العمودي، إلى اجتماع الأحزاب والاتجاهات الجزائرية في مؤتمر إسلامي، تكون به جبهة واحدة، ومرجعاً للأمة الجزائرية، وتتفق من

---

(١) المرجع السابق: ٣/ ٣٢٠-٣٢١.

(٢) المرجع السابق: ٣/ ٣١٠-٣١٢.

خلاله على قائمة لمطالب الجزائريين من فرنسا. وقد لبى الدعوة جمع من العلماء، والنواب والشبان والنخبة، والشيوعيين، وغيرهم، وفي (يونيو١٩٣٦م) انعقد (المؤتمر الإسلامي الجزائري)، ورُشح الشيخ لرئاسة المؤتمر، إلا أنه لم يقبل، ورشح لها الدكتور المتفرنس محمد الصالح بن جلول، رئيس كتلة النواب في قسنطينة. وسافر الشيخ إلى باريس مع وفد المؤتمر الأول عام (١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م)، ومعه من أهل العلم البشير الإبراهيمي والطيب العقبي والأمين العمودي، ومعهم عدد من أعضاء اللجنة التنفيذية للمؤتمر برئاسة ابن جلول؛ للمفاوضة باسم الشعب الجزائري مع الحكومة الفرنسية كما سافر مع الوفد الأخير عام (١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م). وكان الشيخ متحمساً للمؤتمر، ويعقد عليه آمالاً، ولعله أراد منه أن يكون تجمعاً يمثل الوطن كله، تشعر من خلاله فرنسا بالأمة الجزائرية الإسلامية، التي تطالب بحقوقها وتريد المحافظة على شخصيتها. ومن خلاله أيضاً ينفذ بمطالبه والعلماء، ويجعل لها تجمعاً سياسياً يطالب بها، بدلاً أن يكون المطالب بها أفراد أو جمعية يناصبها الاستعمار وأنصاره العداء. ويذكر مطبقاني أنه «بعد الزيارة الأخيرة لوفد المؤتمر لم تعد تذكر صحافة الجمعية - يعني: جمعية العلماء المسلمين - أو حتى صحيفة الشهاب أخباراً عن المؤتمر الإسلامي؛ وربما كان هذا الابتعاد عن المؤتمر سببه أن الجمعية شعرت أنه أصبح أداة تأييد للجبهة الشعبية والشيوعين، وغير ذي فائدة للمسلمين»[1].

وقد وجه إلى الشيخ ومن معه من العلماء انتقادات مهمة حول الدعوة إلى المؤتمر والمشاركة فيها، إذ كيف يلتقي العلماء الذين يعارضون سياسة الاندماج مع المناصرين له من النخبة وغيرهم؟! وكيف يوافق العلماء على مطالب تؤول إلى الإندماج، حتى لو جاء في المطالب النص على المحافظة على الحالة الشخصية الإسلامية؟! وكيف

---

(١) جمعية العلماء المسلمين الجزائريين: ١٨٥.

يلتقي العلماء مع الحركة الشيوعية، ويكونون سبباً في التمكين لها، مع أن العلماء كانوا يعادونها ويحذرون منها، ويرونها حركة هدامة، ولا وزن لها في الأمة؟! وإذا كان ابن باديس والعلماء يرون في المؤتمر أملاً وإصلاحاً فكيف يدعون رئاسته للانتهازين السياسين؟! وكيف يسعون لإصلاح الثمرة ثم يهيئون قطفها لغيرهم؟![1].

وثمة مواقف أخرى منها: رفضه لتأييد فرنسا في الحرب العالمية الثانية مما جعل فرنسا تفرض عليه الإقامة الجبرية. والدعوة إلى مقاطعة احتفالاتها بمناسبة مرور قرن على الاحتلال. ودعوة النواب إلى مقاطعة المجالس النيابية. فضلاً عن المقالات والبرقيات والردود والاحتجاجات على بعض القرارات، والاعتقالات، والتصريحات الفرنسية[2]، وغيرها.

ولقد امتدت مواقفه السياسية لتشمل ما هو خارج الجزائر، ومن ذلك الاحتجاج على قرار تقسيم فلسطين، وعلى الانتهاكات التي تحصل لأهلها[3].

ولما قررت الإدارة الفرنسية في تونس أن يكون من شروط التوظيف: الإلمام باللغة الفرنسية، أضرب طلبة جامع الزيتونة وتظاهروا في الطرق العامة، فكتب الشيخ مؤيداً ما فعلوا، لأنه يضرهم، وكأن القرار ماصدر إلا لإقصائهم عن الوظائف العامة والإدارة التونسية، وهم روح الأمة التونسية، واستنكر القرار، وطالب الإدارة الفرنسية بإعادة النظر فيه[4].

---

(١) ينظر: الحركة الوطنية الجزائرية: ٣/ ١٦٣ و ٢٦٥، وآثار ابن باديس: ١/ ٦٨، وعبد الحميد ابن باديس، لمازن مطبقاني: ١٥٤-١٥٥، وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين: ١٧٥، ١٨٤، ١٨٨- ١٨٩.

(٢) آثار ابن باديس: ٣/ ٤٢٩، ٤٣٢، ٤٣٤، ٤٣٨، ٤٤٠، ٤٤٤، ٤٤٩.

(٣) ينظر: المرجع السابق: ٣/ ٤٣٣، ٤٥٢.

(٤) آثار ابن باديس: ٣/ ٤٢٩، ٤٣٢، ٤٣٤، ٤٣٨، ٤٤٠، ٤٤٩.

**الوسيلة السابعة/ الجهاد:**

المتابع لمواقف الشيخ يلحظ تحولاً واضحاً بعد زيارته فرنسا مع وفد المؤتمر الإسلامي نحو التصعيد وارتفاع نبرة الخطاب. فقد رجع منها وهو يدرك بما رأى من استكبار الفرنسيين وتهديداتهم واشتراطهم لتحقيق المطالب تخلي الجزائريين عن الهوية الإسلامية والعربية - يدرك أن فرنسا لن تعطي الجزائريين من مطالبهم إلا الرجاء والإنظار.

لذا غيّر بعد عودته من فرنسا شعار مجلة (الشهاب) ليصبح: (فلنعتمد على أنفسنا ونتكل على الله).

وقال مخاطباً الشعب الجزائري بعد عودته (جمادى الآخرة ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م): «إننا مددنا إلى الحكومة الفرنسية أيدينا، وفتحنا قلوبنا، فإن مدت إلينا يدها، وملأت بالحب قلوبنا، فهو المراد، وإن ضيعت فرنسا فرصتها هذه، فإننا نقبض أيدينا، ونغلق قلوبنا، فلا نفتحها إلى الأبد. أيها الشعب، لقد عملت وأنت في أول عملك، فاعمل ودم على العمل، وحافظ على النظام. واعلم أن عملك هذا على جلالته ما هو إلا خطوة ووثبة، ووراءه خطوات ووثبات، وبعدها إما الحياة وإما الموت»[1]. وفي (رجب ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م) كتب (مشاهدات وملاحظات) عن زيارة وفد المؤتمر، ختمها بالخيبة من تلبية فرنسا للمطالب، وقال: «كنت أعتقد أن المطالب ستتأخر، وأن هذا الصيف لا يكون فيه شيء، ولكن لا بد من التمسك بحبل الرجاء إلى حين. وقد صدّق الواقع ظننا، وها إن الصيف قد مضى، وها إن لجنة البحث قد تعينت، وها نحن من المنتظرين. واليوم:

(١) آثار ابن باديس: ٣/ ٣٢١-٣٣٢.

وهذا التخطيط نابع من إدراك عميق من الشيخين بأن أي مشروع إصلاحي كبير على مستوى الأمة يحتاج في تحقيقه إلى زمن طويل، وإذا لم يبدأ من تربية الأمة وخاصة تربية نشئها وغرس الدين في نفوسها وتجديده في حياتها وإلا فهو مشروع فاشل، وإن تحققت بعض جوانبه؛ لأن النشء هم جيل المستقبل، الذين فيهم وبهم تتحقق أهداف الإصلاح البعيدة، وإذا لم يرث نشء صالح هذا المشروع، فيحمل همه، ويؤدي حقه، فسيموت بموت أصحابه. ومن هنا فإن الوسيلة العملية الأولى والمدخل الأهم؛ لتحقيق هذا الإصلاح عند الشيخين هو في تربية الجيل الناشئ على صحة المعتقد والعلم والعمل؛ ليكون منهم علماء مصلحون، يحملون الدعوة، وينشرونها، ويربون عليها، ويدافعون عنها.

بدأ الشيخ وأصحابه في خطة الإصلاح بهذه الوسيلة، ومضى عليها وصمد فيها عشر سنوات، وذكر أنه لم يخلط مع هذه الغاية (تكوين نشء علمي) أي عمل آخر، فلما تحقق له ما أراد قام بعد ذلك بالدعوة العامة[1].

وقد اجتهد الشيخ في تعليم النشء وتربيته اجتهاداً عظيماً، وأمضى فيه وقته، وأضنى به جسده، بصورة فردية وجماعية، في المساجد، وفي المدارس، حتى كان لا يرضى بما يشغله عنه، ولو كان تأليف الكتب كما قال: «شغلنا بتأليف الرجال عن تأليف الكتب»[2].

ولندع الشيخ يحدثنا عن بدايات الأمر ومراحله، قال: «كان التعليم المسجدي بقسنطينة قاصراً على الكبار، ولم يكن للصغار إلا الكتاتيب القرآنية؛ فلما يسّر

---

(١) آثار ابن باديس: ٣/ ٢٨.

(٢) تفسير ابن باديس: ٢/ ٧١٦.

الله لي الانتصاب للتعليم عام (١٣٣٢هـ) جعلت من جملة دروسي تعليم صغار الكتاتيب القرآنية بعد خروجهم منها في آخر الصبيحة وآخر العشية، فكان ذلك أول عهد الناس بتعليم الصغار. ثم بعد بضع سنوات رأى جماعة من الفضلاء المتصلين بي تأسيس مكتب- أي: مدرسة- يكون أساساً للتعليم الابتدائي العربي، فأسسناه. وكان الأخوان الفاضلان السيد العربي والسيد عمر بن مغسولة قد اشتريا مسجد سيدي بومعزة، والبناء المتصل به، وكان فوق بيت الصلاة محل للسكنى بالكراء، فأزالاه عن ذلك، وأبقياه محلاً فارغاً، فجعلناه هو محل المكتب. ثم نقلناه إلى بناية الجمعية الخيرية لاتساعها... وفي سنة (١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م) رأيت أن أخطو بالمكتب خطوة جديدة، وأخرجه من (مكتب جماعة) إلى (مدرسة جمعية) فحررت القانون الأساسي لـ (جمعية التربية والتعليم الإسلامية)، وقدمته باسم الجماعة المؤسسة إلى الحكومة فوقع التصديق عليه»[1].

وكان تأسيس (جمعية التربية والتعليم الإسلامية) بقسنطينة، سنة (١٣٤٩هـ) قبل تأسيس (جمعية العلماء الجزائريين) بأقل من عام. ودعا الشيخ إلى تأسيس مثل هذه الجمعية، أو تأسيس فروع لها في أنحاء الجزائر.

وقد كانت تضم في عام (١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م) أكثر من (٨٠٠) تلميذ وتلميذة. وكانت مدرسة الجمعية لصغار التلاميذ، وأما الكبار من الشباب الذين عني الشيخ بهم ويقوم على تربيتهم وتعليمهم، فإن تعليمهم يكون في الجامع الأخضر وغيره، بصورة منظمة، وفي عام (١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م) كان الشيخ يشرف على نحو من (٣٠٠) طالب، في الجامع الأخضر، تدريساً وقياماً على شؤون المبيت والإطعام ونحوه؛ لأن

(١) آثار ابن باديس: ٣/ ٢٦٨- ٢٦٩.

أكثر الطلبة كانوا من غير أهل مدينة قسنطينة. وهؤلاء غير الذين تخرجوا، من عند الشيخ، وأرسل كثيراً منهم إلى تونس للدراسة في جامع الزيتونة[1].

ولما أسست جمعية العلماء الجزائرين عام (١٣٤٩هـ-١١٩٣١م) وكان الشيخ يرأس مجلس إدارتها توسع مشروع الإصلاح في فتح المدارس، حتى قدر عدد المدارس التي أسستها الجمعية إلى عام (١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م) بسبعين (٧٠) مدرسة تعليمية في أنحاء الجزائر، وقدر عدد التلاميذ بحوالي ثلاثين ألف (٣٠،٠٠٠) تلميذ مابين فتى وفتاة.

**ومن أهم المعالم التي يتميز بها منهج الشيخ في تربيته وتعليمه ما يأتي:**

(١) التربية على القرآن والسنة وسيرة السلف، وذلك نابع من يقين الشيخ بأن القرآن والسنة هما مصدرا الهداية والإصلاح، وأن المجتمع إذا رسخ فيه أن القرآن والسنة هما مصدرا التلقي، وأنهما المرجع لكل مسلم، وأنهما المعيار في صلاح الأمور وفسادها، وأن التعليق بهما لا بحامليها، وأن الهداية بهما لا بغيرهما، وأن خير من فهمها واهتدى بهديهما السلف الصالح، وأنه لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها سهل بعد ذلك على المصلح أن يقنع الناس بما يريد مما هو في كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة رسوله ﷺ. . . وقد سبق الحديث آنفاً عن الدعوة بالقرآن والسنة.

وأما سيرة السلف الصالح فقد كان الشيخ ينشر مقالات في (الشهاب)، يترجم فيها لبعض الصحابة رضي الله عنهم رجالاً ونساءً، ثم نشرت المقالات بعنوان (رجال السلف ونساؤه)، كما كان يترجم لغيرهم من أعلام الإسلام من السلف والخلف، جمعت تحت عنوان (تراجم أعلام).

(١) المرجع السابق: ٣/ ٢٢٩.

(٢) رأى الشيخ أن يركز على تربية الطلاب أكثر من توسعه في تعليمهم، فلم يقتصر على مجرد التعليم وتلقين المعرفة؛ بل سعى مع ذلك إلى التربية على هذا العلم وبناء النفوس من جميع جوانبها؛ لتكون متسلحة بالإيمان، والعلم، والفكر الصحيح، والخلق القويم، وآخذة بأسباب العمل والحضارة، وناهضة بالدعوة والإصلاح.

ولما أسس الشيخ (جمعية التربية والتعليم الإسلامية) نصَّ في قانونها على أن هدف الجمعية نشر الأخلاق والمعارف والصنائع اليدوية بين أبناء المسلمين وبناتهم. وأسس لذلك الوسائل التي تحقق الهدف، ومنها مدرسة، ونادياً للمحاضرات، وملجأ للأيتام، ومعملاً للصنائع[1].

وإنما سلك الشيخ هذا السبيل في التعليم لأن التربية هي نقطة الارتكاز في التخطيط للإصلاح، كما قال البشير الإبراهيمي: «كانت الطريقة التي اتفقنا عليها أنا وابن باديس في اجتماعنا في المدينة في تربية النشء هي: ألا نتوسع له في العلم، وإنما نربيه على فكرة صحيحة ولو مع علم قليل، فتمت لنا هذه التجربة في الجيش الذي أعددناه من تلامذتنا»[2].

(٣) لم يقتصر الشيخ في التربية والتعليم على أبناء قسنطينة؛ بل سعى إلى أن يبني قاعدة عريضة من الذين يتربون على المنهج الإسلامي الصحيح، والذين يكونون مؤثرين في الإصلاح أو داعمين له على مستوى الجزائر كلها، لا على مستوى قسنطينة وحدها؛ ولذا كان الشيخ يعلن في جولاته ورحلاته إلى أنحاء الجزائر عن نشاطه التربوي، والدروس العلمية التي يتلقاها الطلبة في قسنطينة، ويحث الناس على

(١) آثار ابن باديس: ٣/ ١٨٤-١٨٥.

(٢) آثار الإمام البشير الإبراهيمي: ٥/ ٢٨٠.

إرسال أبنائهم إليها للتعلم، كما يحث شيوخ الطرق الصوفية على إرسال تلاميذهم، وفي عام (١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م) صار الطلبة الذين يدرسون بقسنطينة يمثلون جميع مناطق الجزائر[١].

(٤) لم يقتصر على الفتيان دون الفتيات، بل جعل للفتيات نصيباً من التعليم والتربية، وهو ينطلق في ذلك من إدراكه لخطورة جهل المرأة المسلمة بدينها، أو أن يكون تعليمها من خلال المدارس التغريبية. كما ينطلق من أهمية التكوين الصحيح للمرأة في مشروع إصلاح الأمة وتكوين المصلحين، يقول في ذلك: «إذا أردنا أن نكوِّن رجالاً، فعلينا أن نكوّن أمهات دينيات، ولا سبيل لذلك إلا بتعليم البنات تعليماً دينياً، وتربيتهن تربية إسلامية. وإذا تركناهنّ على ماهنّ عليه من الجهل بالدين، فمحال أن نرجو منهن أن يكوّنّ لنا عظماء الرجال»[٢].

وافتتحت جمعية (التربية والتعليم الإسلامية) التي أسسها الشيخ بقسنطينة قسماً خاصاً لتعليم البنات، وأعفاهن من رسوم الدراسة، قال: «يتعلمن كلهن مجاناً؛ لتتكون منهن بإذن الله المرأة المسلمة المتعلمة»[٣].

وخصهن بدروس مرّة في الأسبوع في السنوات الخمس الأخيرة من حياته، كما حثَّ العلماء على أن يقوموا بمثل ذلك في مدنهم وقراهم، فساروا على نهجه.

(٥) لم يكتف الشيخ بتعليم العلوم الشرعية فحسب، مع أصالتها وأهميتها؛ بل توسع أيضاً، فكان يدرس التفسير، والتجويد، والحديث، والفقة، والعقيدة،

---

(١) آثار ابن باديس: ٣/ ١٩٨- ٢١١.

(٢) آثار ابن باديس: ٣/ ٨٩، وينظر: ٣/ ٤٦٧- ٤٧٠، وعبد الحميد ابن باديس وجهوده التربوية: ١٥١.

(٣) آثار ابن باديس: ٣/ ١٨٦.



والآداب والمواعظ، وفنون العربية من لغة ونحو وصرف وبلاغة وأدب، والمنطق، والحساب، والتاريخ، والجغرافيا[1]. وحث على تعلم العلوم النافعة والصنائع ولو كانت عند غير المسلمين، قال مخاطباً الشباب في إحدى محاضراته: «أرجوكم أيها الشباب الحازمون أن تأخذوا العلم بأي لسان كان، وعن أي شخص وجدتموه، وأن تطبعوه بطابعنا؛ لننتفع به الانتفاع المطلوب، كما أخذه الأوروبيون من أجدادنا وطبعوه بطابعهم النصراني وانتفعوا به»[2].

(٦) حرص الشيخ على أن يكون لدى الطالب القدرة الذاتية على التعلم، فدعا إلى أن تكون الدروسة العلمية لتلقي القواعد والأصول، وإكساب الملكة العلمية، ثم لا يكتفي الطالب بما يتلقاه في الدرس؛ بل ينطلق بعد ذلك في خطة ذاتية (نفسية)؛ ليوسع مداركه ومعارفه من خلال القراءة وغيرها، قال: «فهم قواعد العلم وتطبيقها حتى تحصل ملكة استعمالها، هذا هو المقصود من الدرس على الشيوخ. فأما توسيع دائرة الفهم والاطلاع فإنما يتوصل إليها الطالب بنفسه، بمطالعاته للكتب، ومزاولته للتقرير والتحرير.... فعلى الطلبة والـمُتَولّين أمرَ الطلبةِ أن يسيروا على خُطةِ التحصيل الدرسي، والتحصيل النفسي؛ ليقتصدوا في الوقت، ويتسعوا في العلم، ويوسعوا نطاق التفكير»[3].

(٧) كما حرص على أن يكون لديه القدرة على التفكير. وهو يحرص كثيراً في خطاباته ومقالاته ودروسه على الدعوة إلى التفكير، وإعطاء العقل حظه من النظر والفكر في آيات الله وكونه، ويرى أن ذلك وسيلة إلى النهوض بالأمة، قال:

---

(١) ينظر: المرجع السابق: ٣/ ١٩٥، ٢٢٩.
(٢) المرجع السابق: ٤/ ٣٤٠.
(٣) المرجع السابق: ٤/ ٢٠٣.

«بالتفكير في آيات الله السمعية وآياته الكونية وبناء الأقوال والأعمال والأحكام على الفكر تنهض الأمم، فتستثمر مافي السموات وما في الأرض، وتشيد صروح المدنية والعمران»[1]. وأما في شأن طلبة العلم فقال: «إذا كان التفكير لازماً للإنسان في جميع شؤونه وكل مايتصل به إدراكه، فهو لطلاب العلم ألزم من كل إنسان. فعلى الطالب أن يفكر فيما يفهم من المسائل، وفيما ينظر من الأدلة تفكيراً صحيحاً مستقلاً عن تفكير غيره، وإنما يعرف تفكير غيره ليستعين به، ثم لا بد له من استعماله فكره هو بنفسه. بهذا التفكير الاستقلالي يصل الطالب إلى ما يطمئن له قلبه، ويسمى حقيقة علماً، وبه يأمن الوقوع فيما أخطأ فيه غيره، ويحسن التخلص منه إن وقع فيه . . . فالتفكير التفكير يا طلبة العلم؛ فإن القراءة بلا تفكير لا توصل إلى شيء من العلم، وإنما تربط صاحبها في صخرة الجمود والتقليد، وخير منهما الجاهل البسيط»[2].

وهو حينما يدعو إلى إعطاء العقل حظه من الفكر لايجعله حاكماً على كل شيء؛ بل يؤكد أنه محدود محكوم بالشرع، كما سبق بيانه في الحديث عن التعليم من مجالات الإصلاح.

(٨) كان الشيخ يربي طلابه على الإصلاح والدعوة إلى الله. وفي العطلة السنوية إذا أراد الطلاب أن يرجعوا إلى مناطقهم يطلب منهم أن يقوموا بواجب الدعوة إلى الله ونشر ماتعلموه. وعند استئناف الدراسة يطلب من كل واحد أن يقدم تقريراً عما أنجزه. وكان يشجع القائمين على ذلك ويشكرهم، وفي إحدى العطلات جاءته كتب وإفادات من بعض طلابه، فكتب في مجلة (الشهاب) بعنوان (تحية وشكر إلى أبنائي

---

(١) ينظر: المرجع السابق: ٣/ ٢٢٣.

(٢) المرجع السابق: ٤/ ٢٠٤-٢٠٥.

الطلبة): «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. جاءتني كتبكم، وأفادتني ما يسرني ويسر كل محب للعلم من استمراركم على الجد في مراجعته، والترغيب فيه، ونشر الهداية- كل بما استطاع- بين قومه وعشيرته. . .»[1].

(٩) كان يوجه طلابه إلى التركيز على التعلم ونشر العلم، ويحرص على ألَّا ينشغلوا بغيرهما من أمور السياسة ونحوها، ولعله يخشى أن يحصل منهم ما يثير الاحتلال، فيؤثر على خطة الإصلاح.

ويروي محمد الصالح رمضان تلميذ الشيخ ابن باديس أن باعة الكتب والمجلات والجرائد العربية يأتون عند الجامع الأخضر حين درس التفسير للبيع؛ لأنهم يعلمون أن عامة قراء العربية يحضرون هذا الدرس. وكان الشيخ ابن باديس من عادته أن يدخل المقصورة بعد الدرس ولا يخرج حتى ينصرف الناس، وفي يوم من الأيام خالف الشيخ عادته وخرج مع الناس، ولمح تلميذَه محمد الصالح رمضان يشتري عدداً من جريدة الأهرام المصرية.

وفي الغد جاء عريف المنطقة التي ينتمي إليها رمضان يقول له: إن الشيخ ابن باديس يطلبك. فتوجس رمضان خيفة وقال للعريف: أستحلفك بالله أن تخبرني بالسبب. قال العريف: أقسم لك بالله إني لا أعلم شيئاً، وإنك لم تُذكر في مجالس العرفاء بسوء أبداً.

ولما جاء رمضان سأله الشيخ ابن باديس: لماذا أتيت إلى قسنطينة؟

قال: أتيت لطلب العلم.

---

(١) ينظر: المرجع السابق: ٣/ ٢٤٢.

قال: من المسؤول عنك هنا؟ قال: العريف. قال: وقبل العريف. قال: أنت.

قال الشيخ: أنا المسؤول عنك أمام والديك وأمام باقي الناس، وقد علمتُ أنك تشتغل بأمور أخرى غير الدراسة.

قال رمضان: أتحدى كل من يتهمني بأني أشتغل بأمور أخرى غير الدراسة.

قال الشيخ: أنا الشاهد.

قال رمضان: إذن لم يبق لي كلام بما أنك أنت الشاهد وأنت الحاكم، فاحكم بما تراه مناسباً.

قال الشيخ: أنت تشتغل بالسياسة.

قال: كيف استنتجت ذلك؟

قال: رأيتك أمس اشتريت الجريدة.

قال رمضان: لولا هيبة الشيخ لضحكتُ، ثم قلت: قراءة الجريدة تعني الاشتغال بالسياسة.

قال: نعم هذه البداية وهذه الخطوة الأولى، تتبعها خطوات. وذلك المبلغ الذي اشتريت به الجريدة لو زدت عليه مبلغاً ثانياً وثالثاً لاشتريت كتاباً ينفعك في دراستك عوضاً عن الجريدة التي تُقرأ في حينها وترمى.

قال رمضان: أنا اشتريت الجريدة لأن الطلبة كانوا يتناقلون أخباراً عن مظاهرات للطلبة المصرين في القاهرة، تدخلت فيها الشرطة، ومات عدد منهم. وكان كل واحد

يروي قصة تختلف عن الآخر، فأحببت أن أتاكد، وآخذ الحقيقة من المصدر، ونحن طلبة يهمنا مايقع لإخواننا في باقي دول العالم الإسلامي.

قال الشيخ: هذا يدل على حس سياسي.

قال رمضان: أنا أعاهدك ألَّا أشتغل بالسياسة ما حييت.

قال الشيخ: أنا لم أطلب منك هذا. أنا أقول: لاتشتغل بالسياسة الآن ما دمت في دراستك، وبعد ذلك أنت حر.

وذات مرة طلب محمد الصالح رمضان من شيخه أن يُعيره كتاب (حاضر العالم الإسلامي) للمستشرق لوثروب ستودارد، وعليه تعليقات شكيب أرسلان. فسأله الشيخ ابن باديس: لِمَ تريد قراءة هذا الكتاب بالذات؟ فأجاب رمضان: لأنني أسمع عن شكيب، وأراك تنشر له مقالات في (الشهاب)، فأحببت أن أقرأ مايكتب. قال الشيخ: شكيب أرسلان دائرة معارف، وأنت يا بني في بداية الطلب فقراءة كتبه تشتت لك ذهنك. فأنا أنصحك بعدم قراءة كتابه الآن[1].

وفي حفل توديع الطلبة نهاية العام الدراسي قال لهم: «اتقوا الله، ارحموا عباد الله، اخدموا العلم بتعلمه ونشره، وتحملوا كل بلاء ومشقة في سبيله، وليهن عليكم كل عزيز، ولتهن عليكم أرواحكم من أجله. أما الأمور الحكومية وما يتصل بها فدعوها لأهلها، وإياكم أن تتعرضوا لها بشيء»[2].

---

(١) ينظر في الموقفين: موضوع (الشيخ محمد الصالح رمضان كما عرفته)، في موقع: ملتقى أهل الحديث: منتدى تراجم أهل العلم المعاصرين.

(٢) ينظر: آثار ابن باديس: ٣/ ٢٢٣.

(١٠) يُعنى الشيخ بطلابه، ويظهر لهم الاحترام والتقدير، فكان يبذل لهم النصيحة، ويحسن استقبالهم في بداية الدروس السنوية، وفي نهاية السنة يجمعهم ويودعهم واحداً واحداً[١]، وكان يحرص على أن يخالطهم، ويعيش معهم، ولا يتميز عنهم بطعام، وهو في ذلك ينطلق من قاعدة تربوية في الاتصال والمعايشة بين الشيخ والتلميذ، يقررها قائلاً: «أغلب المعلمين في المعاهد الإسلامية الكبرى كالأزهر لا يتصلون بتلامذتهم إلا اتصالاً عاماً، لا يتجاوز أوقات التعليم، فيتخرج التلامذة في العلوم والفنون، ولكن بدون تلك الروح الخاصة التي ينفخها المعلم في تلميذه، إذا كانت للمعلم روح، ويكون لها الأثر البارز في أعماله العلمية في سائر حياته . . . فعلى المعلم الذي يريد أن يكوِّن من تلامذته رجالاً أن يشعرهم واحداً واحداً أنه متصل بكل واحد منهم اتصالاً خاصاً، زيادة على الاتصال العام، وأن يصدق لهم هذا، بعنايته خارج الدرس بكل واحد منهم عناية خاصة، في سائر نواحي حياته»[٢].

(١١) يستغل الشيخ في تربيته لتلاميذه المواقف التي يقعون فيها؛ ليلفتهم إلى ما يناسب المقام التنبيه إليه.

ومن ذلك ما ذكره تلميذه علي مرحوم من أن الشيخ كان يلقي درسه، فرأى أحد التلاميذ يلبس بُرنساً من قماش مصنوع في فرنسا، فقال الشيخ: ما هذا البرنس؟ أما أنا فأفضل الذي صنعته أمي على الذي صنعته ضرتها[٣].

---

(١) ينظر: المرجع السابق: ٣/ ٢٢٣.

(٢) المرجع السابق: ٤/ ٢٠٢.

(٣) عن: عبد الحميد ابن باديس، العالم الرباني: ٣٧.

وروى تلميذه محمد الصالح رمضان أنه كان يعير كتبه لتلاميذه، لكنه كان يشترط عليهم في ذلك شروطاً منها: عدم العطاس في الكتاب، وعدم بلِّ الأوراق بالريق عند تقليبها، وفتح الكتاب برفق حتى لا تنفصل أوراقه، وكان إذا شم رائحة الدخان في الكتاب بعد إعارته لأحد تلاميذه لا يعيره كتاباً بعد ذلك أبداً، وبعد إعادة الكتاب يسأل الشيخ تلميذه عن رأيه فيه وعمَّا استفاده منه[1].

(١٢) يُعنى الشيخ في تفسيره للقرآن الكريم وشرحه للأحاديث النبوية بالإرشادات التربوية، ويشير إلى الأصول التربوية فيهما[2].

### الوسيلة الثالثة/ الإعلام:

دخل الشيخ عالم الإعلام من خلال الصحافة، وهو يدرك ما للصحافة في وقته من دور بالغ في توعية الناس، والتأثير في توجيه الرأي واتخاذ القرار، وهو يرى تجارب صحفية سبقته سواء أكان على مستوى الجزائر أم خارجها، لها انتشارها وتأثيرها، وقد كان شغوفاً بقراءة الصحف والمجلات، كـ (المنار) لرشيد رضا، و (الفتح) لمحب الدين الخطيب، وغيرهما؛ بل كان يتابع الصحف الفرنسية، ويعجب بما لها من نظام ومهرة أقلام وجرأة وإقدام. وقد كان للصحافة الجزائرية التي سبقت تجربة الشيخ دور في الإصلاح كما سبقت الإشارة إليه في واقع الإصلاح من الفصل الأول، إلا أن ابن باديس يرى أن أول دعوة

---

(١) ينظر: موضوع (الشيخ محمد الصالح رمضان كما عرفته) في موقع: ملتقى أهل الحديث: منتدى تراجم أهل العلم المعاصرين.

(٢) ينظر مثلاً: آثار ابن باديس: ٢/ ٢٨٥.

للإصلاح الإسلامي في الشمال الأفريقي أعلنت على لسان الصحافة هي دعوته في جريدة (المنتقد) التي صدرت عام (١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م)(١).

ولم يدخل الشيخ عالم الصحافة إلا بعد أن حقق المرحلة الأولى من دعوته، وهي (تكوين النشء العلمي).

لقد كان الشيخ يركز في خطابه على شريحة النشء؛ لكنه بعد ذلك أراد أن يتوسع إلى شرائح أخرى بحاجة إلى خطاب، وإلى أهداف أخرى بحاجة إلى تحقيق.

إن ثمة صوتاً للشيخ يريد أن يجلجل في الجزائر كلها؛ ليخاطب الجميع ويسمعه الجميع ويتأثر به الجميع، حتى الاحتلال. ووجد أن هذا الصوت لا يبلغه غير الصحافة.

قال ابن باديس: «مضينا على مارسمنا من خطة، وصمدنا إلى ما قصدنا من غاية، وقضيناها عشر سنوات في الدرس؛ لتكوين نشء علمي، لم نخلط به غيره من عمل آخر، فلما كملت العشر، وظهرت - بحمد الله - نتيجتها، رأينا واجباً علينا أن نقوم بالدعوة العامة إلى الإسلام الخالص والعلم الصحيح، إلى الكتاب والسنة وهدي صالح سلف الأمة، وطرح البدع والضلالات ومفاسد العادات، فكان لزاماً علينا أن نؤسس لدعوتنا صحافة، تبلغها للناس، فكان (المنتقد) وكان (الشهاب). ونهض كُتّاب القطر ومفكروه في تلك الصحف بالدعوة خير قيام، وفتحوا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ أعيناً عمياً وآذاناً صمّاً وقلوباً غلفاً»(٢).

(١) المرجع السابق: ٣/ ١٢٦، و ٤/ ٣٥٢.
(٢) المرجع السابق: ٣/ ٢٨.

وكان أول أمره شارك في صحيفة (النجاح) وتحريرها عام (١٣٣٧هـ/ ١٩١٩م) على أنها صحيفة إصلاحية؛ لكنَّ آمال الشيخ في الصحيفة لم تتحقق، فلم تكن لتتحمل الصحيفة جرأة الشيخ وقوله في الإصلاح، فتركها، وكان يكتب مقالاته باسم (القسنطيني، العبسي، الصنهاجي).

ثم استقل الشيخ بتأسيس صحيفة (المنتقد) عام (١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م)، وكان شعارها الذي يظهر في رأس الجريدة كل عدد (الحق فوق كل أحد، والوطن قبل كل شيء)، وتولى الشيخ رئاسة تحريرها، وأسند إدارتها لأحمد بوشمال.

وقد أراد الشيخ أن تكون الصحيفة منبراً لتغذية العقول وإصلاح العقائد ومحاربة البدع خصوصاً تقويم المعوج من الأخلاق والفاسد من العادات، ونقد فساد المسؤولين ومناهضة المستبدين ونصر المظلومين[1].

واختيار اسم (المنتقد) تعبير عن توجه الصحيفة الغالب، فكانت اللغة ناقدة صدامية؛ ولهذا لم تكن لترضي المستبدين الظالمين والمتنفذين من الدجالين والمنقودين، فأوقفت الصحيفة بعد (١٨) عدداً.

لم يستسلم الشيخ فحاول مرة أخرى، وأصدر صحيفة (الشهاب) بعد إغلاق (المنتقد) بمدة يسيرة، حيث صدر أوّل عدد منها عام (١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م)؛ لكنه أفاد من تجربة (المنتقد)، فتغيرت اللغة الصدامية، وغلب عليها التوجه العلمي الشرعي والتربوي، وتغير الشعار الناقد إلى شعارين آخرين؛ واحد إصلاحي تربوي يتضمن مقولة الإمام مالك - رحمه الله -: (لايصلح آخر هذه الأمة إلا بما

---

(١) ينظر: آثار ابن باديس: ٣/ ٢٧٩-٢٨١،و٤/ ٣٥٢.

صلح به أولها)، وثان سياسي: (الحق والعدل والمؤاخاة في إعطاء جميع الحقوق للذين قاموا بجميع الواجبات). إلا أن الشيخ غير الشعار بعد عودته من فرنسا مع وفد المؤتمر الإسلامي خائبين بعد تهديد وزير الدفاع الفرنسي ليصبح: (فلنعتمد على أنفسنا ونتكل على الله).

وكانت (الشهاب) صحيفة أسبوعية، ثم تحولت إلى مجلة شهرية سنة (١٣٤٧هـ/ ١٩٢٩م) بسبب ضعف الموارد المالية. وكانت تحتوي افتتاحية، ومقالات، وفتاوى، وقصصاً، وأخباراً، وطرائف، وتراجم، وعرضاً للكتب، والصحف العربية، والأجنبية، وتنشر مقالات وقصائد للكتاب والشعراء من مصر ولبنان وتونس والمغرب، كما تنشر مقتطفات مما تنشره بعض الصحف في العالم الإسلامي، وكان الشيخ في السنوات الأولى يكتب معظم المقالات، ويقوم بتصميمها، ويوزعها بنفسه.

وكان لها شهرة واسعة في العالم الإسلامي، وشهد بفضلها وأثرها العلماء والمصلحون، من ذلك الكلمة التي كتبها حسن البنا في افتتاحية العدد الأول من مجلة الشهاب المصرية التي أسسها في القاهرة في نهاية الأربعينيات قال فيها: «قامت مجلة (الشهاب) الجزائرية التي كان يصدرها الشيخ عبد الحميد ابن باديس - رحمه الله - في الجزائر بقسط كبير من هذا الجهاد، مستمدة من هدي القرآن الكريم وسنة النبي العظيم سيدنا محمد ﷺ. وإنا لنرجو أن تقفو الشهاب المصرية الناشئة أثرها وتجدد شبابها، وتعيد في الناس سيرتها في خدمة دعوة القرآن وتجلية فضائل الإسلام، على أن الفضل للمتقدم وفضل السبق ليس له كفاء». وكتب المفكر السوري الدكتور محمد

المبارك في مجلة المجمع العلمي الدمشقية أنه كان يطالع في شبابه في الثلاثينيات مجلة (الشهاب) الجزائرية، التي تصل إلى دمشق مع مجموعة من أصدقائه الطلبة بلهفة شديدة. وعن تأثيرها في المغرب، يقول الشيخ محمد غازي أحد علماء فاس: «مجلة الشهاب الغراء... خدمت الإسلام والمسلمين عموماً والإصلاح والمصلحين خصوصاً، تلك الجريدة التي كان الشمال الأفريقي متعطشاً لمثلها منذ زمان»[1].

ولما أعلنت الحرب العالمية الثانية أوقف ابن باديس مجلة (الشهاب) عام (١٩٣٩م) حتى لا تكون أداة بيد السلطات الفرنسية التي وضعت الصحف تحت إشرافها المباشر بموجب قوانين الحرب[2].

وفي غير (الشهاب) شارك ابن باديس في تحرير الصحف التي كانت تصدرها جمعية العلماء المسلمين الجزائرين لما تأسست في عام (١٣٤٩هـ/ ١٩٣١م)، وغالباً ما يكتب افتتاحياتها، وهي (السنة النبوية المحمدية) وصدر عددها الأول في (٨/ ١٢/ ١٣٥١هـ- ١/ ٣/ ١٩٣٣م)، ثم (الشريعة النبوية المحمدية) وصدرت بعد توقيف جريدة السنة، وكان أول عدد في (٢٤/ ٣/ ١٣٥٢هـ - ١٧/ ٦/ ١٩٣٣م)، وأوقفت، ثم (الصراط السوي) صدرت في (٢١/ ٥/ ١٣٥٢هـ- ١١/ ٩/ ١٩٣٣م)، وأوقفت في (٢٢/ ٩/ ١٣٥٢هـ - ٨/ ١/ ١٩٣٤م)، ثم (البصائر) من بدء صدورها في (١/ ١٠/ ١٣٥٤هـ - ٢٧/ ١٢/ ١٩٣٥م).

ومما يلحظ على عمل ابن باديس الإعلامي اهتمامه بالشعارات، التي تحمل رسائل قصيرة ذات معان إصلاحية عظيمة، يهدف منها الشيخ ترسيخ المفاهيم الإصلاحية في

(١) ينظر: ابن باديس والعمل الإعلامي، مقالة في موقع: الإمام عبد الحميد ابن باديس، وينظر: آثار ابن باديس: ٤/ ٣٥٤-٣٥٧.

(٢) ينظر: آثار ابن باديس: ١/ ٥٩، وآثار الإمام البشير الإبراهيمي: ٥/ ٢٨٥.

أذهان القراء. وقد كان كل شعار يعكس المرحلة الذي تمر بها الدعوة الإصلاحية، كما رأيناه غيّر شعار (الشهاب) بعد عودته من فرنسا.

ويحرص من خلال الصحافة أن يكوّن رأياً عامّاً في بعض الموضوعات التي يريد أن تشيع بين الناس ويتبنونها، كإنشاء جمعية للعلماء المسلمين، ومن ذلك حثه الكتاب على طرق تعلم القرآن وتعليمه من نواح عديدة، قال: «وكل من هذه النواحي يلزم أن تتعدد فيها الكتابة؛ حتى تحدث تأثيراً في المجتمع، وتكوّن رأياً عاماً في الموضوع»[1].

كما كان حريصاً على الإعلان عن حركة التعليم ودروسه العلمية في قسنطينة، فيعلن عن بدء دروسه، ويصدر في نهاية كل سنة تقريراً عنها، ويعلنه للأمة الجزائرية «إدخالاً للسرور على قلوبها، وبعثاً للنشاط فيها» كما يقول، ويتضمن التقرير أسماء الطلاب ومناطقهم، والعرفاء، والمعينين، والأطباء، والمتبرعين، وتقريراً مالياً للوارد والمصروف، ويشفع بصور توضيحية، كما يعلن عن أعمال جمعية التربية والتعليم وإنجازاتها[2].

### الوسيلة الرابعة/ تأسيس الجمعيات:

على الرغم من الجهود الفردية المتواصلة التي كان الشيخ يقوم بها، إلا أنه كان يؤمن بأهمية العمل الجماعي، وإنشاء جمعيات منظمة تجمع الطاقات وتوحد الصفوف وتوجه الجهود وتتولى الإصلاح، وفي هذا يقول: «إنما ينهض المسلمون

---

(١) آثار ابن باديس: ٢/ ٣١٩.

(٢) ينظر المرجع السابق: ٣/ ١٩٥و١٩٨و٢٢٣و٢٢٩و٢٦٤و٢٦٨.

بمقتضيات إيمانهم بالله ورسوله إذا كانت لهم قوة، وإنما تكون لهم قوة إذا كانت لهم جماعة منظمة، تفكّر وتدبّر، وتتشاور وتتآزر، وتنهض لجلب المصلحة ولدفع المضرّة، متساندة في العمل على فكرة وعزيمة»[1].

ويذكر بعض المؤرخين لحياة الشيخ أن له جهوداً متعددة في تأسيس الجمعيات المتنوعة، سواء أكانت علمية أم شبابية أم تجارية خيرية، كإسهامه في تأسيس جمعيات كشفية، واختارته بعض أفواجها رئيساً شرفياً لها. وإسهامه في تأسيس جمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين. وإسهامه في تأسيس جمعية الشباب الفني، واختير الشيخ رئيساً شرفياً لها، ولها عناية بالفن التمثيلي للدعوة إلى محاسن الأخلاق وتجنب مساوئها. وإسهامه في تأسيس جمعية تجار قسنطينة؛ لكسر السيطرة اليهودية على التجارة والصناعة[2].

وأهم الجمعيات التي أسسها الشيخ وأعطاها من همه وجهده وصارت جزءاً من حياته جمعيتان: جمعية العلماء المسلمين، وجمعية التربية والتعليم الإسلامية بقسنطينة.

أما الأولى (جمعية العلماء المسلمين) فقد وضع - رحمه الله - من أهدافه المهمة في خطته الإصلاحية منذ بدئها: تأسيس جمعية للعلماء، تجمع شملهم، وتوجّه جهودهم، ويحقق من خلالها أهدافه الإصلاحية. فكانت جمعية العلماء هدفاً مرحلياً مهماً؛ ليتخذها أيضاً وسيلة في تحقيق الأهداف. وقد ذكر البشير الإبراهيمي أن الليالي الأولى التي كان يسمر فيها هو وابن باديس للتخطيط للإصلاح وضعت

---

(١) آثار ابن باديس: ١/ ٣٧٠.

(٢) ينظر: عبد الحميد ابن باديس، العالم الرباني: ١١٦-١٢١.

جمعية العلماء هدفاً لهم، قال: «وأشهد الله على أن تلك الليالي من سنة ١٩١٣م هي التي وضعت فيها الأسس الأولى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي لم تبرز للوجود إلا في سنة ١٩٣١م»[١].

وفي عام (١٣٤٢هـ/ ١٩٢٤م) تدارس ابن باديس مع البشير الإبراهيمي في سطيف تأسيس جمعية للعلماء باسم (الإخاء العلمي)، لكن هذا المشروع لم يتيسر قيامه؛ لعدم توفر الظروف المناسبة، إذ لابد له من زمن واسع، حتى يختمر وتتهيأ له الظروف، وتأنس إليه نفوس العلماء، وتقتنع به[٢].

وحتى يأتي اليوم المناسب مهد له الشيخ وأصحابه بحملة إعلامية لتكوين رأي عام للتوجه نحو إنشاء جمعية تجمع شمل العلماء، فبث من خلال الصحافة الدعوة إلى اجتماع الكلمة وتوحيد الصف وتأسيس جمعية للعلماء، وصار يكرر ويعيد هو ومؤيدوه من أهل الإصلاح هذه المعاني بصور شتى، وقد حملت (الشهاب) هذه المهمة بقوة، ومن مقالات الشيخ قوله في العدد الثالث من الشهاب (٩/ ٥/ ١٣٤٤هـ): «أيها السادة العلماء المصلحون المنتشرون بالقطر الجزائري، إن التعارف أساس التآلف، والاتحاد شرط النجاح، فهلموا إلى التعارف والاتحاد بتأسيس حزب ديني محض»، وتتوالى المقالات المرحبة بالفكرة والمؤيدة لها، ففي العدد التاسع (٢١/ ٦/ ١٣٤٤هـ) كتب أحدهم مرحباً بهذا الاقتراح، وفي عدد لاحق (١/ ٢/ ١٣٤٦هـ) كتب آخر قائلاً: «يجب تأسيس حزب إصلاحي ديني، يكون مركزه العاصمة، وله فرعان: أحدهما بقسنطينة، والآخر بوهران» وغيرها من المقالات.

---

(١) آثار الإمام البشير الإبراهيمي: ٥/ ٢٧٨.

(٢) ينظر: آثار ابن باديس: ١/ ١٨٤-١٨٥.

وبعد سبع سنوات من محاولته الأولى تهيأت العوامل لتأسيس جمعية على مستوى الوطن، ومن أبرز هذه العوامل:

١. انتشار صوت الإصلاح وقوة الدعوة إليها على ألسنة المصلحين من داخل الجزائر ومن خارجها، وفي الصحافة الإصلاحية الجزائرية وغيرها التي انتشرت في أنحاء الوطن.

٢. تأثر كثير من أهل العلم بالدعوة إلى الاجتماع والتوحد.

٣. وجود قاعدة قوية ومنتشرة من طلبة الشيخ.

٤. عودة كثير من الشيوخ وطلبة العلم المؤيدين للإصلاح إلى الوطن.

٥. استثمار الشيخ لحادثة مقاطعة الشعب الجزائري لاحتفالات السلطات الفرنسية المئوية على احتلال الجزائر عام ١٩٣٠م، وقد كان من المقرر له أن يدوم ستة أشهر، لكنها اضطرت إلى تقليصه إلى شهرين بسبب مقاطعة الشعب الجزائري لها وغضبه منها. فكانت هذه فرصة تاريخية لأن يتقدم ابن باديس بطلب التصريح للجمعية، وأن توافق سلطات الاحتلال لتلطف الأجواء بينها وبين الشعب الغاضب(١).

تنادى أهل الإصلاح إلى اجتماع عام للعلماء لتأسيس جمعية لهم، وحدد الموعد الساعة الثامنة صباح يوم الثلاثاء (١٧/ ١٢/ ١٣٤٩هـ =٥/ ٥/ ١٩٣١م) في نادي الترقي بالعاصمة.

---

(١) ينظر: جمعية العلماء المسلمين: ٧٥، و مقال: ابن باديس، الابتعاد عن السياسة لأجل الإصلاح، في موقع: الإمام عبد الحميد ابن باديس.

وفي ذلك اليوم حضر العلماء، وأقروا القانون الأساسي للجمعية المعد سلفاً، وتوالت الاجتماعات التأسيسية لمدة أربعة أيام، وكان ابن باديس غائباً في اليومين الأولين، ومع ذلك انتخب رئيساً للجمعية، ولعل غيابه كان بتخطيط مسبق، ندركه من قول البشير الإبراهيمي عن تأسيس الجمعية: «دعونا فقهاء الوطن كلهم، وكانت الدعوة التي وجهناها إليهم صادرة باسم الأمة كلها، ليس فيها اسمي ولا اسم ابن باديس، لأن أولئك الفقهاء كانوا يخافوننا لما سبق لنا من الحملات الصادقة على جمودهم. . . فاستجابوا جميعاً للدعوة، واجتمعوا في يومها المقرر، ودام اجتماعنا في نادي الترقي بالجزائر أربعة أيام. . . وانتخبوا ابن باديس رئيساً»[1].

وقد صارت الجمعية القناة المهمة لتحقيق المشروع الإصلاحي في مجالاته المتنوعة، والحديث عنها يحتاج إلى بحث مستقل[2]. كما أنها أصبحت نقطة تحول في حركة الشيخ نحو مواجهة الاحتلال بقوة الخطاب[3].

---

(١) آثار الإمام البشير الإبراهيمي: ٥/ ٢٨١.

(٢) ينظر في الحديث عن (الجمعية) وجهودها الإصلاحية: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، لمازن مطبقاني.

(٣) وكان من أعظم إنجازات هذه الجمعية:

١. محاربة البدع والخرافات، وتطهير عقائد الإسلام وعباداته من الانحراف والضلال.
٢. إحياء تاريخ الإسلام.
٣. الشروع العاجل في تعليم العربية للصغار، ودعوة كل المتخرجين من الزيتونة للإسهام في هذا العمل.
٤. إبراز فضائل الإسلام: إيثار العزة والنفور من الذلة، بذل المال والنفس في سبيل الدين، نشر التآخي بين أفراد المجتمع، ومحاربة الرذائل التي شجعها الاستعمار.
٥. المطالبة باستقلال المساجد والأوقاف عن الدولة وإلحاقها بالجمعية.
٦. أنشأت الجمعية الصحف والمجلات لتبصير الشعب بحقوقه وواجباته، كما أنشأت المدارس والمعاهد العليا.

أما (جمعية التربية والتعليم الإسلامية بقسنطينة) فإن الشيخ أسسها عام (١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م) قبل تأسيس جمعية العلماء بأقل من عام.

وأسسها بتصريح من سلطات الاحتلال. وشارك الشيخَ في تأسيسها جماعة من أهل العلم وطلبته، واختير الشيخ لرئاستها.

ودعا إلى تأسيس مثل هذه الجمعية، أو تأسيس فروع لها في أنحاء الجزائر.

وقامت الجمعية بجهد وإشراف مباشر من الشيخ، ومع ذلك فإن الشيخ بناها على أسس من العمل الجماعي، تظهر معالمه فيما يلي[1]:

- تتكون إدارة الجمعية من عشرة أعضاء برئاسة الشيخ، ونائب له، وأمين للمال، ونائب له، وكاتب بالعربية وكاتب بالفرنسية، وأربعة أعضاء.
- حددت لها أهداف تقوم على نشر الأخلاق الفاضلة، والمعارف الدينية، والعربية، والصنائع اليدوية، بين أبناء المسلمين وبناتهم.
- حددت وسائل لتحقيق الأهداف، وهي: تأسيسُ مكتب للتعليم، وملجأ لإيواء اليتامى، ونادٍ للمحاضرات، ومعملٍ للصنائع. وإرسال التلاميذ للكليات والمعامل.
- تكوين صندوق الطلبة لإدارة الشؤون المالية، ويتولاه أمين المال.
- تأسيس قسم للشبان من أعضاء الجمعية، سنة (١٩٣٣م)، يشارك ببعض المهام التعليمية والدعوية، ورأى الشيخ أن من حقهم أن يحظوا بالتربية والتعليم على وجه يناسبهم، فأسس لهم درساً خاصاً بهم في

(١) آثار ابن باديس: ٣/ ١٨٤.

يوم الأحد من كل أسبوع، يلقيه على مجموعتين، واحدة في النهار والأخرى في الليل لكونها لاتتفرغ بالنهار.

- تكوين لجنة للطلبة من أعضاء الجمعية تعنى بالطلبة وتراقب سيرهم وتشرف على الصندوق المالي.
- تتكون الموارد المالية مما يدفعه أعضاء الجمعية وهو فرنكان شهرياً، وتبرعات المحسنين، واشتراكات الطلاب القادرين، والإعانة الحكومية، وبعد إنشاء جمعية العلماء صارت تتلقى إعانات منها.
- تتكون مدرسة الجمعية من قسمين: للبنين، والبنات.
- التعليم باللغتين: العربية والفرنسية.
- للمدرسة نظام، وناظر، ومعلمون، وطبقات وصفوف يتوزع عليها الطلاب.

وفي عام (١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م) كانت الجمعية تضم نحو (٨٠٠) تلميذ وتلميذة، ونحو (٧٠) من كبار الطلبة، ومصنعاً للنسيج.

وصار الشيخ بعد ترشيحه لإدارة جمعية العلماء يدير جمعيتين، تمارسان عملاً جماعياً، أحدهما (جمعية العلماء المسلمين) يرأس مجلس إدارتها باعتباره عضواً منتخباً فيه، وقام عليها حق قيام. والثانية: يرأسها باعتباره المؤسس الأبرز لها، بل صارت جزءاً من روحه، يصعب عليه التخلي عنها، ويمارس من خلالها أهدافه التعليمية التربوية.

### الوسيلة الخامسة/ الجولات والرحلات:

لم يكتف الشيخ بما كان يقدمه في قسنطينة، أو بما كان يقدمه للوطن كله من خلال الصحافة، والتلاميذ الذين جاؤوا من أرجائه؛ بل كان يقوم بنفسه في العطلة السنوية وفي يومي الراحة الأسبوعية بجولات ورحلات إلى مختلف مناطق البلاد، وكان يأخذ معه بعض تلامذته. وربما كانت الرحلة إلى بلدة مابدعوة من أهلها. وربما كانت الجولة بانتداب من جمعية العلماء لعدد من أهل العلم ومنهم ابن باديس، وقد سلكت الجمعية هذه السبيل في نشر الدعوة إلى الله، ويذكر البشير الإبراهيمي عن نفسه، وكان مشرفاً لجمعية العلماء على مقاطعة وهران، أنه يخرج في فترة العطلة الصيفية للجولات في المقاطعة، مدينة مدينة، وقرية قرية، فيلقي في كل مدينة درساً أو درسين، ويتفقد شعب الجمعية ومدارسها، حتى تنقضي العطلة[1].

وكان من أبرز أهداف الجولات وفوائدها:

١. التعرف على أحوال العباد وما يحصل في البلاد؛ ليكون التخطيط للإصلاح عن مشاهدة وإدراك للحال.

٢. دعوة الناس خارج قسنطينة ووعظهم وإرشادهم ومعالجة منكراتهم عن قرب، من خلال إلقاء المحاضرات والدروس والمواعظ، في المساجد والنوادي والمجالس وأماكن العمل والمناسبات.

٣. التواصل مع أهل العلم وحثهم على المشاركة في الإصلاح وتحمل مسؤولية العلم والقيام بواجب البلاغ ونشر الدعوة.

---

(١) ينظر: آثار الإمام البشير الإبراهيمي: ٥/ ٢٨٤.

٤. التواصل مع التجار والموسرين وحثهم على الإنفاق في وجوه الخير، وعلى المشاركة في جهود الإصلاح بالتبرع من أموالهم.

٥. الإعلان عن النشاط العلمي والتربوي في قسنطينة، وكان يحث الناس وشيوخ الطرق الصوفية على إرسال أبنائهم وتلاميذهم للتعلم.

٦. الإصلاح بين الناس وإزالة ما بينهم من فرقة، والحث على التعاون والتآخي والاتفاق بين المسلمين والبعد عن أسباب الافتراق.

٧. حث الناس على بناء الجوامع والمدارس في مدنهم وقراهم، كما يحثهم على العمل وعدم القعود، بالفلاحة والتجارة والصناعة.

٨. التعريف بجمعية العلماء ومقاصدها ومنافعها، وحث أهل العلم على المشاركة فيها ودعم جهودها.

٩. التعريف بمجلة (الشهاب) وحث الناس على الاشتراك فيها ودعمها.

وكان يدعو الناس إلى التزام الأمن والنظام والقوانين، وربما زار ممثل الحكومة في البلدة إن كان فيها ممثل، وربما تحدث عن فضل الحكومة بإذنها لجمعية العلماء؛ لأن الشيخ يدرك أنه أينما اتجه فإن عيون الاستعمار ترقبه، وقد كانت الصحف الفرنسية تتابع رحلاته وتنشر عنها، فكان الشيخ يحاذر العدو ويطمئنه، كما أن في التزام الأمن أماناً لجهود الإصلاح، واجتناباً لأي فرصة يريد العدو أن ينفذ من خلالها للقضاء عليه.

وكان الشيخ يجد من الناس رغبة ومحبة، والتفافاً عليه واستماعاً إليه، ويقرأ على وجوههم سمات القبول والإذعان، وكان كلهم أو جلهم منتمين للطرق[1].

---

(١) ينظر: آثار ابن باديس: ٤/ ٢٩٧.

كما يجد أحياناً إيذاءً من بعض المتسبين إلى الفرق، ومحاولات منهم لمنعه عن إلقاء الدروس والمحاضرات[1].

وفي مجلة (الشهاب) تسجيل لعدد من الرحلات التي قام بها الشيخ، ولقد زار كثيراً من بلدات الجزائر؛ بل لعله جاب أنحاء الجزائر كلها[2].

**الوسيلة السادسة/ المقاومة السياسية:**

لم يكن للشيخ وهو العالم المصلح إلا أن يسلك مسالك السياسة، ويخوض غمارها، ولا بد من ذلك لمن رام إصلاح أمة وسعى في استقلالها، وهي ترزح تحت احتلال بغيض، يناصره ساسة منحرفون، وقد تناول الشيخ هذه المسألة في إحدى محاضراته، فقال: «كلامنا اليوم عن العلم والسياسة معاً، وقد يرى بعضهم أن هذا الباب صعب الدخول؛ لأنهم تعودوا من العلماء الاقتصار على العلم والابتعاد عن مسالك السياسة، مع أنه لابد لنا من الجمع بين السياسة والعلم، ولا ينهض العلم والدين حق النهوض، إلا إذا نهضت السياسة بجد»[3]، وقال متحدثاً عن جمعية العلماء: «لو أردنا أن ندخل الميدان السياسي لدخلناه جهراً، ولضربنا فيه المثل بما عرف عنا من ثباتنا وتضحيتنا، ولقدنا الأمة كلها للمطالبة بحقوقها، ولكان أسهل شيء علينا أن نسير بها على مانرسمه لها، وأن نبلغ من نفوسنا إلى أقصى غايات التأثير عليها، فإن مما نعلمه ولا يخفى على غيرنا أن القائد الذي يقول للأمة: (إنك مظلومة في حقوقك، وإنني أريد إيصالك إليها) يجد منها ما لا يجده من يقول لها: (إنك ضالة عن أصول دينك، وإنني أريد هدايتك).

---

(١) ينظر: صراح بين السنة والبدعة: ١/ ١٥٢.

(٢) آثار ابن باديس: ٤/ ٢٩٧-٣٢٤، و ٣٣٧-٣٤١، وعبد الحميد ابن باديس، العالم الرباني: ٦٤-٦٨.

(٣) آثار ابن باديس: ٤/ ٣٣١.

فذلك تلبيه كلها، وهذا يقاومه معظمها أو شطرها. . . ثم ما العيب الذي يعاب به العلماء المسلمون إذا شاركوا في السياسة؟ فهل خلت المجالس النيابية الكبرى والصغرى من رجال الديانات الأخرى؟ وهل كانت الأكادمية الفرنسية خالية من آثار الوزير القسيس رشيلو؟ أفيجوز الشيء ويحسن إذا كان من هنالك، ويحرم ويقبح إذا كان من هنا؟ كلا لا عيب ولا ملامة»[1].

وقد نص قانون جمعية العلماء الجزائريين على الابتعاد عن السياسة وعدم الاشتغال بها، وهذا منها حسن سياسة؛ إلا أنها جعلت لأعضائها الحرية أن يخوضوا ميدان السياسة بصفتهم الشخصية، ولذا كان الشيخ يكفي الجمعية هذا الأمر على صفحات (الشهاب) باعتبارها لا تنسب إلى الجمعية، ويتحدث باسمه الشخصي، لا باسم الجمعية، مع أنه رئيسها.

وفي أول عدد لـ (المنتقد) أعلن الشيخ عن مبادئ الصحيفة، وكان منها المبدأ السياسي، وذكر أن مبدأه قائم على «المحافظة التامة على جميع مقوماتنا ومميزاتنا كأمة لها مقوماتها، والمطالبة بجميع حقوقنا السياسة والاجتماعية لجميع طبقاتنا دون الرضى بأي تنقيص أو أي تمييز»[2].

ولما أصدر صحيفة (الشهاب) جعل لها شعاراً سياسياً يقول: (الحق والعدل والمؤاخاة في إعطاء جميع الحقوق للذين قاموا بجميع الواجبات)[3].

---

(١) المرجع السابق: ٣/ ٢٩٥.
(٢) المرجع السابق: ٤/ ٣٦١
(٣) ينظر: المرجع السابق: ٣/ ٣٢٩.

وكان يدعو فرنسا إلى تشريك الجزائرين سياسياً واقتصادياً في إدارة شؤون الوطن الجزائري[١]. ويطالب بمساواة الجزائريين بالفرنسيين في الحقوق السياسية، مع المحافظة على الشخصية الإسلامية[٢]، وهو بذلك يعارض النواب المتفرنسين الذين يطالبون بالمساواة في الحقوق السياسية بين الفرنسيين والجزائرين، ولو على حساب التخلي عن الشخصية الإسلامية[٣].

وعارض بقوة وصلابة إدماج الجزائر في فرنسا، وتجنيس الجزائريين بالفرنسية. ولما دعا بعض النواب وغيرهم إلى الاندماج، وادعى بعضهم أنه فتش عن القومية الجزائرية في بطون التاريخ فلم يجد لها أثراً، وقال بعضهم: فرنسا هي أنا، كتب الشيخ قائلاً: «إن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تريد أن تصير فرنسا، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد، في لغتها، وفي أخلاقها، وفي عنصرها، وفي دينها، لا تريد أن تندمج، ولها وطن محدود معين هو الوطن الجزائري»[٤].

وكتب مقالة بعنوان (كلمة صريحة) رد فيها على دعاة الاندماج، وأكد فيها على الاحتفاظ بالكيان العربي الإسلامي فوق أرض الآباء والأجداد، مع الاحترام التام للسلطة والخضوع لقوانين البلاد[٥]. ثم بعد هذه المقالة كتب خصوم الشيخ ردوداً على مقالته، اتهموه فيها بالسعي إلى الاستقلال، وقدم بعضهم للشيخ أسئلة تدور

---

(١) ينظر: المرجع السابق: ٣/ ٢٨٩.
(٢) ينظر: المرجع السابق: ٣/ ٣٢٥.
(٣) ينظر: المرجع السابق: ٣/ ٣٠١.
(٤) المرجع السابق: ٣/ ٣٠٩.
(٥) المرجع السابق: ٣/ ٣٠٧.

حول تاريخ استقلال الجزائر وحدودها ووحدة لغتها، فرد عليهم الشيخ بمقال (حول كلمتنا الصريحة) قال فيها: «أرادوا أن يفهموا من كلامنا أننا نريد الاستقلال، ورأوا أنهم يحرجوننا إذا وضعوا البحث على بساط الاستقلال، حتى إذا زلت بنا القدم فوق هذا البساط الأملس استنزلوا علينا نقمة الحكومة» ثم بين «أن الاستقلال حق طبيعي لكل أمة من أمم الدنيا» و «أنه من الممكن أن يأتي يوم تبلغ فيه الجزائر درجة عالية من الرقي المادي والأدبي، وتتغير فيه السياسة الاستعمارية عامة والفرنسية خاصة، وتسلك فرنسا مع الجزائر مسلك إنكلترا مع أستراليا وكندا واتحاد جنوب أفريقيا، وتصبح البلاد الجزائرية مستقلة استقلالاً واسعاً. . . بإعانة فرنسا وإرادتها» وذكر أن هذا الاستقلال الذي سيكون، لا «الاستقلال الذي يتصوره خصومنا المجرمون: استقلال النار والدم»[1]، وهذا الكلام من الشيخ فيه مداراة، وإلا فإنه يضمر في نفسه شيئاً آخر كما سيأتي.

ولما كونت فرنسا لجنة استشارية من مسلمي الجزائر، تستشيرها الوزارات الفرنسية فيما يهم الجزائر، أثنى الشيخ على الفكرة؛ لكنه طالب بأن يكون أعضاؤها يمثلون طبقات الأمة الجزائرية، ولا يقتصر فيها على السياسيين والاقتصاديين، وقدم مقترحاً في تمثيل اللجنة[2].

وفي عام (١٣٥٦هـ/ يناير١٩٣٦م) دعا الشيخ في حديث له مع صحيفة (الدفاع) التي يصدرها الأمين العمودي، إلى اجتماع الأحزاب والاتجاهات الجزائرية في مؤتمر إسلامي، تكون به جبهة واحدة، ومرجعاً للأمة الجزائرية، وتتفق من

---

(١) المرجع السابق: ٣/ ٣٢٠-٣٢١.

(٢) المرجع السابق: ٣/ ٣١٠-٣١٢.

خلاله على قائمة لمطالب الجزائريين من فرنسا. وقد لبى الدعوة جمع من العلماء، والنواب والشبان والنخبة، والشيوعيين، وغيرهم، وفي (يونيو١٩٣٦م) انعقد (المؤتمر الإسلامي الجزائري)، ورُشح الشيخ لرئاسة المؤتمر، إلا أنه لم يقبل، ورشح لها الدكتور المتفرنس محمد الصالح بن جلول، رئيس كتلة النواب في قسنطينة. وسافر الشيخ إلى باريس مع وفد المؤتمر الأول عام (١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م)، ومعه من أهل العلم البشير الإبراهيمي والطيب العقبي والأمين العمودي، ومعهم عدد من أعضاء اللجنة التنفيذية للمؤتمر برئاسة ابن جلول؛ للمفاوضة باسم الشعب الجزائري مع الحكومة الفرنسية كما سافر مع الوفد الأخير عام (١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م). وكان الشيخ متحمساً للمؤتمر، ويعقد عليه آمالاً، ولعله أراد منه أن يكون تجمعاً يمثل الوطن كله، تشعر من خلاله فرنسا بالأمة الجزائرية الإسلامية، التي تطالب بحقوقها وتريد المحافظة على شخصيتها. ومن خلاله أيضاً ينفذ بمطالبه والعلماء، ويجعل لها تجمعاً سياسياً يطالب بها، بدلاً أن يكون المطالب بها أفراد أو جمعية يناصبها الاستعمار وأنصاره العداء. ويذكر مطبقاني أنه «بعد الزيارة الأخيرة لوفد المؤتمر لم تعد تذكر صحافة الجمعية - يعني: جمعية العلماء المسلمين - أو حتى صحيفة الشهاب أخباراً عن المؤتمر الإسلامي؛ وربما كان هذا الابتعاد عن المؤتمر سببه أن الجمعية شعرت أنه أصبح أداة تأييد للجبهة الشعبية والشيوعين، وغير ذي فائدة للمسلمين»[1].

وقد وجه إلى الشيخ ومن معه من العلماء انتقادات مهمة حول الدعوة إلى المؤتمر والمشاركة فيها، إذ كيف يلتقي العلماء الذين يعارضون سياسة الاندماج مع المناصرين له من النخبة وغيرهم؟! وكيف يوافق العلماء على مطالب تؤول إلى الإندماج، حتى لو جاء في المطالب النص على المحافظة على الحالة الشخصية الإسلامية؟! وكيف

(١) جمعية العلماء المسلمين الجزائريين: ١٨٥.

يلتقي العلماء مع الحركة الشيوعية، ويكونون سبباً في التمكين لها، مع أن العلماء كانوا يعادونها ويحذرون منها، ويرونها حركة هدامة، ولا وزن لها في الأمة؟! وإذا كان ابن باديس والعلماء يرون في المؤتمر أملاً وإصلاحاً فكيف يدعون رئاسته للانتهازين السياسين؟! وكيف يسعون لإصلاح الثمرة ثم يهيئون قطفها لغيرهم؟!"[1].

وثمة مواقف أخرى منها: رفضه لتأييد فرنسا في الحرب العالمية الثانية مما جعل فرنسا تفرض عليه الإقامة الجبرية. والدعوة إلى مقاطعة احتفالاتها بمناسبة مرور قرن على الاحتلال. ودعوة النواب إلى مقاطعة المجالس النيابية. فضلاً عن المقالات والبرقيات والردود والاحتجاجات على بعض القرارات، والاعتقالات، والتصريحات الفرنسية[2]، وغيرها.

ولقد امتدت مواقفه السياسية لتشمل ما هو خارج الجزائر، ومن ذلك الاحتجاج على قرار تقسيم فلسطين، وعلى الانتهاكات التي تحصل لأهلها[3].

ولما قررت الإدارة الفرنسية في تونس أن يكون من شروط التوظيف: الإلمام باللغة الفرنسية، أضرب طلبة جامع الزيتونة وتظاهروا في الطرق العامة، فكتب الشيخ مؤيداً ما فعلوا، لأنه يضرهم، وكأن القرار ماصدر إلا لإقصائهم عن الوظائف العامة والإدارة التونسية، وهم روح الأمة التونسية، واستنكر القرار، وطالب الإدارة الفرنسية بإعادة النظر فيه[4].

---

(١) ينظر: الحركة الوطنية الجزائرية: ٣/ ١٦٣ و ٢٦٥، وآثار ابن باديس: ١/ ٦٨، وعبد الحميد ابن باديس، لمازن مطبقاني: ١٥٤-١٥٥، وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين: ١٧٥، ١٨٤، ١٨٨- ١٨٩.

(٢) آثار ابن باديس: ٣/ ٤٢٩، ٤٣٢، ٤٣٤، ٤٣٨، ٤٤٠، ٤٤٤، ٤٤٩.

(٣) ينظر: المرجع السابق: ٣/ ٤٣٣، ٤٥٢.

(٤) آثار ابن باديس: ٣/ ٤٢٩، ٤٣٢، ٤٣٤، ٤٣٨، ٤٤٠، ٤٤٩.

**الوسيلة السابعة/ الجهاد:**

المتابع لمواقف الشيخ يلحظ تحولاً واضحاً بعد زيارته فرنسا مع وفد المؤتمر الإسلامي نحو التصعيد وارتفاع نبرة الخطاب. فقد رجع منها وهو يدرك بما رأى من استكبار الفرنسيين وتهديداتهم واشتراطهم لتحقيق المطالب تخلي الجزائريين عن الهوية الإسلامية والعربية - يدرك أن فرنسا لن تعطي الجزائريين من مطالبهم إلا الرجاء والإنظار.

لذا غيّر بعد عودته من فرنسا شعار مجلة (الشهاب) ليصبح: (فلنعتمد على أنفسنا ونتكل على الله).

وقال مخاطباً الشعب الجزائري بعد عودته (جمادى الآخرة ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م): «إننا مددنا إلى الحكومة الفرنسية أيدينا، وفتحنا قلوبنا، فإن مدت إلينا يدها، وملأت بالحب قلوبنا، فهو المراد، وإن ضيعت فرنسا فرصتها هذه، فإننا نقبض أيدينا، ونغلق قلوبنا، فلا نفتحها إلى الأبد. أيها الشعب، لقد عملت وأنت في أول عملك، فاعمل ودم على العمل، وحافظ على النظام. واعلم أن عملك هذا على جلالته ما هو إلا خطوة ووثبة، ووراءه خطوات ووثبات، وبعدها إما الحياة وإما الموت»[1]. وفي (رجب ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م) كتب (مشاهدات وملاحظات) عن زيارة وفد المؤتمر، ختمها بالخيبة من تلبية فرنسا للمطالب، وقال: «كنت أعتقد أن المطالب ستتأخر، وأن هذا الصيف لا يكون فيه شيء، ولكن لا بد من التمسك بحبل الرجاء إلى حين. وقد صدّق الواقع ظننا، وها إن الصيف قد مضى، وها إن لجنة البحث قد تعينت، وها نحن من المنتظرين. واليوم:

---

(١) آثار ابن باديس: ٣/ ٣٢١-٣٣٢.

### ١٠/ المنهج لا الأشخاص:

إن الله - سبحانه وتعالى - يجعل من الأمة أئمة يهدون بأمره، يعلمون الحق ويدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. ومن حق هؤلاء إجلالهم والاقتداء بهم وأخذ العلم عنهم، ولكن لا يجوز أن ندعي العصمة فيهم؛ فإنه يكاد لا يسلم إمام من الأئمة في الوقوع في الخطأ، والمخالفة في مسألة من المسائل الثابتة بالكتاب والسنة، وهذه من طبيعة البشر، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية عن وقوع بعضهم في البدعة على سبيل الخطأ: «ومثل هؤلاء إذا لم يجعلوا ما ابتدعوه قولاً يفارقون به جماعة المسلمين، يوالون عليه، ويعادون، كان من نوع الخطأ، والله - سبحانه وتعالى - يغفر للمؤمنين خطأهم في مثل ذلك؛ ولهذا وقع في مثل هذا كثير من سلف الأمة وأئمتها، لهم مقالات قالوها باجتهاد، وهي تخالف ماثبت في الكتاب والسنة...»[١]. وقال ابن رجب: «أكثر الأئمة غلطوا في مسائل يسيرة، مما لاتقدح في إمامتهم وعلمهم، فكان ماذا؟ فلقد انغمر ذلك في محاسنهم وكثرة صوابهم، وحسن مقاصدهم ونصرهم للدين»[٢].

وابن باديس واحد من أولئك الأئمة الذين لم يسلموا من الوقوع في الخطأ عن اجتهاد منهم، سواء في مسائل العقيدة أم الفقه، ويبقى مع ذلك إماماً سلفياً يجل، ويقتدى به في العلم والعمل، إلا فيما أخطأ فيه، ولا تكن إمامته التي شرفه الله بها والإجلال الذي يستحقه سبباً في اتباعه في الخطأ، فإن «الحق فوق كل أحد» كما كان شعار ابن باديس، والعبرة إنما هو بالمنهج الحق الذي اتبعه وارتضاه لا بما اجتهد فيه

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: ٣/ ٣٤٩.

(٢) الرد على من اتبع غير المذاهب الأربعة ضمن مجموع رسائل الحافظ ابن رجب: ٢/ ٦٣٧.

وارتآه؛ فإن المنهج حق ثابت لا يتغير، والبشر يطرأ عليهم ما ينسيهم أو يصرفهم عن الحق عن قصد أو غير قصد، إلا من عصمه الله، فلا يكن تعلقنا بذوات الأئمة، وإنما بما عليه هؤلاء الأئمة من المنهج السلفي القويم، والله سبحانه وتعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف: ٤٣]. وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد قال للصحابة - رضي الله عنهم - عن نبيه محمد ﷺ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، فما بالكم بغيره وبغيرهم؟! وقد قال أبو بكر رضي الله عنه في خطبته بعد وفاة النبي ﷺ: ألا من كان يعبد محمداً ﷺ فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ثم تلا هذه الآية[1]. ويُذكر في نزول هذه الآية أن رجلاً من المهاجرين مرّ على رجل من الأنصار يوم أحد، وهو يتشحط في دمه، فقال له: يا فلان أشعرت أن محمداً ﷺ قد قتل؟ فقال الأنصاري: إن كان محمداً ﷺ قد قتل فقد بلغ، فقاتلوا عن دينكم[2].

وكما أن الإمام لايقتدى به في الخطأ المغفور، فإن هذا الخطأ لا يصح أن يكون معياراً لإخراجه من المنهج الحق الذي التزمه، قال الذهبي في ترجمة الإمام محمد بن نصر المروزي بعد أن ذكر قول ابن مندة في خطأ وقع فيه وهجره عليه بعض أهل العلم: «ولو أنا كلما أخطأ إمام في اجتهاده في آحاد المسائل خطأ مغفوراً له، قمنا عليه وبدّعناه، وهجرناه، لما سلم معنا لا ابن نصر، ولا ابن مندة، ولا من هو أكبر منهما، والله هو

---

(١) أخرجه البخاري، برقم (٣٤٦٧)

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ٢/ ١٢٨.

هادي الخلق إلى الحق، وهو أرحم الراحمين، فنعوذ بالله من الهوى والفظاظة»[1].

كما لا يصح أن يكون الخطأ معياراً على المنهج فيحكم بخطئه، فإن الحق لايعرف بالرجال، ولكن يعرف الرجال بالحق، قال الذهبي في قتادة السدوسي الإمام المفسر: «قدوة المفسرين والمحدثين... وكان من أوعية العلم... روى عنه أئمة الإسلام... وكان يرى القدر - نسأل الله العفو - ومع هذا فما توقف أحد في صدقه وعدالته وحفظه، ولعل الله يعذر أمثاله ممن تلبس ببدعة يريد بها تعظيم الباري وتنزيهه، وبذل وسعه، والله حكم عدل لطيف بعباده، ولا يسأل عمَّا يفعل. ثم إن الكبير من أئمة العلم إذا كثر صوابه وعلم تحريه للحق واتسع علمه وظهر ذكاؤه وعرف صلاحه وورعه واتباعه، يغفر له زلله، ولانضلله ونطرحه وننسى محاسنه، نعم ولا نقتدي به في بدعته وخطئه، ونرجو له التوبة من ذلك»[2].

هذه جملة من الدروس والعبر. وثمة غيرها مما لا يخفى على فكر الناظر في سيرة ابن باديس ودعوته، لكنا ذكرنا ما رأينا أنه أهمها، ونسأل الله أن ينفعنا بها، وأن يرينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه، وأن يرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه، ولا يجعله ملتبساً علينا فنضل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٤/ ٤٠.

(٢) المرجع السابق: ٥/ ٢٧٠- ٢٧١.



# المصادر







١ . آثار ابن باديس، جمع الدكتور عمار الطالبي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.

٢ . آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، جمع الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

٣ . الإباضية، للدكتور عبد العزيز العبد اللطيف، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ.

٤ . أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، للدكتور أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.

٥ . إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، للألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ.

٦ . أصول الدعوة السلفية عند ابن باديس، لمحمد حاج عيسى الجزائري، بحث منشور بموقعه.

٧. أصول الدعوة، لعبد الكريم زيدان، مكتبة القدس، بغداد، الطبعة السادسة، ١٤١٣هـ.

٨. الأعلام، للزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة عشرة، ٢٠٠٢م.

٩. تاريخ الجزائر المعاصر، للدكتور عمار بوحوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٩م.

١٠. التاريخ السياسي للجزائر، للدكتور عمار بوحوش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.

١١. تفسير ابن باديس، جمع وترتيب: توفيق شاهين ومحمد الصالح رمضان، تعليق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ.

١٢. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، تحقيق: سامي السلامة، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

١٣. الجزائر تعود لمحمد ﷺ، للدكتور محمد مورو، المختار الإسلامي، القاهرة.

١٤. الجزائر عبر الأجيال، لمسعود مجاهد، دار الأيتام الإسلامية، الأردن، الطبعة الثانية.

١٥. الجزائر منطلقات وآفاق، للدكتور ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠م.

١٦ . جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، لمازن صلاح مطبقاني، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

١٧ . الحركة الوطنية الجزائرية، للدكتور أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م.

١٨ . الخوارج، للدكتور ناصر العقل، دار إشبيليا، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

١٩ . درء تعارض العقل مع النقل، لابن تيمية، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٤هـ.

٢٠ . دروب النهضة، لمحمد العبدة، دار الأعلام، عمان، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.

٢١ . سلسلة الأحاديث الصحيحة، للألباني، دار المعارف للنشر والتوزيع، الرياض.

٢٢ . سنن أبي داود، تحقيق: عزت الدعاس وعادل السيد، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

٢٣ . سنن الترمذي، تحقيق: أحمد شاكر، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ.

٢٤ . سير أعلام النبلاء، للذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ.

٢٥. شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الدمشقي، تحقيق: عبد المحسن التركي وشعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة التاسعة، ١٤١٧هـ.

٢٦. شعب الإيمان، للبيهقي، تحقيق: محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ.

٢٧. الصارم المسلول على شاتم الرسول، لابن تيمية، تحقيق: محمد الحلواني ومحمد كبير شودري، رمادي للنشر، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

٢٨. صحيح البخاري مع شرحه فتح الباري، لابن حجر العسقلاني، تحقيق: عبد العزيز بن باز، وترقيم: فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة، بيروت.

٢٩. صحيح سنن أبي داود، للألباني، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.

٣٠. صحيح سنن الترمذي، للألباني، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

٣١. صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة الإسلامية، تركيا، الطبعة الأولى، ١٣٧٤هـ.

٣٢. صراع بين السنة والبدعة، لأحمد حماني، دار البعث، الجزائر، ١٤٠٤هـ.

٣٣. الصوفية نشأتها وتطورها، لمحمد العبدة وطارق عبد الحليم، دار الأرقم، الكويت، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ.

٣٤ . الطرقية وجمعية العلماء المسلمين، مقال لعبد المالك حداد، في موقع الشهاب للإعلام.

٣٥ . عبد الحميد ابن باديس وجهوده التربوية، لمصطفى محمد حميداتو، سلسلة كتاب الأمة، العدد (٥٧)، المحرم١٤١٨هـ، إصدار وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر.

٣٦ . عبد الحميد ابن باديس : العالم الرباني والزعيم السياسي، لمازن مطبقاني، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.

٣٧ . عقيدة الإمام عبد الحميد ابن باديس السلفية وبيان موقفه من الأشعرية، لمحمد حاج عيسى الجزائري.

٣٨ . في السيرة النبوية . . قراءة لجوانب الحذر والحماية، للدكتور إبراهيم علي محمد أحمد، سلسلة كتاب الأمة، العدد (٥٤)، رجب ١٤١٧هـ، إصدار وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر.

٣٩ . كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، لإسماعيل العجلوني، مكتبة القدسي، ١٣٥١هـ.

٤٠ . مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، لابن باديس، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ.

٤١ . مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي، تحقيق : طلعت الحلواني، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، القاهرة.

٤٢ . مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع: عبد الرحمن بن قاسم، طبعة مجمع الملك فهد للمصحف الشريف، المدينة النبوية، ١٤١٦هـ.

٤٣ . مختصر تاريخ الجزائر، للدكتور عبد الله شريط ومحمد الميلي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، الطبعة الثانية، ١٩٥٨م.

٤٤ . المستطرف في كل فن مستظرف، لشهاب الدين الأبشيهي، تحقيق: د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م.

٤٥ . مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤١٦-١٤٢١هـ.

٤٦ . مشكاة المصابيح، للخطيب التبريزي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٣٩٩هـ

٤٧ . المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، لشمس الدين السخاوي، تحقيق: محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ.

٤٨ . الملل والنحل، للشهرستاني، تحقيق: أمير مهنا وعلي فاعور، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤هـ.

٤٩ . من دروس يوم العلم: الإمام ابن باديس وحجاب المرأة، مقال للشيخ عبد الرحمن شيبان، بموقع: جريدة البصائر الجزائرية.

٥٠ . منهج النبي ﷺ في الدعوة من خلال السيرة الصحيحة، للدكتور محمد أمحزون، دار السلام، القاهرة.

٥١ . منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله، لخالد بن عبد اللطيف نور، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة النبوية، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.

٥٢ . الموجز في تاريخ الجزائر، ليحيى بو عزيز، دار الطليعة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٦٥م.

٥٣ . الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الطبعة الرابعة، ١٤٢٠هـ.

٥٤ . موضوع (الشيخ محمد الصالح رمضان كما عرفته) في موقع: ملتقى أهل الحديث: منتدى تراجم أهل العلم المعاصرين.

٥٥ . موقف ابن تيمية من الأشاعرة، للدكتور عبد الرحمن المحمود، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

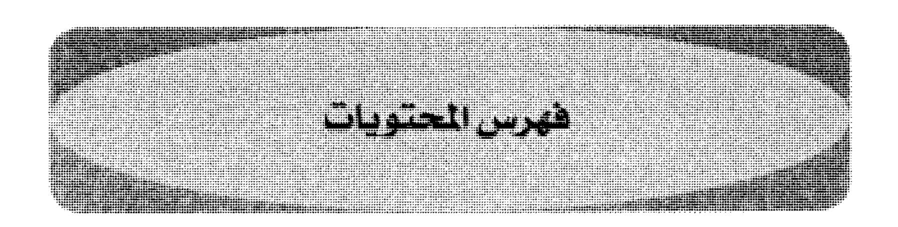
٥٦ . موقع: الإمام عبد الحميد ابن باديس، على الشبكة العالمية.

٥٧ . النبوات، لابن تيمية، تحقيق: د. عبد العزيز الطويان، نشر الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.

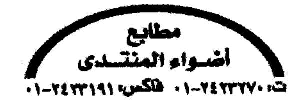
٥٨ . هذه هي الجزائر، لأحمد توفيق المدني، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

٥٩ . هل كان ابن باديس سلفياً؟ في موقع: منتدى الأصلين.

٦٠ . وذكرهم بأيام الله، لمحمد العبدة، سلسلة كتاب المنتدى، إصدار المنتدى الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ.



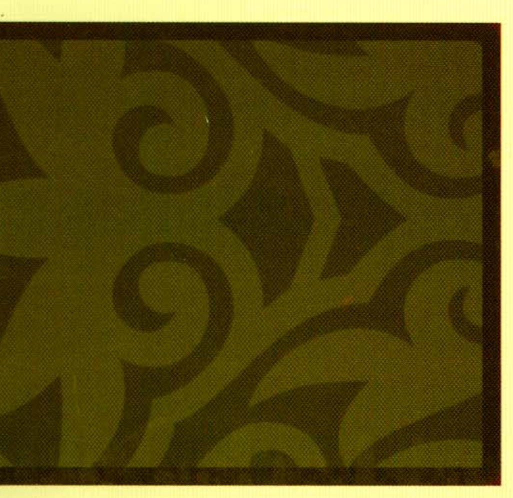
# فهرس المحتويات



مطابع
اضــواء المنتــدى
ت: ٠١-٢٤٢٣٢٧٠ فاكس: ٠١-٢٤٣٣١٩١

# التجربة الدعوية
# للشيخ عبدالحميد ابن باديس

إن في النظر في تجارب الدعاة والمصلحين حفزًا للهمة، وتسليةً في زمن الغمَّة، وإن من الدعاة المصلحين الذي كان لهم أثر عظيم في نهضة الأمة الإمامُ المجاهدُ عبدالحميد ابن باديس رحمه الله، وتجربته الإصلاحية المعاصرة في الجزائر تستحق أن يتوقف عندها الدعاة المصلحون، ويتأملوا ما فيها من دروس وعبر، ليستفيدوا منها في طريق الإصلاحِ والنهوضِ بهذه الأمة المعطاءة.






مركز البحوث والدراسات




مكتب مجلة البيان
ص.ب 26970 - الرياض - 11496
www.albayan.co.uk
sales@albayan.co.uk
هاتف : 0096614546868

